نيرانُ التَمرُّد

REBEL FIRE

الشابّ شارلوك هولمز

YOUNG SHERLOCK HOLMES

أندرو لين

ANDREW LANE

الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

المغامرة الثانية لشارلوك هولمز الشاب

نيرانُ التَمرُّد

الشاب شارلوك هولمز

The Young Sherlock Holmes:

REBEL FIRE

أنـدرو لـيـن

ANDREW LANE

ترجمة

حسان البستاني

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

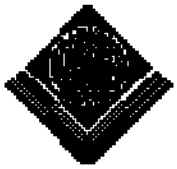

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.م
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
FIRE REBEL : Holmes Sherlock Young The
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Books Children's Macmillan
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون،
ش.م.ل.
Lane Andrew by 2010 © Copyright
All rights reserved
Arabic Copyright © 2015 by Arab Scientific Publishers , Inc . S . A . L

الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2396-7

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو

الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

صورة الغلاف: Amikishiyev Elnur
تصميم الغلاف: سامح خلف

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (+9611) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (+9611) 786233

فاتحــة

اعتقد جيمس هيلاغر أنه يهذي عندما رأى العَلَقة العملاقة في بادئ الأمر.

كان دَغْل بورنيو حارّاً وشديد الرطوبة لدرجة أن عبوره سَيراً على الأقدام يشبه التواجد داخل حمّام تركي. كانت ملابسه مشرَّبة بالعرق، ففي الجوّ قَدْر كبير من بخار الماء لدرجة عدم تبخّر العرَق عن بشرته، بل كان يتقطّر من أصابعه وأنفه، أو يسيل على جسده ويتجمع حيث تلامس ملابسه بشرته. كانت جزمته مليئة بالماء أيضًا لدرجة تمكُّنه من سماع صوت كلما خطا خطوة. بالتأكيد سيتلف الجِلد في غضون أسابيع قليلة إذا تواصل هذا الأمر. لم يسبق له أن بدا بهذا البؤس والانزعاج في حياته.

لقد جعله شعوره بالدوار بسبب الحرارة، وتجفافه، وعدم تناوله الطعام بشكل ملائم طوال أيام يعتقد أنه يهذي. وقد دأب منذ بعض الوقت على سماع أصوات تصدر من الأشجار حوله؛ أصوات هامسة تتحدّث عنه وتسخر منه. كان جزء من عقله يقول له إن ما يسمعه صوت حفيف الأوراق ليس إلا، ولكن جزءاً آخر اعتقد أن ما يسمعه أصوات أشخاص يسخرون منه؛ أراد أن يصيح في وجه تلك الأصوات ويطلب من أصحابها كمّ أفواههم، وربما أن يطلق النار عليهم إذا لم يُذعِنوا.

كان قد رأى حيوانات أربكت عقله. ربما كانت حقيقية، وربما هي مجرّد هذيان. فقد رأى قروداً ذات خطوم ضخمة بصليّة الشكل، وضفادع لمّاعة برتقالية اللون أو حمراء أو زرقاء؛ بحجم إبهامه، وفيلاً بالغاً لا يزيد طول قامته عن مستوى كتفه، وحيواناً قاتم الشعر ذا خَطم مَرِنٍ وطويلٍ ومستدقّ الرأس. كم كان عدد المخلوقات الحقيقية؟ وكم منها من نسج خياله؟

بجانبه، توقف ويل غيمسون وانحنى، واضعاً يدَيه على ركبتَيه، ومتنشّقاً بعمق الهواء المشبع ببخار الماء. قال حابساً أنفاسه: «عليّ التوقف للاستراحة قليلاً، فأنا أجد صعوبة في التحرك».

اغتنم هيلاغر الفرصة لمسح جبينه بمنديل أكثر بلَلاً ربما من وجهه. ربما كان يهذي لأنه مصاب بحمّى استوائية من نوع ما. فغابات بورنيو هذه مليئة بأمراض غريبة. وقد بلغه خبر الإبلاغ عن أشخاص هاموا على وجوههم في الدَّغل وضلّوا طريقهم ففُقدوا طوال أسابيع؛ وحين عُثر عليهم كانت البُثور تغطي وجوههم، أو بالأحرى كان اللحم الذي تحوّل إلى بثور

ينزلق عن عظامهم.

نظر حَوله بعصبية، وبدا له أن الأشجار أيضاً تبدو كما لو أنها تسخر منه. فجذوعها مضفورة عَجراء، وتخرج منها نبتات أصغر حجماً كالطفَيليات. وكانت متلاصقة لدرجة عدم تمكّنه من رؤية السماء، واللون الوحيد الذي تمكن من رؤيته منتشراً هو اللون الأخضر.

كان يرتجف بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة، ويفكر في أنه ما كان ليجد نفسه في هذا المكان المريع لو لم يكن يخشى مديره في العمل.

«أنجزنا ما يكفي اليوم». قال ذلك بصعوبة. وفي الواقع، لم يشأ قضاء المزيد من الوقت في هذا الدَّغل، بل أراد العودة إلى الميناء فحسب، وتحميل الحيوانات التي جمعاها ووضعاها في صناديق على متن السفينة، والعودة إلى الحضارة. «ليس هنا. لقد جمعنا ما يكفي من الحيوانات لإسعاده. دَع هذا المخلوق هنا. لن يلاحظ الأمر».

«أوه، سيلاحظه جيداً». قال غيمسون بعُبوس، وتابع: «لا يهم عدد الحيوانات التي نعود بها من دون هذا مخلوق؛ فهذا المخلوق هو ما يريده تحديداً».

كان هيلاغر على وشك مناقشة المسألة عندما أضاف غيمسون: «انتظر، أعتقد أن باستطاعتي رؤية واحد!».

انضمّ هيلاغر إلى زميله الذي كان لا يزال منحنياً، ولكنه يحدّق بأسفل إحدى الأشجار.

«انظر»، قال وهو يشير بإصبعه.

تبع هيلاغر الاتجاه الذي تشير إليه إصبع غيمسون. كانت هناك، في بِركة ماء بين جذور شجرتَين، كتلة دم حمراء برّاقة بحجم يده تتلألأ تحت ضوء الشمس الضعيف.

«هل أنت واثق؟». سأل هيلاغر.

«قال دْيوك إنه سيبدو بهذا الشكل. لقد قال بالتحديد إنه سيبدو على هذه الحال».

«إذاً، ماذا سنفعل؟».

بدلاً من الإجابة، مدّ غيمسون يده وأمسك ذلك الشيء بين سبابته وإبهامه ورفعه، فتقوّس كما لو أنه لا يحتوي على أية عظام. وكان هيلاغر يراقب مفتوناً.

«أجل». قال غيمسون، وقلَبه متفحّصاً إيّاه عن كثب. «انظر، هناك فم أو مِمَصّ؛ أو أيّاً يكن ما يُدعى به هذا الشيء، بالإضافة إلى ثلاث أسنان

حول الحافة. وفي الطرف الآخر يوجد مِمَصّ أيضاً. هكذا يقف؛ إنه يثبّت نفسه من الطرفَين».

«ويمتصّ دمك». قال هيلاغر بكآبة.

«إنه يمتصّ دمَ كل ما يمرّ بجانبه ببطء ويمكنه إحكام قبضته عليه». شرح غيمسون، وتابع: «مثل تلك الفِيَلة بالغة الصِّغر، وذلك الشيء الأشبه بالتابير ذي الخَطم مستدقّ الرأس؛ أي شيء».

كان شكل العَلَقة يتبدل أثناء قيامه بمراقبتها، وكانت تصبح أكثر نحولاً وطولاً. وعندما حملها، غدت مستديرة الشكل تقريباً وأشبه بدودة سميكة. كانت إصبعاه لا تزالان تمسكان بها بقوة على بُعد ثلث المسافة من الرأس؛ إذا كان بالإمكان تسمية ذلك الجزء الصغير المتصل بالفم رأساً في الواقع.

سأل هيلاغر: «ماذا يفعل بها؟ لماذا يرسل أشخاصاً إلى هذا المكان البعيد لجمعها؟».

أجاب غيمسون: «قال إنه يسمعها تناديه. أما في ما يتعلق بما يفعله بها عندما يحصل عليها فأنت لا تريد حقاً أن تعرف «. وانحنى أكثر فأكثر في اتجاه العلقة متفحّصاً إيّاها بعناية، فتمايَل المخلوق في اتجاهه من دون أن يتمكن من رؤية أي شيء؛ مُدركاً وجود دم دافئ في الجِوار. «لم تتغذَّ هذه العَلَقة منذ مدة».

«كيف يمكنك معرفة ذلك؟».

«إنها تبحث عن شيء ما لتلتصق به».

سأل هيلاغر: «هل يُفترض بنا تركها وشأنها والبحث عن واحدة أخرى غداً؟». لقد أمِل في أن يأتي جواب غيمسون بالنفي، لأنه لم يشأ حقاً قضاء المزيد من الوقت في هذا الدَّغل.

«إنها العَلَقة الأولى التي نراها في غضون أسبوع». أجاب غيمسون، وتابع: «وقد يمرّ وقت طويل قبل أن نتمكن من رؤية واحدة أخرى. لا، علينا أخذ هذه. علينا اصطحابها معنا إلى الوطن».

«هل ستنجو من الرحلة؟».

فهز غيمسون كتفَيه. «ربما؛ إذا أطعمناها قبل أن نستهلّ رحلة العودة».

«حسناً». ونظر هيلاغر حَوله. «ماذا تقترح؟ أنجعلها تمتص دم قرد أم دم أحد تلك الحيوانات الشبيهة بالخنزير؟».

لم يقل غيمسون أي شيء.

وحين التفت هيلاغر إلى الوراء رأى غيمسون يحدّق به وعلى وجهه نظرة غريبة توحي جزئياً بالتعاطف؛ ولكنها نفور في الغالب.

قال غيمسون: «أقترح أن ترفع كمّك».

«هل أنت مجنون؟». همس هيلاغر.

«لا، أنا متعقِّب ومُرشد». شرح غيمسون، وتابع: «ما كانت الغاية بالتحديد من وجودك في هذه البعثة؟ الآن، ارفع كمّك. هذا المخلوق المرعب بحاجة إلى دم، ويحتاج إليه الآن».

ببطء، شرع هيلاغر برفع كمّه؛ مُدركاً ما سيكون عليه ردّ فعل ذْيوك إذا اكتشف أن هيلاغر ترك العَلَقة تموت بدلاً من إطعامها.

الفصل الأول

سأل أميوس غروي شارلوك: «هل فكرتَ يوماً بالنمل؟».

فهز شارلوك رأسه وأجاب: «عدا عن واقع انقضاضها على شطائر المربّى في النُّزهات، لا يمكنني القول إنني فكرت فيها كثيراً».

كان الاثنان في منطقة ساري الريفية، حيث تُرخي حرارة الشمس بثقلها على مؤخّر عُنُق شارلوك كالآجرّ، ويبدو الأريج الطاغي للزهور والتِّبن المحصود حديثاً كما لو أنه معلَّق في الهواء حوله.

أزّت نحلة قرب أُذنه فجفل. كانت مشاعره متناقضة حيال النمل، ولكن النَّحل لا يزال يُجفله.

فضحك غروي وسأله: «ما خَطْب الشطائر البريطانية وشطائر المربّى؟! أُقسم إن لِعادات تناول الطعام البريطانية مظهرَ دارِ حضانةٍ لا يمتاز به أي بلد آخر. أطباق بودِنغ يتصاعد منها البُخار، شطائر مربّى، وخُضار مسلوقة لمدة طويلة لدرجة تمتّعها بقَدْر كبير من النكهة. إنه طعام لا يحتاج تناوله إلى أسنان».

شعر شارلوك بطعنة استياء، فسأل مبدِّلاً وضعيّة جلوسه على الجدار الحجري الجافّ: «إذاً، ما الرائع في الطعام الأميركي؟!». أمامه، كانت الأرض تنحدر في اتجاه نهر بعيد.

«قِطع اللحم البقَري». قال غروي ببساطة. كان متكئاً على الجدار المرتفع حتى صدره، وذَقنه المربَّع يرتاح على ذراعَيه المطويّتَين المتشابكتَين، فيما قبّعته ذات الحافّة العريضة تقي عينَيه من أشعة الشمس. كان يرتدي بذلة الكتّان البيضاء المعتادة. «قطع لحم كبيرة مشويّة على اللهَب؛ مَشويّة بشكل مناسب حيث تتكوّن أجزاء صغيرة هشّة على حوافها، ولم يتمّ تحريكها بشكل متماوج فوق شمعة كما يفعل الفرنسيون، وليست مغطاة بصلصة قِشدية كما يفعل الفرنسيون أيضاً. لا يتطلب الأمرُ المقدرةَ العقلية الفذة لطهو قِطعة لحم بقَري وتقديمها بطريقة ملائمة. إذاً، لماذا لا يستطيع أحد خارج الولايات المتحدة القيام بالأمر بالشكل الصحيح؟!». تنهّد، وسرعان ما زالت فجأةً طبيعته البهيجة الجيّاشة ليحلّ مكانها حزن رَتيب ظاهر.

«تفتقد إلى أميركا، أليس كذلك؟». قال شارلوك ببساطة.

«أنا بعيد عنها منذ مدة أطول مما ينبغي للمرء الابتعاد عن وطنه. وأعرف أن فرجينيا تفتقد إلى بلدها الأم أيضاً».

وفوراً، امتلأت مخيّلة شارلوك بصورة لابنة غروي، فرجينيا، وهي تمتطي

حصانها ساندیا، وشعرها الأحمر بلون النحاس متطاير وراءها كشُعلة تتبعها.

«متى ستعود؟». سأل شارلوك آملاً في ألا يكون موعد مغادرته قريباً. فقد اعتاد على غروي وفرجينيا، ويحب أن يكونا في حياته بما أنه أُرسل للعيش مع عمّه وزوجته.

«عندما ينتهي عملي هنا». وغضّنت ابتسامة كبيرة وجهه المتجعد، وتبدّل مِزاجه. «وعندما أرى أنني أدّيت مسؤوليتي كاملة تجاه شقيقك؛ وذلك بتعليمك كل ما أعرفه. الآن، لِنتحدث عن النمل».

فتنهّد شارلوك، واستسلم لدرس آخر من دروس غروي المرتجَلة. باستطاعة الأميركي ضخم البنية الاعتماد في دروسه على أي شيء يجده حوله_ سواء أكان في الريف أو المدينة أو في منزل أحدهم_ واستخدامه كنقطة انطلاق لصياغة سؤال، أو طرح مشكلة، أو تشكيل أُحجية منطقية. إنها البداية لإزعاج شارلوك.

قوّم غروي وقفته، وأجال بصره في أنحاء المكان، ثم قال: «أعتقد أنه سبق لي أن رأيت بعض النمل هنا». وتوجّه بعد ذلك نحو كومة صغيرة من التراب الجافّ المكدَّس على غرار تلّة صغيرة جداً على رُقعةِ عشب. لم يُخدَع شارلوك. ربما رآها غروي في طريقهما إلى الأعلى، وقرّر استخدامها في دورته التدريبية التالية.

قفز شارلوك عن الجدار، وسار إلى المكان حيث يقف غروي. «كَثيب نمل». قال بقليل من الحماسة حين رأى أشكالاً سوداء صغيرة تجوب محيط كومة التراب على غير هدى.

«بالفعل. إنه الدليل الخارجي الذي يؤكد وجود مجموعة كاملة من الأنفاق الصغيرة تحت الأرض حفرتها المخلوقات الصغيرة بصبر. في مكان ما تحت الأرض هنا ستجد آلاف البيوض البيضاء الصغيرة التي وضعتها ملكة نمل تقضي حياتها تحت الأرض، ولا ترى ضوء النهار أبداً».

انحنى غروي وأومأ لشارلوك للانضمام إليه قائلاً: «انظر إلى كيفية تحرّك النِّمال. ما الذي يأسر انتباهك؟».

فراقبها شارلوك للحظات. لم تكن هناك نملتان تسلكان اتجاهاً واحداً، بل يبدو أن كلّاً منها تغيّر اتجاهها على الفور من دون أي سبب ظاهر. «إنها تتحرك عشوائياً. أم إن سلوكها هذا رد فعل تجاه شيء ما لا يمكننا رؤيته؟!».

«أظنّ أن التفسير الأول هو الصحيح على الأرجح». أجاب غروي، ثم تابع: «تدعى مشية النَّمل، وهي طريقة جيدة في الواقع لمسح الأرض

بسرعة إذا كنت تبحث عن شيء ما. إن معظم الناس الذين يبحثون في منطقة ما يسيرون وفقاً لخطوط مستقيمة فحسب؛ ويجتازونها بشكل متقاطع، أو يَقسمون المنطقة إلى شبكة مربَّعات ويفتشون كل مربَّع على حِدة. تضمن هاتان التقنيتان النجاح في النهاية. ولكنّ فرص العثور على ما يتم البحث عنه بسرعة تزداد لدى اعتماد هذه الطريقة العشوائية التي تعتمدها النملات في مسح الأرض. إنها تدعى مشية الثّمل لأنها طريقة سير المرء عندما يملأ معدته بالشراب؛ إذ تتّبع كلّ من السّاقين وجهة مختلفة عن الأخرى، ويتخذ الرأس وجهة مختلفة تماماً». ومدّ يده إلى جَيب سترته وأخرج شيئاً ما. «ولكن بالعودة إلى النمل، عندما تعثر على شيء ما يثير اهتمامها راقب ما تفعله».

وأرى غروي شارلوك ما يحمله؛ آنية فخارية مغطاة بورق مشمَّع مربوط بخيط. «عسل». قال قبل أن يتمكن شارلوك من طرح السؤال. «اشتريته من السوق». وسحب الخيط، ورفع الورق المشمَّع. «آسف إذا كان هذا الأمر يُعيد إليك ذكريات سيّئة».

«لا تقلق». قال شارلوك، وانحنى راكعاً بجانب غروي. «هل يمكنني أن أسألك عن سبب تجوّلك مع آنية فخارية مليئة بالعسل في جَيبك؟».

أجاب غروي مبتسماً: «لا يعرف المرء أبداً ما الذي يمكن أن يحتاج إليه فجأة، أم إنني خططتُ لكل ذلك مُسبَقاً؟ اخترْ».

ابتسم شارلوك فحسب وهز رأسه.

«العسل مكوَّن من السكّر إلى حد كبير، إضافةً إلى عدد وافر من المكونات الأخرى. والنِّمال تحبّ السكّر، وتنقله دائماً إلى مسكنها لإطعام الملكة واليرَقات الصغيرة الخارجة من البَيض».

مُغمّساً إصبعه في العسل_ لاحظ شارلوك أنه سائل تقريباً بسبب حرارة شمس الصباح القوية_ غرف غروي مقداراً كبيراً من العسل البرّاق، ثم جعله يسقط، فوقع على كُتلة عشب، وبقي هناك للحظات قليلة قبل أن يغوص ويتسلل إلى سطح الأرض ويستقر هناك في خيوط متعرّجة ومتلألئة.

«الآن، لِنرَ ما ستفعله المخلوقات الصغيرة».

راقب شارلوك النمل وهو يواصل تجواله العشوائي؛ فيتسلّق بعضه بعض الأعشاب ويتدلّى رأساً على عَقِب لبعض الوقت، فيما يبحث البعض الآخر عن طعام وسط حبات الرمل. بعد قليل، عبرت نملة قرب خط من العسل، ثم وقفت في منتصف الطريق. ظنّ شارلوك للحظة من الزمن أنها

التصقت به، غير أنها جالت على امتداد الخطّ ثم عادت أدراجها وغمست رأسها كما لو أنها تشرب.

«إنها تجمع منه بقَدْر ما تستطيع حمله». قال غروي بطريقة حِوارية. «ستتوجه إلى مسكنها الآن». وبالفعل، عادت النملة أدراجها متتبّعة خطاها كما يبدو، ولكنها واصلت التنقل إلى الأمام والوراء بدلاً من التوجه إلى مسكنها مباشَرةً. راقبها شارلوك لدقائق قليلة، وفقد أثرها مرتَين تقريباً أثناء تقاطع طريقها مع طريق مجموعات أخرى من النمل، ولكنها بلغت كومة التراب الجافة أخيراً، واختفت داخل ثُقب في جانبها.

«إذاً، ماذا الآن؟». سأل شارلوك.

«انظر إلى العسل». أجابه غروي.

كانت عشر نملات وربما خمس عشرة نملة قد اكتشفت وجود العسل، وبدأت بأخذ عيّنات منه. وواصلت نملات أخرى الانضمام إلى الحشد أثناء انفصال بعض النملات وابتعادها عن العسل متجهة إلى مسكنها بإبهام.

«ماذا تلاحظ؟». سأل غروي.

أحنى شارلوك رأسه لينظر عن كثب، ثم قال بدهشة: «تسلك النملات طريقاً أقصر أكثر فأكثر كما يبدو للعودة إلى مسكنها».

وبعد دقائق قليلة، تشكل خطان متوازيان من النملات المتنقلة بين العسل والعش. لقد استُبدل التجوال العشوائي باتجاه محدَّد.

«جيد». قال غروي موافقاً، ثم تابع: «الآن، لنجرّب اختباراً صغيراً».

مدّ يده إلى داخل جَيبه وأخرج قُصاصة ورق بحجم راحة يده، ووضعها أرضاً في منتصف المسافة الفاصلة بين مسكن النمل والعسل. عندها، عبرت النملات الورقة أثناء توجهها إلى مسكنها كما لو أنها لم تلاحظها.

«كيف تتواصل؟». سأل شارلوك. «كيف أخبرت النِّملة التي عثرت على العسل تلك الموجودة في المسكن عن مكانه؟».

أجاب غروي: «إنها لا تخبرها، فواقع عودتها مع العسل دلالة على وجود طعام في الخارج. فهي لا تستطيع مخاطبة بعضها بعضاً، ولا تستطيع قراءة أفكار بعضها أيضاً، ولا تستطيع الإشارة بأرجلها الصغيرة تلك. في الواقع، إن ما يحدث أمر أكثر حِذقاً. دَعني أُريك».

مدّ غروي يده إلى الأسفل، ورفع ببراعة قُصاصة الورق مُميلاً إيّاها تسعين درجة. عندها، ابتعدت النملات الموجودة على الورقة عن الحافة فوراً، ومن ثم بدت تائهة، وراحت تجول على غير هُدى. ولكن شارلوك

دهش لدى رؤيته النملات الموجودة على الورقة وهي تعبرها حتى بلغت منتصف المسافة الفاصلة بين جوانبها، وبعد ذلك عادت وتوجّهت بشكل عمودي إلى طريقها السابق حتى بلغت الحافة، ثم ابتعدت عنها مجدداً، وشرعت بالتجوال ثانيةً على غير هدى.

قال شارلوك بصوت هامس: «إنها تسلك طريقاً يمكنها رؤيته، ولكننا لا نستطيع رؤيته. بطريقة ما، رسمت النملات القليلة الأولى الطريق وتبعته بقيّة النملات. وعندما قلبت الورقة، واصلت تتبّع الطريق؛ غير مُدركة أنه بات يؤدي إلى مكان آخر».

«صحيح». قال غروي موافقاً. «التخمين الأفضل هو وجود مادة كيميائية من نوع ما تفرزها النملات. فعندما تنقل النملة طعاماً، تترك وراءها أثراً مكوَّناً من مادة كيميائية. تخيّل خِرقة مغطاة بشيء ما ذي رائحة قوية، كاليانسون مثلاً، مربوطة بإحدى أرجلها، وتخيّل النملات الأخرى وهي تتبّع أثر اليانسون. فنتيجةً لمشية الثّمل، تجول النملة الأولى في المكان بأَسره قبل العثور على المسكن. ومع عثور المزيد من النملات على العسل، يسلك بعضها طرقاً أطول للوصول إلى المسكن، فيما يسلك بعضها الآخر طرقاً أقصر. وبقيام المزيد من النملات بتتبّع النملات التي تنقل العسل إلى المسكن، تُعزّز المادة الكيميائية الطرق الأقصر لأنها أفضل، وتمكّن النملات من العودة بسرعة، وتتلاشى الطرق الأطول - تلك التي تجوبها النِّمال على غير هدى - لأنها لا تحقق النتيجة المرجوّة. وفي النهاية، ينتهي بها الأمر مع مسلك مستقيم تقريباً. ويمكنك إثبات ذلك بالقيام بما فعلتُه بالورقة. إذ تواصل النملات اتّباع الدرب الذي يكون مستقيماً؛ عِلماً أنه يوصلها إلى مكان بعيد عن المسكن وليس إليه، ولكنها تصحّح وجهتها في النهاية».

همس شارلوك: «هذا أمر لا يصدَّق! لم أكن أعرف ذلك أبداً. لا علاقة للأمر... بالذكاء... بل بالغريزة. ولكن الأمر يبدو كما لو أن ما تقوم به يعتمد على الذكاء».

«أحياناً تكون المجموعة أقل ذكاءً من الفرد. انظر إلى الناس على سبيل المثال، يمكنهم أن يكونوا منضبطين حين يكون كلٌّ منهم على حِدة، ولكن حين تضعهم مع أشخاص غوغائيين يمكن أن تندلع أعمال الشغب بسهولة؛ ولا سيما إذا كان هناك تحريض أو استفزاز. في أحيان أخرى، تُظهر المجموعة سلوكاً أكثر حِذقاً من سلوك الفرد؛ كما هو الحال هنا مع النمل أو مع النَّحل».

قوّم غروي وقفته نافضاً التراب والعشب عن سرواله الكتانيّ، ثم تابع:

«تُنبئني الغريزة أن الوقت قد شارف على موعد الغداء. هل تعتقد أن باستطاعة عمك وزوجته إيجاد مكان إلى مائدة الغداء لأميركيّ هائم على وجهه؟».

«أنا واثق من أنهما يستطيعان القيام بذلك». أجاب شارلوك. «ولكنني لست واثقاً من مدبّرة المنزل، السيدة إغلانتين».

«دَع أمرها لي. لديّ احتياطيات لا نهاية لها من الجاذبية التي يمكنني نشرها في لحظات».

عادا عبر الحقول مروراً بأَيكات من الأشجار. وفي تلك الأثناء، كان غروي يشير لشارلوك إلى حبات الفطر الصالحة للأكل والأخرى السامة التي لا يمكن تناولها؛ معزِّزاً الدروس التي لقّنها للفتى قبل أسابيع. حتى ذلك الحين، كان شارلوك واثقاً نوعاً ما من قدرته على مواصلة الحياة في القَفر من دون تعرّضه للتسمم من جراء تناوله ما يستطيع العثور عليه.

في غضون نصف ساعة، اقتربا من عزبة آل هولمز. وهو منزل ضخم وموحِش بعض الشيء، يقع على أَكرات قليلة من أرض مترامية الأطراف. رأى شارلوك نافذة غرفة نومه الخاصة في أعلى المنزل، وهي غرفة صغيرة غير عادية تقع تحت سقف منحدر. لم تكن مريحة، لذا لم يتطلّع قط إلى الخلود إلى السرير في الليل.

كانت هناك عربة خارج الباب الأمامي، يوجّه حوذيّها ضربات خفيفة وسريعة إلى الحصان بسَوطه أثناء قيام هذا الأخير بمضغ التِّبن من مِخلاة مثبَّتة حول رأسه.

«ألديكم زائرون؟». سأل غروي.

«لم يُشر العم شِرينفورد وزوجته آنا إلى قدوم أي شخص لتناول الغداء اليوم». أجاب شارلوك متسائلاً عن الموجودين في العربة.

«حسناً، سنكتشف الأمر بعد دقائق قليلة». قال غروي، وتابع: «إذ إن وضع تخمينات لمسألة ستُقدَّم لك إجابتها على طبَق بعد لحظات هدر للطاقة الفكرية».

بلغا الدرجة المؤدية إلى الباب الأمامي، فركض شارلوك في اتجاه الباب المفتوح جزئياً يتبعه غروي برزانة.

كانت الرَّدهة مُظلمة، وقد تسللت إليها أشعة من نور الشمس عبر النوافذ العالية؛ فبدت ذرات الغبار المتطايرة في الغرفة بوضوح. وكانت اللوحات الزيتية التي تكسو الجدران مرئية تقريباً في الظلام، ولحرارة الصيف وجود مادّي تقريباً.

«سأخبر أحدهم بأنك وصلت». قال شارلوك لغروي.

«لا حاجة لذلك». تمتم غروي. «هناك من يعرف بحضوري». وأومأ برأسه في اتجاه الظلال تحت الدرج.

عندها، خرج شكل بشري من الظلال؛ فستان أسود وشعر أسود يتناقضان مع بياض البشرة.

قالت مدبّرة المنزل: «يا سيد غروي، لا أعتقد أننا كنا نتوقع وصولك».

فأجاب بوقار: «يتحدث الناس من كل حَدْب وصَوْب عن حُسن ضيافة عائلة هولمز، وعن المأكولات اللذيذة التي تقدمها لعابري السبيل. وعلاوةً على ذلك، كيف يمكنني التخلي عن فرصة رؤيتك مجدداً يا سيدة إغلانتين؟!».

أخذت السيدة إغلانتين نفساً عميقاً، واختلجت شفتاها النحيفتان تحت أنفها الناعم، وقالت: «أنا على ثقة تامة بأن العديد من النساء يستسلمنَ لفتنتك المهيمنة يا سيد غروي. ولكنني لستُ إحداهنّ».

«سيبقى السيد غروي لتناول الغداء». قال شارلوك بحزم، ولكنه شعر برعشة في قلبه مع انتقال نظرة السيدة إغلانتين الحادة كالإبرة إليه.

فأجابته بحدّة: «الأمر متوقف على عمتك وزوجته، وليس عليك».

«إذاً، سأنقل لهما الخبر، وليس لك». واستدار مجدداً نحو غروي قائلاً: «انتظر هنا رجاء ريثما أتحقق من الأمر». وعندما استدار نحو إغلانتين، كانت قد توارت عن الأنظار داخل الظلال واختفت.

«هناك أمر غريب في شأن تلك المرأة». تمتم غروي. «فهي لا تتصرف كمدبرة منزل، بل تتصرف أحياناً كما لو أنها فرد من العائلة؛ كما لو أنها المسؤولة».

فأجابه شارلوك: «لا أعرف سبب إفلاتها من عقوبة عمي وزوجته. فأنا ما كنت لِأدعها تُفلت من العقوبة».

وعبر إلى البَهو وألقى نظرة سريعة إلى الداخل. كانت الخادمات يتحركنَ بنشاط حول خزائن غرفة الطعام في أحد أطراف الغرفة، جالبات أطباق اللحم البارد، والسمك، والجُبن، والأرزّ، والخُضروات المخلَّلة، والخبز؛ لتتمكن العائلة من الدخول وتناول الطعام بما أنها الطريقة العادية لتناول الغداء في عزبة آل هولمز. ولكن، لم يكن هناك أي أثر لعمه وزوجته. عاد شارلوك إلى الرَّدهة، وتوقف للحظات قبل أن يدنو من باب المكتبة ويقرع عليه.

«أجل؟». قال صوت من الداخل؛ صوت اعتاد إلقاء العِظات والخُطَب،

وقد قضى صاحبه معظم حياته وهو يكتب؛ صوت عم شارلوك، شِرينفورد هولمز. «ادخل!».

فتح شارلوك الباب، وقال حين رأى عمه جالساً إلى طاولة مكتبه، مرتدياً بِذلة سوداء ذات تفصيل قديم الطراز، ولحيته الطويلة تغطي صدره وتستقر على النشّافة أمامه: «السيد غروي هنا، وكنت أتساءل إذا كان بإمكانه البقاء لتناول الغداء».

«أرحّب بفرصة التحدث إلى السيد غروي». أجاب شِرينفورد هولمز، ولكن الرجل الواقف قرب النوافذ الفرنسية المفتوحة حيث يظهر ظل معطفه الطويل وياقته العالية على الأرض صرف انتباه شارلوك، فصرخ قائلاً: «مايكروفت!».

أومأ شقيق شارلوك برأسه للفتى برزانة، ولكن كان هناك تلألؤ في عينيه لم يتمكن سلوكه الرصين من إخفائه. «شارلوك، تبدو في حال جيدة. من الواضح أن الإقامة في الريف تلائمك».

«متى وصلتَ؟».

«منذ ساعة. قدمتُ من واترلو، واستقللت عربة خَيل من المحطة».

«كم ستبقى؟».

فهز مايكروفت كتفَيه بحركة خفيفة مقارنة مع بنيته الجسدية الضخمة وقال: «لم أشأ البقاء في الليل، ولكنني أردت التحقق من تطوّرك. كنت آمل أن أرى السيد غروي أيضاً. يُسعدني أنه هنا».

«سأُنهي وشقيقك عملنا». قال شِرينفورد، وتابع: «وسنراك في قاعة الطعام».

إنه طرد واضح. لذا، أغلق شارلوك الباب. لقد شعر ببسمة تمتد عبر وجهه. مايكروفت هنا! وفجأةً، أصبح اليومُ أكثر مرَحاً وتفاؤلاً مما كان عليه قبل لحظات.

«هل سمعتُ صوت شقيقك!؟». زمجر أميوس غروي من الجانب الآخر للرَّدهة.

«تلك عربته في الخارج. قال إنه يريد التحدث إليك».

فأومأ غروي برأسه برزانة، وقال بهدوء: «أتساءل عن السبب».

«قال العم شِرينفورد إن بإمكانك البقاء لتناول الغداء معنا. وقال إنهما سيلتقياننا في قاعة الطعام».

«يبدو لي هذا كمنهاج عمل». قال غروي بصوت أعلى، ولكن تجهّماً يخالف رشاقةَ انطلاقِ كلماته ظهر على وجهه.

سار شارلوك في المقدّمة إلى قاعة الطعام. كانت السيدة إغلانتين واقفة هناك قرب الجدار، في الظل بين نافذتَين واسعتَين. لم يكن شارلوك قد رآها تمرّ بجانبه في الرَّدهة، وتساءل للحظات عما إذا كانت شبحاً قادراً على اختراق الجدران، ولكنه سرعان ما اعتبر الفكرة خرقاء؛ فالأشباح غير موجودة.

متجاهلاً السيدة إغلانتين، توجه إلى الخزانة، والتقط طبَقاً وشرع بملئه بشرائح اللحم وقِطع السَلَمون، فتبعه غروي، وشرع بملء طبَقه أيضاً.

واصل شارلوك التفكير بعد ظهور شقيقه الأكبر مجدّداً. كان مايكروفت يُقيم ويعمل في لندن، عاصمة الإمبراطورية؛ كموظف مدني يعمل لصالح الحكومة. وبالرغم من استخفافه بمنصبه وقوله إنه مجرد كاتب ملفات، لطالما اعتقد شارلوك أن مايكروفت أكثر أهمية مما يزعم. فعندما كان شارلوك في منزله - مع والدته ووالده؛ أي قبل إرساله للإقامة مع عمه وزوجته - كان مايكروفت يصل أحياناً من لندن ويمكث أياماً قليلة، فيلاحظ شارلوك ظهور رجل كل يوم في عربة مع صندوق أحمر يسلّمه لمايكروفت شخصياً، وفي المقابل يسلّمه مايكروفت مغلّفاً يحتوي_ كما افترض شارلوك_ على رسائل ومذكرات وُضعت استناداً إلى محتويات صندوق اليوم السابق. أيّاً يكن منصبه، فلا تزال الحكومة بحاجة إلى الاتصال به كل يوم.

فيما كان فمه مليئاً بالطعام، سمع باب غرفة المكتبة يُفتح. وبعد لحظات، دخل شِرينفورد هولمز طويل القامة والمحدَودب قاعة الطعام.

«آه، بروما ثيون». هتف باليونانية محدّقاً بالخزائن.

ثم ألقى نظرة سريعة في اتجاه شارلوك وقال: «يمكنك استخدام المكتبة يا بسيخِس إياتريون لأجل اجتماعك بشقيقك». وملتفتاً إلى غروي أضاف: «وقد طلب بصفة خاصة أن تنضم إليهما».

وضع شارلوك طبقه على الطاولة، وتوجّه بسرعة إلى المكتبة، وتبعه غروي الذي قطعت ساقاه الطويلتان المسافة بسرعة بالرغم من مِشيته البطيئة الجليّة.

كان مايكروفت واقفاً في المكان نفسه قرب النوافذ الفرنسية، فابتسم لشارلوك، ومن ثم توجّه نحوه وشعّث له شعره، وانزلقت الابتسامة عن وجهه أثناء إلقائه نظرة سريعة على غروي، ولكنه صافح الأميركي، وقال:

«الأمور المهمة أولاً. بعد تحقيق شامل نوعاً ما من قِبَل الشرطة، لم نعثر على أي أثر للبارون موبرتس. نعتقد أنه فرّ من البلد إلى فرنسا. أما النبأ السارّ فهو أنه لم تقع أيّ وفيات في أوساط الجنود البريطانيين، أو أي جانب آخر، من جراء لَسْعات نَحْل».

«إن مسألة نجاح خطة موبرتس أو عدم نجاحها أمر قابل للنقاش». قال غروي برزانة، وتابع: «أشتبه بأنه مختلّ العقل. ولكن، حسناً فعلنا بعدم المجازفة».

«والحكومة ممتنّة كثيراً». أجاب مايكروفت.

«مايكروفت، ماذا عن الوالد؟». سأل شارلوك تلقائياً.

فأومأ مايكروفت برأسه. «أصبحت سفينته على مقربة من الهند الآن. أتوقع منه أن ينزل إلى البرّ مع فَوجه في غضون أسبوع، ولكننا لن نتلقى أي خبر منه على الأرجح - أو من أي شخص آخر - قبل شهر أو شهرَين؛ إذ إن سرعة الاتصالات في تلك القارّة البعيدة على حالها. إذا بلغني أي شيء فسأخبرك في الحال».

«و... الوالدة؟».

«صحتها ضعيفة كما تعلم. إنها في حالة مستقرّة في الوقت الحاضر، ولكنها بحاجة إلى الراحة. فهمتُ من طبيبها أنها تنام ست عشرة ساعة أو سبع عشرة في اليوم». وتنهّد ثم تابع: «هي بحاجة إلى وقت يا شارلوك؛ إلى الوقت وعدم بَذل أي جهد عقلي وجسدي».

«أفهم». وسكت شارلوك محاولاً التغلّب على غصّة في حَلْقه. «إذاً، هل سأبقى هنا في العزبة طوال بقيّة الإجازة المدرسية؟».

«لست واثقاً من ذلك». أجاب مايكروفت، «مدرسة ديبدين للفتيان تلك مفيدة لك كثيراً».

«لقد تحسّنت لغتي اللاتينية». أجاب شارلوك بسرعة، ومن ثم لعن نفسه في سره؛ إذ يُفترض به موافقة شقيقه الرأي، وليس عدم موافقته الرأي.

«لا شك في ذلك». قال مايكروفت بجدّيّة، «ولكن هناك أموراً أخرى يُفترض بك تعلّمها غير اللغة اللاتينية».

«أتعني اللغة اليونانية؟». لم يتمالك شارلوك نفسه من طرح السؤال.

فابتسم مايكروفت رُغماً عنه. «أرى أن حس الفكاهة المَرِح الذي تتمتع به قد تَواصل أثناء إقامتك هنا. ولكن لا، فبالرغم من الأهمية الواضحة للّاتينية واليونانية بالنسبة إلى العالَم المعقَّد بشكل متزايد الذي نعيش فيه، أعتقد أن أسلوباً تعليمياً شخصياً وفردياً سيكون ملائماً لك أكثر. أفكر مليّاً في سحبك من ديبدين وتدبّر أمر تلقّيك دروساً خصوصية هنا، في عزبة آل هولمز».

«أتعني عدم العودة إلى المدرسة!؟». وبحث شارلوك عن أمر ما يهتم

به هناك، ولكنه لم يجد أي شيء. فلا أصدقاء له هناك، حتى إن أفضل ذكرياته مرتبطة بالسأم أكثر من ارتباطها بالسعادة. لا شيء يربطه بديبدين.

«علينا التفكير في المستقبل، وفي قبولك في الجامعة». تابع مايكروفت. «كامبريدج بالطبع، أو أوكسفورد. أعتقد أنك ستحظى بفرصة أفضل إذا ركزنا على توفير مقدار من التعليم أكبر مما توفّره لك ديبدين». وابتسم ثانيةً. «أنت فتى متفرّد عن سواك، ويجب معاملتك على هذا الأساس، لن أعطيك وعوداً، ولكنني سأُعلمك قبل نهاية الإجازة بالتدابير التي اتُخذت».

«هل أفترض كثيراً عندما أسأل عما إذا كنت سأحظى بدور صغير في تعليم هذا الفتى؟». زمجر أميوس غروي.

«أجل». قال مايكروفت، والتوت شفتاه قليلاً، «من الواضح أنك أبقيته على الطريق القويم والضيّق بشكل جيد حتى الآن».

«إنه من آل هولمز». أشار غروي، «يمكن توجيهه، ولكن لا يمكن إرغامه. كنتَ مماثلاً له».

«أجل». قال مايكروفت ببساطة. «كنت مثله، أليس كذلك؟». وقبل أن يتمكن شارلوك من التحقق من صحة إدراكه الفجائي بأن غروي قد درّس مايكروفت أيضاً، قال مايكروفت: «من فضلك يا شارلوك، هل تسمح لي بالتحدث إلى السيد غروي على انفراد؟ فهناك مسألة علينا مناقشتها».

«هل... سأراك قبل أن تغادر؟».

«بالطبع. لن أغادر قبل المساء. يمكنك أن ترافقني في جولة تعريفية على أرجاء المنزل إذا شئت».

«يمكننا القيام بنزهة سيراً على الأقدام في فناء المنزل». اقترح شارلوك.

فهز مايكروفت كتفَيه. «لا أظن ذلك. لا أعتقد أن ملابسي ملائمة للتنزه».

«لن نتخطى المحيط القريب من المنزل!». اعترض شارلوك. «لن نقصد الغابات!».

«إذا كنت لا أستطيع رؤية سقف فوق رأسي، ولا أشعر بألواح الأرضية أو الرصيف تحت قدمَيَّ، فيُعتبر الأمر نُزهة بالنسبة إلي». قال مايكروفت بحزم، ثم أردف: «الآن، يا سيد غروي... إلى العمل».

غادر شارلوك المكتبة بتردد، وأغلق الباب وراءه. وفقاً للأصوات المنبثقة من قاعة الطعام، يبدو أن زوجة عمه قد انضمّت إلى عمه لتناول الغداء. لم يشعر بالرغبة في إخضاع نفسه لدَفق ثرثرتها المتواصل، لذلك توجّه إلى الخارج. جال في الأنحاء بجانب المنزل، واضعاً يدَيه في جَيبَيه وراكلاً حجراً

من حين إلى آخر. كانت الشمس فوق رأسه تقريباً، وتمكن من الشعور بغشاء رقيق من العرق على جبينه وبين عظمَي لوحَي كتفَيه.

كانت النوافذ الفرنسية للمكتبة فوقه؛ النوافذ الفرنسية المفتوحة.

وتمكن من سماع أصواتٍ من داخل المكتبة.

كان جزء من عقله يقول له إنه حديث خاص استُثني منه بصفة خاصة، ولكن جزءاً آخر أكثر إغواء كان يقول له إن مايكروفت وأميوس غروي يناقشان مسألته.

فاقترب من الحافة الحجرية الممتدة على جانب المنزل.

«وهل هم واثقون؟». كان غروي يسأل.

«سبق لك أن عملتَ لبينكرتون». أجاب مايكروفت. «وكما تعلم، مصادرهم الاستخباراتية دقيقة جداً في العادة؛ حتى رغم هذه المسافة البعيدة عن الولايات المتحدة الأميركية».

«ولكن سفره إلى هنا...».

«أفترض أن أميركا كانت خطرة جداً عليه».

«إنه بلد كبير». أشار غروي.

«وقدر كبير منه غير متمدّن». ناقضه مايكروفت.

لم يقتنع غروي. «لقد توقّعتُ منه عبور الحدود إلى المكسيك».

«ولكنه لم يفعل ذلك كما يبدو». كان صوت مايكروفت حازماً. «انظر إلى الأمر بهذه الطريقة؛ أُرسلتَ إلى إنكلترا لتعقّب المتعاونين الجنوبيين في الحرب الأهلية الذين وُضعت مكافأة لقاء رؤوسهم. هل هناك سبب أفضل لسفره إلى هنا من وجودهم هنا؟».

«هذا منطقي». أقرّ غروي. «هل تشتبه بوجود مؤامرة؟».

فتردد مايكروفت للحظات. «ربما تكون كلمة مؤامرة قوية جداً. أشتبه بأنهم ينجذبون جميعاً إلى هذا البلد لأنه متمدّن، ولأن الناس يتكلمون اللغة نفسها، ولأنه آمن. ولكن المؤامرة ستنمو مع الوقت. عدد كبير من الناس الخطرين، وكل ما يقومون به هو التحدث إلى بعضهم بعضاً... علينا القضاء على هذا الأمر في مهده».

كانت الأفكار تتنازع شارلوك. ما الذي يتكلمان عنه بحق الله؟! لقد أصغى إلى الحديث في وقت متأخر، ولم يجد معنى لما سمعه.

«أوه، يا شارلوك». ناداه شقيقه من داخل الغرفة، «يمكنك الانضمام إلينا أيضاً ما دمتَ تسترق السمع».

الفصل الثاني

دخل شارلوك المكتبة عبر النوافذ الفرنسية مطأطئ الرأس. كان يشعر بالحرارة والارتباك، وبالغضب أيضاً بطريقة غريبة. لم يكن واثقاً إن كان غاضباً من مايكروفت بسبب إمساكه به وهو يسترق السمع، أو من نفسه بسبب الإمساك به.

«كيف عرفتَ أنني هناك؟».

قال مايكروفت من دون أن تظهر عليه أية دلالة على التأثر: «أولاً، توقعتُ أن تكون هناك؛ فأنت شاب ذو حسّ فضوليّ مُفرط، وأظهرت الوقائع في الآونة الأخيرة أنك لا تولي اهتماماً كبيراً لقواعد المجتمع. ثانياً، هناك نسيم خفيف يهبّ عبر الفَجوة في النوافذ الفرنسية. وعندما كنتَ واقفاً في الخارج_ عِلماً أنه كان بالإمكان عدم رؤيتك_ ولم يكن ظلك على النوافذ، صدّ جسدك النسيم. وعندما توقّف النسيم لمدة تزيد عن ثوانٍ قليلة، خمّنتُ أن هناك ما يُعيقه؛ وكنتَ المرشَّح الغافل».

«هل أنت غاضب؟». سأل شارلوك.

«لا، البتة». أجاب مايكروفت.

قال أميوس غروي باعتدال: «كان شقيقك سيغضب في حال عدم إظهارك مبالاة كافية؛ حيث تدع الشمس تُلقي بظلك على الشرفة أمام النوافذ».

وافق مايكروفت على ما قاله غروي: «هذا صحيح، لأن ذلك سيثبت افتقاراً يؤسَف له في معرفة عِلم الهندسة البسيط، بالإضافة إلى عجزك عن توقع النتائج غير المرتقَبة لأعمالك».

«أنت تثير حفيظتي». اتهمه شارلوك.

«قليلاً فقط». اعترف مايكروفت، «ومع أفضل النوايا. كم سمعتَ من حديثنا؟».

فهز شارلوك كتفَيه. «سمعت شيئاً ما عن رجل قدِم من أميركا إلى إنكلترا، وتعتقدان أنه تهديد. أوه، بالإضافة إلى شيء ما عن عائلة تُدعى بينكرتون».

ألقى مايكروفت نظرة سريعة على غروي في الناحية المقابلة من الغرفة، ورفع حاجبه. فابتسم غروي قليلاً وقال:

«ليست عائلة، علماً أنها تبدو كذلك أحياناً. فوكالة بينكرتون للتحرّيات الوطنية شركة من المفتشين والحراس الشخصيين. أسسها آلان بينكرتون في

شيكاغو قبل نحو اثنتَي عشرة سنة؛ عندما أدرك أن عدد شركات سكك الحديد في الولايات المتحدة يزداد من دون أن تتمكن من حماية نفسها ضد السرقة والتخريب وتحركات نقابة العمال. يؤجّر آل موظفيه كما لو أنهم عناصر شرطة ممتازون».

«إنه مستقل كلّياً عن قوانين الحكومة وأنظمتها». تمتم مايكروفت. «في الواقع، بالنسبة إلى بلد يفخر بمبادئه التأسيسية الديموقراطية، يمتلكُ هذا البلد بالفعل عادةَ تأسيس وكالات مستقلة لا تُحصى ولا تُعَدّ».

قال شارلوك: «دعوتَه آل، إذاً أنت تعرفه، أليس كذلك؟».

«تعود علاقتي بآل بينكرتون إلى زمن بعيد». أقرّ غروي. «كنت معه قبل سبعة عشر عاماً؛ عندما تسللنا وهرّبنا أبراهام لينكولن عبر بالتيمور في طريقه إلى حفل تنصيبه رئيساً. كانت الولايات الجنوبية تتآمر لقتل لينكولن في المدينة، ولكن أفراد وكالة بينكرتون استُخدموا لحمايته، وتمكنا من تهريبه. ومذاك الحين، أقدّم المشورة لآل من وقت لآخر. لم أتقاضَ أجراً قط. ولكنه في الواقع يدفع لي بدل أتعاب استشارية في مناسبات غير منتظمة».

«الرئيس لينكولن؟!». قال شارلوك والأفكار تتسارع في رأسه. «ولكن، ألم يكن ـ»

«أوه، لقد نالوا منه في النهاية». كان وجه غروي جامداً ورصيناً كقطعة غرانيت منقوشة. «بعد ثلاث سنوات من مؤامرة بالتيمور، تمكن أحدهم من إطلاق النار عليه في واشنطن، وقد جمح حصانه حينها وطارت قبّعته. وعندما استعادوا قبّعته في وقت لاحق، عثروا على ثُقب رصاصة فيها. لقد أخطأته الرصاصة ببوصات قليلة». وتنهّد. «وبعد عام، أي قبل ثلاث سنوات فقط، كان في مسرحٍ في واشنطن يشاهد مسرحية تدعى قريبنا الأميركي عندما أطلق رجل يدعى جون ويلكس بوث النار على مؤخّر رأسه، وقفز على المسرح وهرب».

«لم تكن هناك». قال مايكروفت برِفق. «ما كان بإمكانك القيام بأي شيء».

«كان يُفترض بي أن أكون هناك». قال غروي برِفق مماثل. «وآل بينكرتون أيضاً. في الواقع، إن الحارس الشخصي الوحيد الذي كان يعتني بالرئيس في تلك الليلة كان شرطيّاً ثَمِلاً يدعى جون فريديريك باركر. حتى إنه لم يكن هناك عندما أُطلقت النار على الرئيس، بل كان في ستار تافرن في الجوار يُغرق نفسه باحتساء الشراب».

«أذكر أنني قرأت عن الأمر في صحيفة الوالد». قال شارلوك واضعاً

حداً للصمت العميق الذي ساد الغرفة. «وأذكر الوالد وهو يتحدث عن الأمر، ولكنني لم أفهم قط، في الواقع، سبب قتل الرئيس لينكولن».

«هذه هي مشكلة المدارس في هذه الأيام». تمتم مايكروفت. «إذ يتوقف التاريخ الإنكليزي بالنسبة إليهم عند مئة عام مضت، ولا وجود لتاريخ عالمي». وألقى نظرة سريعة على غروي، ولكن الأميركي بدا متردداً في متابعة الكلام. «أنت مدرك للحرب بين الولايات كما أفترض، أليس كذلك؟». سأل شارلوك.

«فقط من التقارير في ذي تايمز».

«ببساطة، أعلنت إحدى عشرة ولاية في النصف الجنوبي للولايات المتحدة الأميركية استقلالها، وشكلتِ الولاياتِ المتحالفةَ الأميركية». ونخر. «يبدو الأمر كما لو أن دورست، وديفون، وهامشاير اتخذت القرار فجأةً بإنشاء بلد مختلف، وأعلنت استقلالها عن بريطانيا العظمى».

«أو يبدو الأمر كما لو أن إيرلندا قررت الاستقلال عن الحكم البريطاني». تمتم غروي.

«إنه وضع مختلف كلّياً». قال مايكروفت بحدّة؛ مُعيداً تركيز انتباهه على شارلوك، وتابع: «لمدة قصيرة من الزمن، كان هناك رئيسان أميركيان: أبراهام لينكولن في الشمال، وجيفرسن ديفيس في الجنوب».

«لماذا أرادوا الاستقلال؟». سأل شارلوك.

«لماذا يريد أي شخص الاستقلال؟ لأنهم لا يحبون تلقّي الأوامر. وفي هذه الحالة، هناك فارق في وجهات النظر السياسية. كانت الولايات الجنوبية تدعم مفهوم الرِّق، في حين أن لينكولن أدار حملته الانتخابية على أساس تحرير العبيد».

«ليس الأمر بهذه السهولة». قال غروي.

«ليس كذلك أبداً». وافقه مايكروفت الرأي، «ولكنه يفي بالغرض في الوقت الحاضر. بدأت الأعمال الحربية في 12 نيسان/ أبريل عام 1861، وفي السنوات الأربع التالية لقي 620,000 أميركي حتفهم أثناء قتالهم بعضهم بعضاً؛ في بعض الحالات، الشقيق ضد شقيقه، والوالد ضد ابنه». وبدا كما لو أنه يرتجف، وفي لحظة من الزمن، غدت الغرفة أكثر ظلمة، كما لو أن سحابة حجبت الشمس. تابع: «تدريجياً، تسبب الشمال _ المعروف باتحاد الولايات _ بتآكل القوة العسكرية للجنوب؛ أو من يسمون أنفسهم تحالف الولايات. واستسلم الجنرال الأكثر أهمية في الولايات المتحالفة _ روبرت لي _ في 9 نيسان/ أبريل عام 1865. لقد بدا الأمر كما لو أن قيامَ جون

ويلكس بوث بإرداء الرئيس لينكولن بعد خمسة أيام جاء كنتيجة مباشَرة لمعرفته بنبأ الاستسلام. كان ذلك جزءاً من مكيدة أوسع _ إذ كان يُفترض بمؤيدي التحالف قتل وزير الخارجية ونائب الرئيس _ ولكن القاتل الثاني أخفق في مهمته، وفقد الثالث شجاعته وهرب. استسلم الجنرال الأخير للولايات المتحالفة في 23 حزيران/ يونيو عام 1865، واستسلمت آخر قواتهم العسكرية _ طاقم السفينة البخارية شيناندوا _ في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1865». وابتسم متذكراً أمراً ما. «من المثير للسخرية أنهم استسلموا في ليفربول، إنكلترا، بعد إبحارهم عبر المحيط الأطلسي في محاولة منهم للاستسلام لقوات الشمال. كنت هناك أمثّل الحكومة البريطانية. وكانت نهاية الحرب بين الولايات».

«إلاّ أنها لم تكن كذلك». علّق غروي، وتابع: «لا يزال هناك أشخاص في الجنوب يريدون استقلالهم. ولا يزال هناك أشخاص يثيرون الأمر».

«مما يوصلنا إلى الوقت الحاضر». قال مايكروفت لشارلوك. «فقد أُلقي القبض على المتعاونين مع المتآمرين التابعين لبوث، وشُنقوا في تموز/ يوليو عام 1865. فرّ بوث، وزُعم أنه أُلقي القبض عليه وأُردي على أيدي اثنَي عشر جندياً من الاتحاد بعد أيام».

«زُعم؟!». سأل شارلوك وقد انتبه إلى التشديد الخفيف في كلمات مايكروفت.

فألقى مايكروفت نظرة سريعة على غروي وقال موضحاً: «في السنوات الثلاث الماضية، كانت هناك ادعاءات متكررة حول فرار بوث ونجاته من مطارديه في الواقع، وأن متآمراً آخر يشبهه هو الذي أُردي. يُقال إن بوث غيّر اسمه إلى جون سانت هيلين، وفرّ إلى أميركا خوفاً على حياته. كان ممثلاً في حياته الخاصة».

«أتعتقد أنه هنا الآن؟!». سأل شارلوك. «في إنكلترا؟».

فأومأ مايكروفت برأسه وأجاب: «تلقيتُ برقية من وكالة بينكرتون يوم أمس. بلغ مسامع عملائهم أن رجلاً يدعى جون سانت هيلين يحمل أوصاف جون ويلكس بوث أبحر من اليابان إلى بريطانيا العظمى. لقد طلبوا مني تنبيه السيد غروي، وهم يعلمون أنه في البلد». وألقى نظرة سريعة على غروي. «يعتقد آلان بينكرتون أن بوث وصل إلى إنكلترا على متن السفينة البخارية شيناندوا منذ ثلاث سنوات، ومكث مدةً من الزمن، ومن ثم انتقل إلى الخارج. وهم يعتقدون الآن أنه عاد».

قال غروي لشارلوك: «ذكرتُ منذ بعض الوقت_ كما أعتقد_ أنه طُلب

مني القدوم إلى هذا البلد لتعقّب أولئك الأشخاص الذين فرّوا من أميركا بسبب ارتكابهم الجرائم الأكثر ترويعاً إبّان الحرب بين الولايات. لم يكن الأمر مجرد قتل جنود من قِبل جنود آخرين، بل كان مجازر بحق مدنيين، وإحراق بلدات، وكل أنواع الأعمال الشريرة. وبما أنني هنا، فمن المنطقي أن يكون آلان بينكرتون راغباً في قيامي بالتحرّي عن هذا الرجل جون سانت هيلين».

قال شارلوك لغروي: «هل تمانع سؤالي لك عن الجانب الذي كنتَ معه في الحرب بين الولايات؟ قلتَ لي إنك قدمتَ من ألبوكيرك. لقد بحثتُ عنها في خارطة لأميركا، هنا في مكتبة عمي. ألبوكيرك بلدة في تكساس، وهي ولاية جنوبية، أليس كذلك؟».

«أجل». اعترف غروي. «وكانت تكساس جزءاً من التحالف أثناء الحرب. ولكن حقيقة كوني ولدت في تكساس لا تعني أنني أدعم تلقائياً كل ما يقومون به. يحق للمرء اتخاذ قراراته الخاصة استناداً إلى رمز أخلاقي أعلى». وتجهّم وجهه من دون تعمّد. «أجد الرِّق... كريهاً. لا أعتقد أن هناك شخصاً أدنى مستوى من شخص آخر بسبب لون بشرته. أعتقد أن هناك أموراً أخرى تجعل شخصاً ما أدنى مستوى؛ بما في ذلك قدرته على التفكير بعقلانية، ولكن بالتأكيد ليس أمراً اعتباطياً كلون بشرته».

تدخّل مايكروفت بسلاسة: «بالطبع، قد يجادل التحالف قائلاً إن لون بشرة المرء دلالة على قدرته على التفكير بعقلانية».

«إذا أردتَ التثبّت من ذكاء المرء يجب عليك التحدّث إليه». سخر غروي. «ولا علاقة للون البشرة بذلك. فبعض الأشخاص الأكثر ذكاءً الذين تحدثتُ إليهم يوماً سود البشرة، وبعض الأشخاص الأكثر غباءً بيض البشرة».

«إذاً، هل قصدتَ الاتحاد؟». سأل شارلوك متلهّفاً للعودة إلى قصة غروي الفاتنة وغير المتوقعة.

فألقى غروي نظرة سريعة على مايكروفت الذي هز رأسه ببطء. «لِنقُل فحسب إنني بقيتُ في التحالف، ولكنني عملتُ لصالح الاتحاد».

«أتعني أنك جاسوس؟». لهث شارلوك.

«عميل». صحح مايكروفت بلطف.

«ألا يُعتبر ذلك... غير أخلاقي؟».

«فلنتجنّب النقاش حول المبادئ الأخلاقية، وإلا فسنبقى هنا طوال اليوم. لِنسلّم فحسب بحقيقة أن الحكومات تستخدم عملاء طوال الوقت».

لقد نفذ أخيراً إلى ذِهن شارلوك أمر ما كان مايكروفت قد قاله، مما

ولّد ردَّ فعل لديه. «قلتَ إن وكالة بينكرتون قد طلبت منك إخبار السيد غروي عن جون سانت هيلين. ذلك يعني ...» واعتراه دفق من الانفعال «أنك لم تأتِ إلى هنا لرؤيتي، بل جئتَ لرؤيته».

«جئت لأراكما معاً». قال مايكروفت بلطف. «تتمثل إحدى المميِّزات المحدِّدة لعالَم البالغين بندرة اتخاذ قرارات على أساس عامل واحد. إذ يقوم البالغون ببعض الأمور لعدة أساب في آن واحد. عليك فهم ذلك يا شارلوك. الحياة ليست سهلة».

«يُفترض بها أن تكون كذلك». قال شارلوك بتمرد. «إما تكون الأمور صحيحة أو خاطئة».

فابتسم مايكروفت وقال: «لا تحاول أبداً دخول ميدان الخدمة الدبلوماسية».

رمى غروي بثقله على القدم الأخرى، وبدا لشارلوك مضطرباً. «أين يعيش سانت هيلين هذا؟». سأل شارلوك.

أخرج مايكروفت قُصاصة ورق من جَيب سترته وراجعها. «كما يبدو، يقيم في منزل في غودالمينغ، على طريق غيلدفورد. اسم المنزل...» وتحقق من الورقة ثانيةً، ثم تابع: «شيناندوا، وهو أمر يدلّ على هويّته. أم إنها مصادَفة فحسب؟!». وصمت قليلاً ثم سأل غروي: «ما الذي تعتزم القيام به؟».

«سأتحرّى». أجاب غروي. «هذا هو سبب وجودي هنا. بالطبع، عليّ أن أكون دقيقاً في كيفية القيام بالأمر. فعلى الأرجح، ستتم ملاحظة أميركي ضخم البنية مثلي بسرعة «.

«إذاً كن دقيق الملاحظة». نبّهه مايكروفت. «ورجاءً، لا تحاول تحقيق العدالة بنفسك. هناك قوانين في هذا البلد، وأكره رؤيتك مشنوقاً بسبب جريمة قتل». ونخر. «أمقت السخرية؛ فهي تعيق عملية الهضم لديّ».

«يمكنني المساعدة». قال شارلوك بشكل مفاجئ؛ مفاجئاً نفسه. لقد بدا الأمر كما لو أن الفكرة انتقلت من دماغه إلى فمه مباشَرةً من دون استخدام المنطق لديه.

فحدّق الرجلان به مندهشَين.

«ولا بأي حال من الأحوال». قال مايكروفت بصرامة.

«لا البتة». قال غروي بحدة، وتداخل كلامه مع كلمات مايكروفت.

«ولكن، يمكنني دخول غودالمينغ على صهوة جواد وطرح بضعة أسئلة». أصرّ شارلوك. «لن ينتبه إلي أحد. ألم أُثبت أنه باستطاعتي القيام

بهذا النوع من الأمور في مسألة البارون موبرتس؟».

«الأمر مختلف». أوضح مايكروفت. «لقد تورطتَ في المسألة بالصُّدفة، ومعظم الخطر الذي واجهتَه حدث أثناء محاولة السيد غروي تخليصك من الشرَك». وصمت قليلاً مفكّراً، ثم تابع: «لن يسامحني الوالد أبداً إذا سمحتُ بتعرّضك لأي أذى يا شارلوك». قال بصوت أكثر هدوءاً.

لقد بدا شارلوك حزيناً نتيجة وصف الأعمال التي قام بها ضد البارون موبرتس؛ لا سيّما وأنه تم تجاهل أو تحريف عدة نقاط هامة، ولكنه لزم الهدوء. لا فائدة من النقاش حول أمور ماضية في حين أن أمراً أكثر أهمية يُطرح على بساط البحث. «لن أقوم بأي شيء يلفت الانتباه إليّ». اعترض. «ولا أرى كيف يمكن أن يكون الأمر خطِراً».

أعلن غروي: «إذا كان جون سانت هيلين هو جون ويلكس بوث نفسه، فهو إذاً قاتل مؤكَّد وفارّ من العدالة يواجه خطر الشنق إذا عاد _ أو أُعيد _ إلى الولايات المتحدة. وسيكون أشبه بحيوان حوصِر في الزاوية. وإذا شعر أنه مهدَّد، فسيخفي آثاره ويختفي مجدداً، وسيتعيّن عليّ ملاحقته. وأنا أكره أن أراك وقد أصبحت أحد المتعقّبين الذين يتم التخلص منهم».

«هناك أمر آخر». تمتم مايكروفت، وألقى نظرة سريعة على غروي، ثم تابع: «لا أدري إلى أي مدى زوّدتك وكالة بينكرتون بمعلومات عن الوضع، ولكن هناك اعتقاداً متنامياً بأن بوث ومعاونيه كانوا جزءاً من أمر ما أكبر».

زمجر غروي: «بالطبع، لقد تم تزويدي بمعلومات كافية».

قال مايكروفت ببطء: «لقد عنيتُ أن فكرة اغتيال الرئيس لينكولن لم تصدر منهم، وأنهم عملوا وفقاً للتوجيهات، وأن الأضواء المُرشدة_ إذا أحببتَ_ كانت لا تزال عشوائية. إذا كان بوث هنا في إنكلترا حقاً، فمن الممكن إذاً أن يكون بصدد العودة إلى أميركا. وإذا كان الحال كذلك فقد يتساءل المرء عن السبب. ما هو هدفه؟».

فابتسم غروي. «إذا كان عائداً إلى أميركا، فستكون مهمتي أكثر سهولة. وكل ما يتعيّن عليّ القيام به إذاً هو رفع مستوى التنبُّه، واعتقاله عندما يترجل من المركب».

«ولكن، أليس من الأفضل التثبت من نواياه أولاً؟ فاعتقاله ربما لن يوقف المؤامرة».

«إذا كانت هناك مؤامرة». قال غروي وهو يهز رأسه.

لقد شعر شارلوك بأنه عالق وسط نقاش فلسفي. فكل ما يعرفه هو أن المدرّس الخاص غير الرسمي الوحيد الذي حظي به في حياته يواجه مشكلة قد تجعله مضطراً للعودة إلى بلده الأم، أو تُرغمه على مطاردة الرجل في أنحاء العالم كافة. ولو كان بإمكان شارلوك القيام بأمر ما لحل هذه المشكلة فسيفعل. ولكنه لن يُطلع مايكروفت على ذلك.

«هل يمكنني الذهاب الآن؟». سأل.

فلوّح مايكروفت بيده صارفاً إيّاه. «اذهب وتنزّه في الريف، أو قم بأي شيء آخر. فنحن سنتحدث لبعض الوقت».

«تعال إلى بيتي الريفي غداً صباحاً». قال غروي من دون أن ينظر إلى شارلوك. «سنتابع حينذاك».

انسلّ شارلوك إلى الخارج أثناء شروع الرجلَين بالحديث عن تعقيدات معاهدات تسليم المجرمين بين الولايات الأميركية على الصعيد الفيدرالي وبين الحكومة البريطانية.

في الخارج، كانت الشمس لا تزال في كبد السماء. لقد تمكن من شمّ رائحة دخان الحطب، ورائحة الشراب الصادرة من مصانع الشراب البعيدة في فارنهام.

لا يمكن لغودالمينغ أن تكون بعيدة جداً، أليس كذلك؟ فطريق غيلدفورد يؤدي إلى خارج البلدة؛ مما يعني أنها في مكان ما قرب غيلدفورد، وغيلدفورد في مكان ما قرب فارنهام.

ماثيو أرنت يعرف.

فماثيو_ أو ماتي كما يحب أن يُدعى _ فتى جعل شارلوك معرفتَه به وثيقة جداً في الشهر أو الشهرَين السابقَين. وهو يعيش بمفرده على متن مركب ضيّق، ويتنقل بين البلدات القائمة على القنوات؛ سارقاً الطعام حين يُضطر إلى ذلك، ومتجنّباً مشغَل الفقراء. لقد استقرّ في فارنهام مدة أطول مما يمكث في أي بلدة يزورها عادة؛ عِلماً أنه لم يتطرّق يوماً إلى الأسباب، وكذلك الأمر بالنسبة إلى شارلوك.

وإذا كان شارلوك سيتوجه إلى غودالمينغ لإلقاء نظرة على المنزل هناك المدعوّ شيناندوا_ حيث قد يكون الرجل المقيم هناك مجرماً يدعى جون ويلكس بوث_ فسيكون إذاً راغباً بالتأكيد في أن يكون ماتي برفقته. فقد أنقذ ماتي حياته مرتَين، وشارلوك يثق به.

سار شارلوك إلى الناحية الخلفية للمنزل، مروراً بالمطابخ، ووصولاً إلى الإسطبلات. فالجوادان اللذان كان وماتي قد أخذاهما من منزل البارون

موبرتس الضخم منذ بضعة أسابيع موجودان هناك، ويأكلان بقناعة من كيس تِبن. لم يعرف شارلوك ما يجدر به فعله بهما بعد فشل مكيدة البارون الهائلة، ولذلك طلب من فتيان الإسطبلات الاعتناء بهما لأجله، وأعطاهم شِلِناً [1] واحداً. لم يلاحظ أحد آخر كما يبدو وجود جوادَين إضافيَّين يتسكعان حول المنزل. وبالطبع، باستطاعته الذهاب في نزهة مع فرجينيا على صهوة الجواد؛ فقد كانت تعطيه دروساً في كيفية امتطاء الجياد، وشعر بالسعادة لتمكنه من امتطاء جواد بطريقة ملائمة.

أَسرَج شارلوك حصانه. وبعد إمساكه رَسَن الحصان الآخر بيده اليسرى، توجّه مع حصانه إلى الخارج؛ جارّاً الحصان الآخر وراءه. ونظراً إلى كونه مسؤولاً عن حصانَين بدلاً من حصان واحد صارت الرحلة أكثر بطئاً. وبعد نصف ساعة، كان لا يزال في فارنهام، وفي طريقه إلى حيث يرسو مركب ماتي الضيّق على ضفة النهر.

كان ماتي جالساً على سطح المركب ومحدّقاً بالنهر، فقفز واقفاً عندما رأى شارلوك.

«أحضرت الحصانَين».

قال شارلوك: «أجل، قدراتك في ملاحظة الأمور مثيرة للدهشة».

قال ماتي بهدوء: «إذاً، ألاحظ أنك في طريقك إلى مكان ما، ويبدو أنك تريد مني أن أرافقك إليه. إذا كان ما قلته صحيحاً، فلا يجب عليك أن تكون متهكماً جداً».

«وصلتِ الرسالة». أجاب شارلوك. «آسف. لا أستطيع منع نفسي أحياناً من التهكم».

«إذاً، ماذا يحدث؟».

«ظننت أنك ربما تكون راغباً في القيام بنزهة على صهوة الحصان إلى غودالمينغ». أجابه شارلوك.

فنظر ماتي إلى شارلوك شزَراً وقال: «لماذا سأرغب في القيام بتلك النزهة؟».

«سأُخبرك في الطريق». أجاب شارلوك.

لقد تطلّبت منهما الرحلة إلى غودالمينغ تسلّق منحدر تدريجي يمتد أميالاً. وفي الواقع، كانت التلة بداية حَيْد لا نهاية له يقوم على الجانبَين، وكان الريف يمتد أمامهما حتى يضيع في ضباب من دخان بعيد.

ألقى ماتي نظرة سريعة على شارلوك من فوق كتفه وقال: «نسير على امتداد هوغس باك لمدة من الزمن، ثم نتجه نزولاً إلى أسفل المنحدر عبر

غومشول. يتطلب الأمر ساعة تقريباً، فهل تريد مواصلة التقدم أم تريد الاستراحة للحظات؟».

«لِنتأمّل المنظر دقيقة واحدة أو دقيقتَين فقط». قال شارلوك، ثم تابع: «دَعِ الحصانَين يلتقطان أنفاسهما».

«الحصانان بخير». أوضح ماتي. «لستَ متألماً من جرّاء الاحتكاك بالسَّرج، أليس كذلك؟».

كانت بقيّة الرحلة أكثر سهولة، ومرّا في طريقهما بجانب حقول ومناطق واسعة من الأراضي المشاعة حيث ترعى الخراف والماعز جَنباً إلى جَنب. وبوصولهما إلى أطراف غودالمينغ، عبرا جسراً فوق نهر ضيّق تقوم على جانبَيه نباتات قصب خضراء بطول رجل. وكان هناك طريق إلى اليسار فوق الجسر تماماً.

«أعتقد أنه الطريق المؤدي إلى غيلدفورد». قال ماتي مشيراً إلى ذلك الطريق، ثم سأل شارلوك: «أي طريق تريد أن تسلك؟».

أجاب شارلوك: «لنتّجه إلى خارج البلدة لبعض الوقت. ينتابني شعور بأن المكان الذي أبحث عنه موجود خارج البلدة في مكان أكثر انعزالاً».

تابعا طريقهما لمدة قصيرة، وببطء هذه المرة ليتمكن شارلوك من التحقق من المنازل التي يمرّان بجانبها. بدا ماتي راضياً بالنظر حوله من دون أن يسأل شارلوك عما يقومان به.

لم يكن العديد من المنازل يحمل أسماء، وبدت أصغر مما كان شارلوك يتوقع. بالرغم من كل شيء، لا جدوى من إطلاق اسم شيناندوا على مكان ما إذا كان زريبة متداعية، أليس كذلك؟ فاسم كهذا يعني ضمنياً شيئاً ما أكبر حجماً وأكثر ثراء. وقليلة هي المنازل التي يلعب صغار خارجها؛ سواء أكانوا يلعبون ببلابل خشبية وحبال رفيعة أو بكُرات جِلدية. ولوّح صغير واحد أو صغيران لهما أثناء مرورهما بجانبهما.

في النهاية، وصلا إلى منزل منعزل عن المنازل الأخرى، ويقع عند المنعطف وقرب أَيكة أشجار. من مكانه، تمكن شارلوك من رؤية لوحة خشبية قرب الباب تحمل كلمة طويلة ربما تبدأ بحرف «الشين»، وربما لا. وبجانب المبنى تتحرك تعريشات، وستاريا [2] تحمل أزهاراً أُرجوانية اللون ذات شكل لولبي تتجه نحو الأعلى، متشبّثةً بأية فجوة أو نتوء تصادفه.

«أهذا هو؟». سأل ماتي. «هل نذهب ونقرع الباب؟».

أجاب شارلوك: «لا، تابع سيرك حتى نتجاوزه ومن ثم توقّف».

كانت الجهة الأمامية للمنزل مكسوّة بطلاء أبيض، وعلى النوافذ

مصاريع. ولاحظ شارلوك أثناء مرورهما أن الحديقة في حالة جيدة. من الواضح أن أحدهم يعيش هناك.

وبعد تجاوزهما المنزل، أبطأ الفَتيان في سيرهما ثم توقفا.

قال ماتي: «انظر، يبدو جليّاً بالنسبة إليّ أنك تتحقق من المكان ولا تريد أن يعرف الرجل المقيم هناك ذلك، فماذا يجري؟».

«سأخبرك في وقت لاحق». وعده شارلوك. «أمّا الآن فعليّ الاقتراب من الباب الأمامي. ألديك أية أفكار؟».

«سلوك الدرب وقرع الباب».

«مُضحك جدّاً». وألقى شارلوك نظرة سريعة حوله، فلم يجد أي شيء يوحي له بما يتعيّن عليه القيام به. «هل يمكنك العودة إلى أولئك الصغار الذين رأيناهم يلعبون بالكرة؟». وبحث في جَيبه، ثم أخرج حفنة من النقود المعدنية. «أَعطهم بضعة بنسات، واسألهم إذا كان بإمكاننا استعارة الكرة لبعض الوقت. قل لهم إننا سنعيدها».

فنظر إليه ماتي بطريقة غريبة. «قطعنا كل هذه المسافة لنلعب بالكرة».

«قُم بذلك فحسب... رجاءً».

تنهّد ماتي وأخذ النقود المعدنية، ثم انطلق في طريقه إلى الأولاد، مُلقياً نظرة سريعة من فوق كتفه، ومُحدِثاً بفمه صوت «تْشِه».

ترجّل شارلوك وانتظر بصبر؛ رابطاً حصانه، ودانياً من الأشجار، وناظراً إلى المنزل. لم يكن أحد يتحرك في الداخل. هل الكلمة هي شيناندوا، أو شيء آخر مثل سامِريسل أو سترانجويز؟

بعد ما بدا دهراً بالنسبة إلى شارلوك، عاد ماتي وهو يحمل الكرة تحت ذراعه.

«انتهى أمرنا». قال ماتي متوقفاً. «هذه الكرة فارغة من الهواء».

«لا يهمّ. لِنَجُب الطريق راميَين الكرة إلى بعضنا بعضاً. وعندما سنصل إلى المنزل، يجب أن يقوم من يحمل الكرة برميها؛ متعمّداً إغفال الهدف، وجعلَها تصل إلى أقرب مكان ممكن من الباب الأمامي».

«ليتمكن الآخر من الركض وإحضارها. فهمت، حسناً اتفقنا».

«لأتمكن أنا من الركض وإحضارها. فأنا أريد أن أرى ما كُتب على تلك اللافتة، وأنت لا تُجيد القراءة، أتَذكر؟ ليس بالشكل المناسب، بأية حال».

وجابا الطريق راميَين الكرة إلى الأمام والوراء. أوقعها ماتي أرضاً مرة

واحدة أو مرتَين، وركلها في الهواء في اتجاه شارلوك.

وعندما وصلا إلى المكان الأقرب إلى المنزل حيث تمتدّ درب في اتجاه الباب الأمامي، ناور ماتي ليكون في الجانب الآخر من الطريق، ورفع الكرة وراء كتفه ثم رماها عالياً فوق رأس شارلوك، فدخلت الحديقة وارتدّت مرة واحدة على الأرض ببطء، قبل أن تتدحرج في اتجاه الباب الأمامي.

قام شارلوك بحركات تعبّر عن انزعاجه؛ مباعداً ذراعيه وهازّاً كتفَيه، ومن ثم استدار واندفع راكضاً على الدرب في اتجاه الباب الأمامي. ومن دون القيام بالأمر بشكل جليّ، ألقى نظرة سريعة على اللافتة بجانب الباب أثناء مدّه يده في اتجاه الكرة وانحنائه لالتقاطها.

شيناندوا.

إنه المنزل الذي يبحث عنه بالضبط. والآن، كل ما عليه القيام به هو اتخاذ قرار في شأن خطوته التالية. هل يبقى ويراقب المنزل لبعض الوقت ليتمكن من وصف شاغله لمايكروفت وأميوس غروي، أم يتسلّل إلى الداخل ويلقي نظرة على أرجائه إذا لم يكن المقيم في المنزل؟

لقد حُرم من اتخاذ القرار عندما فُتح الباب على وسعه وخرج رجل من الظلمة. كان نحيلاً، وذا لحية مستدقّة الرأس، ومندفعة إلى الأمام يتخلّلها شعر رمادي. ولكن الأمر الذي جعل شارلوك يتسمّر في مكانه بسبب الصدمة هو الجانب الأيسر لوجهه؛ فقد كان محترقاً بدرجة معيَّنة وبشكل سيّئ، وكانت بشرة وجهه حمراء ومتكتّلة، وعينه مجرّد ثُقب مُظلم ولا مُقلة فيها.

«أيها الجرو الشرِس النابح». زمجر الرجل وهو يشدّ شعر شارلوك ويجرّه إلى داخل المنزل قبل أن يتمكن من إصدار أي صوت.

الفصل الثالث

شعر شارلوك أنّ فروة رأسه تكاد تشتعل بسبب القوّة التي شد بها الرجل شعره، فتمسّك بذراع الرجل وسمح له بجرّه؛ محاولاً التخفيف من الألم الذي يشعر به. لقد توقّع جزئياً اقتلاع بعض الشعيرات من الجُذور؛ مما سيتسبب بظهور مناطق دامية، وبتعريض جِلده المسلوخ للهواء.

«كنت أستعيد كرتي فحسب!». صاح شارلوك.

فتجاهله الرجل وهو يتمتم بدفق من عبارات الاحتقار والاتهامات أثناء جرّه شارلوك.

كانت رَدهة المنزل مُشرِقة، والشمس تسطع عبر نافذة عالية في السقف. لقد بدت الرَّدهة فارغة، أو مؤثثة جزئياً. وتردد صدى خطوات الرجل على الأرض المبلَّطة.

دفع الرجل باباً بيده اليسرى وفتحه، وجرّ شارلوك إلى الداخل، فوجد هذا الأخير نفسه في غرفة استقبال تحتوي على كراسٍ مُريحة مكسوّة بقماش قطنيّ ملوّن ومزوَّدة بأغطية وقائية في الأعلى للحؤول دون تسبّب زيت شعر أي زائر بإحداث بُقَع على القماش، بالإضافة إلى بعض الطاولات الموزّعة في الأرجاء والخالية من أي شيء باستثناء دُمى قماشية مخرَّمة. لقد بدت الغرفة مزوَّدة جزئياً بالأثاث، وغير مسكونة تقريباً. بدا المكان داراً وليس مسكناً.

أوه، وهناك شخص على الأرض. لقد رأى شارلوك جزمتَين فقط، والنصف السُّفلي لشخص مُمدّد على السجادة ووجهه إلى الأسفل، فيما كان الرجل يجرّه قربه ويرميه على كرسي.

وما إن جلس شارلوك على الكرسي حتّى مدّ يده بسرعة للتحقق من شعره، باحثاً عن دم ساخن أو لحم مسلوخ، لا بل أيضاً عن ارتخاء في فروة رأسه، حيث يمكن أن تكون قد نُزعت عن الجمجمة؛ ولكن كل شيء بدا طبيعياً، باستثناء الألم الذي لم يبدُ طبيعياً مطلقاً.

«رجاءً!». صاح شارلوك مواصلاً محاولة التظاهر بأنه ضحية بريئة مرّ بجانب المنزل، «دَعني أذهب فحسب. ستقلق أمي وأبي عليّ! إنهما يقيمان على جانب الطريق!».

لم ينظر الرجل إليه مباشرة مطلقاً، بل واصل رأسه التحرك إلى الأمام والوراء كرأس طائر؛ من النافذة إلى الباب، ومن الباب إلى النافذة، إلى الأمام والوراء.

نظر شارلوك إلى الرجل للحظات بطريقة ملائمة. إن كل ما رآه حين كان يقف في الخارج لحم تالف على الجهة اليسرى لوجه الرجل، ولكنه الآن سمح لنظراته المحدِّقة بأن تتأمل جسد الرجل صعوداً ونزولاً، محاولاً رؤية شيء ما قد يكون مساعداً.

فبِذلة الرجل مصنوعة من قماش جيد، وهذا أمر كان شارلوك واثقاً منه. إنها سوداء وعالية الجودة، وبسبب ملاءمة السترة والسروال لجسد الرجل، اعتقد شارلوك أن خيّاطاً متمرّساً هو الذي خاطها. لم تكن تبدو ككيس صوفيّ ذي كمَّين على غرار بعض السترات التي يتم ارتداؤها في فارنهام. ولكن هناك أمراً ما غريباً في شأن التفصيل، أمراً ما... أجنبيّاً تقريباً. ووجد شارلوك نفسه يتساءل عما إذا كان بالإمكان تحديد هوية الخيّاط الذي خاط بِذلة وذلك من خلال الدَّرز والتفصيل، أو على الأقل عما إذا كان الخياط قد اتّبع موضة محدَّدة؛ ألمانية، أو إنكليزية، أو أميركية.

كان الرجل نحيلاً، وتنتأ عظام مِعصمَيه وحَلقه بشكل بارز. والجهة اليمنى من وجهه وسيمة على نحو كلاسيكي، مع شارب بارز ولحية عُثنون [3] . أما الجهة اليسرى فحُطام، والبشرة فيها حمراء برّاقة ومجوَّفة، واللحية فيها خفيفة وتندفع عبر البشرة كمخلَّفاتِ حريقٍ حُرجي مسوَدّ، ومِحجرُ العين ليس سوى ثُقب أحمر في وجهه.

«يا سيد...» استهلّ شارلوك، ولكن الرجل قاطعه بإيماءة مفاجئة.

«هدوء!». أمره الرجل، وكان صوته حاداً، مع وجود نبرة عويل فيه جعلت بدَن شارلوك يقشعرّ. «هدوء، أيها الجرو السافل!».

كان صوته يحمل مسحةَ نبرةٍ غير إنكليزية. وبدت لهجته شبيهة بطريقة تكلّمِ أميوس وفرجينيا غروي ولكن بنبرة مختلفة_ ربما أكثر ثقافة بقليل_ وكان يتكلم كما لو أنه يتوقع قيام أحدهم بالإصغاء إليه، ويقوم بإيماءات تعبيرية كما لو أنه ممثّل يقف على المسرح. لقد سبق لشارلوك أن شاهد بعض مسرحيات شكسبير الطويلة والمملّة التي تؤدّى في الهواء الطلق في منزل والدته ووالده الضخم في ريغايت، ولو لم يكن رأسه ينتفض لَحَسِب شارلوك هذا الرجل ممثلاً، وذلك نظراً إلى طريقة وقوفه وتكلّمه.

«كم يتبقى لدينا من الوقت؟». سأل الرجل بشكل مفاجئ. «متى سيعودون؟».

«لا ...» شرع شارلوك بالكلام، ولكن الرجل خطا نحوه وصفعه على وجهه بقفا يده. فانبثقت نجوم ومجرّات في رأس شارلوك. مصدوماً، شعر

شارلوك بمَذاق الدم.

«لا تكذب عليّ أيها الفتى. يمكنني اشتمام كِذبة من خلال الريح. كم يتبقى لنا من الوقت؟».

أجاب شارلوك: «ربما ساعة». لم يكن واثقاً مما يريده الرجل، ولكنه واثق من اختلال عقله. وأفضل ما يمكنه القيام به حالياً هو التظاهر بالتعاون معه.

«دخان...» قال الرجل، ورفع رأسه وتنشق بعمق. «باستطاعتي شمّ رائحة دخان». ونظر إلى شارلوك بشكل مفاجئ. «علينا النجاة والعودة إلى الشرق. المكان آمن هناك. فهنا يوجد عدد كبير من الأشخاص الذين يبحثون عني. يوجد عدد كبير من العيون، عدد كبير من الآذان».

«باستطاعتي التحقق من الأمر في الخارج، ورؤية ما إذا كان الشاطئ خالياً». عرض شارلوك.

«الشاطئ!». وبدت عينا الرجل كما لو أنهما أُضيئتا فجأة. «سنحصل على مركب، سفينة. يمكننا الإبحار إلى هونغ كونغ، والاختباء هناك حتى يصبح الوضع آمناً».

«آمناً ممّ؟». سأل شارلوك، ولكن الرجل حملق به فحسب.

«لا تتظاهر بأنك غير مشارك في الأمر. كلكم مشاركون في الأمر».

متذكراً الحديث الذي جرى في عزبة آل هولمز، حاول شارلوك اكتشاف ما إذا كان هذا الرجل قادراً على اغتيال أي شخص، فكيف برئيس الولايات المتحدة الأميركية. من الواضح أنه متقلّب المزاج، وعلى وشك الإصابة بانهيار عصبي. ولكنه أميركي، وربما ما يعاني منه قاده إلى حافة الجنون. باتت لدى شارلوك الآن معلومات كافية لينقلها إلى أميوس غروي وشقيقه. لكن المشكلة هي: هل سيتمكن من النجاة؟

وانتفض رأس الرجل فجأةً جانبياً كما لو أنه متصل بحبل سحبه أحدهم من الخارج. «دخان!». صاح، واندفع راكضاً خارج الغرفة تاركاً شارلوك بمفرده.

باستثناء الشخص.

للحظات، فكر شارلوك مليّاً بالفرار. فإذا تحرك بسرعة فقد يتمكن من المرور بجانب آسره والوصول إلى الباب الأمامي؛ حتى لو كان الرجل واقفاً في الرَّدهة في الخارج، أو بإمكانه سلوك الاتجاه الآخر إلى نافذة غرفة الاستقبال والخروج منها إلى الحديقة. سيكون ماتي في انتظاره، ويمكنهما الفرار معاً.

ولكن هناك شخصاً معه في الغرفة، وعليه التحقق مما إذا كان الرجل مَيتاً أو جريحاً. فهو يعرف أنه لا يستطيع تركه هنا، فقد يؤرقه الأمر بقيّة حياته.

لذا، نهض عن الكرسي، وجثم بجانب الشخص بعد أن تحقق من عدم عودة آسره. كان رجلاً ذا لحية خفيفة، ورأسه مُدار إلى جانب واحد، وعيناه مُغمضتان. وشعر شارلوك بالارتياح لدى سماعه يتنفس بصعوبة من فمه. كان الشعر على مؤخّر عُنُقه متلبّداً بفعل الدم المتخثّر جزئياً في كتلة سميكة دَبِقة. من الواضح أنه تلقى ضربة على رأسه من الوراء وسقط. لقد حالفه الحظ بالبقاء حياً.

وفكر شارلوك للحظات. من الواضح أن الرجل الذي جرّه إلى داخل المنزل مجنون. هل الرجل الممدَّد على الأرض هنا حارس تمكن المجنون بطريقة ما من ضربه، وهو يبحث الآن عن طريقة ما للفرار من المنزل؟

سحب شارلوك الرجل فاقد الوعي إلى وضعية أكثر راحة؛ حيث لا يُعاق تنفّسه نتيجة إمالته رأسه. لم يتمكن شارلوك من تمالك نفسه، وتفحّص الرجل ملياً، فلاحظ أنّ ملابسه مُخاطة وفقاً لموضة مماثلة لبذلة آسره، ومن قماش مماثل أيضاً. ربما كان مصدرُ الملابس نفسه.

أنذره صوت صادر من الرَّدهة باقتراب الرجل، فتمكن من العودة إلى الكرسي قبل دخول آسره الغرفة. كان جبين الرجل يتلألأ بفعل العرق، ولكن الجهة اليسرى الحمراء من وجهه كانت جافّة.

أعلن الرجل: «هناك سفينة بانتظاري لتنقلني إلى الصين!». وكانت عينه مفتوحة على اتساعها لدرجة ظهور بياض مُقلتها. بدا كحصان خائف، وعلم شارلوك أنه يهذي بوجود السفينة، كما يهذي بشمّه رائحة دخان؛ دخان الحريق الذي افترض شارلوك أنه السبب في وجود هذه النّدْبة المريعة.

«اذهب، وسأتبعك». قال شارلوك بأكبر قدر ممكن من الهدوء. كان يأمل في أن يتمكن مستوى نبرة صوته الواثقة من إقناع الرجل بالاستدارة والمغادرة، ولكن ذلك أدى إلى نتيجة عكسية. فقد مدّ الرجل يده أمامه، وأصيب شارلوك بقشعريرة رُعب عندما أدرك أنه يحمل مسدساً فضيّاً ذا ماسورة طويلة جداً وأسطوانة دوّارة فوق المِقبض تماماً.

«لا تترك أي أثر وراءك!». أعلن الرجل، وصوّب المسدس نحو جبين شارلوك.

تدحرج شارلوك جانبياً بعيداً عن الكرسي، فيما دوّى صوت إطلاق النّار، وامتلأت الغرفة بالدّخان، وتحوّل الغطاء الوقائي حيث كان شارلوك

يُسند رأسه إلى قماش ممزَّق. نزل شارلوك تحت طاولة عريضة، ورفعها في اتجاه الرجل المسلَّح، فأطلق الرجل النار ثانيةً بشكل عشوائي، واقتلعت الرصاصة كِسَراً من سطح الطاولة غزلت بعيداً عنهما.

سدّد على شارلوك ثانيةً. وهذه المرة، أزت الرصاصة فوق رأس شارلوك واصطدمت بالنافذة محطِّمةً الزجاج.

ركض شارلوك نحو الباب المؤدي إلى الرَّدهة، فأصابت الرصاصة الرابعة إطار الباب مقتلعةً كِسَرَ خشب منه، فيما خرج شارلوك من الغرفة.

كانت الطريق من المدخل إلى الباب الأمامي بعيدة جداً. وأدرك شارلوك أنه بينما يبذل قُصارى جهده لفتح الباب، سيكون الرجل قد بلغ الرَّدهة مُطلِقاً النار عليه مجدداً، وسيقع في الفخ. لذا، بدلاً من ذلك استدار وصعد الدّرج.

ظهر الرجل عند أسفل الدّرج عندما بلغ شارلوك الرَّدهة في الطابق العُلوي، وكان يعيد تذخير المسدس. من الواضح أنه ليس مجنوناً تماماً، فكر شارلوك في سرّه أثناء انطلاقه بأقصى سرعة على امتداد الطابق الأول. واهتزّ جانبياً رأس أيّل مثبَّت على لوحة بشكل درع مع إطلاق النار في الطابق السفلي، وظهر ثقب حيث كانت إحدى العدستَين. تعرُّض ذلك الشيء لطلق ناريّ لم يكن كافياً، بل تعيّن عليه أن يعاني من إذلال تعرّضه لطلق ناريّ مرة ثانية.

انتهت فسحة الدّرج ببابَين كان عليه الاختيار بينهما. سمع شارلوك وَقع خطى الرجل على الدرج، ففكر مليّاً محاولاً تذكّر تصميم المنزل كما رآه من الخارج. كانت هناك نبتة معترشة تنمو متسلّقة على إحدى النوافذ في الخارج. أكانت إلى اليسار أم اليمين؟

فاختار الجهة اليمنى برغبة مفاجئة أكثر من أي أمر آخر. فإذا أطال التفكير في الباب الذي يتعيّن عليه عبوره فقد يفقِد حياته، وكانت الحظوظ متساوية.

فُتح الباب تحت ضغط يده، فانسلّ عبر الفُتحة الضيّقة، وأغلق الباب وراءه بسرعة. إذا تحقّق الرجل المسلّح من غرفتَي النوم، فإن ذلك سيمنح شارلوك مهلة دقائق قليلة قبل أن يتم اكتشاف مكانه.

كان هناك سرير غير مرتَّب في الغرفة؛ كما لو أن شاغلها قد خرج من سريره للتوّ وارتدى ملابسه من دون القلق في شأن الترتيب، ولم تأتِ أية خادمة لتوضيب الغرفة. لذا، افترض شارلوك أن الشخصَين الوحيدَين اللذين يقيمان في المنزل هما الرجلُ المسلّح والحارسُ. فلو كانا ينويان شرّاً،

ويختبئان من خطر كبير غير محدَّد، فسيشكّل وجود خادمة مجازَفة كبيرة. لذا، فضّل الرجلان البقاء معزولَين، متجنّبَين أي لفتٍ للانتباه؛ ويعني ذلك أنهما يقومان على الأرجح بكل أعمال الطهو والتنظيف بنفسيهما.

وربما يعني ذلك أيضاً_ فكر شارلوك فجأةً_ وجود رجل ثالث على الأقل؛ إذا كان المجنون بحاجة إلى إشراف متواصل.

متيقظاً للضجيج في الخارج، أو لحركة فجائية قرب الباب، أسرع شارلوك نحو النافذة. وأثناء مروره قرب السرير، لاحظ وجود حقيبة جلدية سوداء ذات إطار صلب على الأرض بجانب السرير. كان أعلى الحقيبة مفتوحاً، فتمكن من رؤية وميض زجاج ومعدن في داخلها. شاعراً بالفُضول، اقترب منها شارلوك وألقى نظرة عليها.

كانت هناك مجموعاتُ قوارير صغيرة تحتوي على سائل عديم اللون، ومربوطة بأحزمة داخل جيوب على أحد جانبَي الحقيبة، بالإضافة إلى مجموعة أدوات طبيّة_ مباضع وما شابه_ مبعثَرةً في القَعر. وعلى مَقربة منها علبة مسطَّحة طويلة عرفها شارلوك. فقد سبق له أن رأى علباً مماثلة لها تعود لأطباء عالجوا شقيقته أثناء فترات المرض. تحتوي هذه العلب في العادة على مِحقنات؛ وهي أسطوانات زجاجية مجوَّفة في أعلاها إبرٌ حادّة تُستخدم لحقن المسكّنات في مجرى الدم. للحظة من الزمن، ظنّ أنه لم يَعُد في غرفة النوم تلك بل في منزله، ويراقب عبر ثقب في الباب الأطباءَ والممرضات وهم يتحركون بنشاط حول سرير شقيقته. كانت الإبر والمِحقنات تفتنه؛ فالضوء الوامض عليها، ووظيفتها الغريبة، أي كيفية جعلها الحد بين داخل الجسد وخارجه مُبهَماً، وكيفية جعلها الأمور أفضل، وكيفية إيقافها الصيحات؛ كل ذلك كان يثير إعجابه.

ارتعد، لا وقت للذكريات. فهناك رجل مجنون مع مسدس على بُعد ثوانٍ قليلة وراءه.

لقد ظن للحظات أن النافذة مثبَّتة بالمِزلاج أو بمسامير؛ فهي لم تفتح عندما سحبها إلى الأعلى. يجب أن تفتح، قال لنفسه. فإذا كانت هذه الغرفة تحتوي على معدات طبيّة مبعثَرة، فهي ليست غرفة نوم الرجل المجنون إذاً، ولا فائدة من إغلاق النافذة بإحكام.

كان واثقاً من أن نافذة الرجل المجنون مزوَّدة بقضبان معدنية.

لذا، سحب النافذة بكل قوّته، فانزلقت نحو الأعلى مُصدرةً صوتاً قوياً لدى احتكاك الخشب على الخشب، ولفح هواء بارد مرحّب به وجهه. انحنى على عتبة النافذة ناظراً حوله. لا أثر لماتي في الحديقة أو على

الطريق. لا أثر لأي شخص.

نظر إلى الأسفل، فرأى التعريشة ممتدة حتى مساكب الورد. باستطاعته النزول عليها بسهولة.

وماذا بعد ذلك؟ إذا دخل الرجل المجنون غرفة النوم وهو في منتصف المسافة إلى الأسفل، فسيصبح هدفاً سهلاً، وسيتمكن الرجل من إطلاق النار عليه في رأسه ويراه وهو يقع.

ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى الأعلى. تمتد التعريشة حتى السطح كما بدا له، وهي متغلغلة داخل الملاط بين آجرّ الجدار، وهناك شرفة أو عتبة من نوع ما على امتداد الحافّة. إذا دخل _ عندما يدخل _ الرجل المجنون غرفة النوم وتوجّه إلى النافذة المفتوحة، فسيكون رد فعله التلقائي النظر إلى الأسفل. وإذا كان شارلوك يتسلّق نحو الأعلى، فربما سيُفلت. على الأقل، سيحصل على ثوانٍ قليلة إضافية.

لذا، وقف على عتبة النافذة وتمسك بالتعريشة بيده اليمنى، واستخدم اليد اليسرى لإغلاق النافذة بعِناية. لم يَعُد تراجعه ممكناً، ولكن الأمر قد يؤمّن له بضع لحظات إضافية من السلامة.

مدّ ساقه اليمنى جانباً، وتحسّس المكان بقدمه بحذَر، فأدرك أن موضع التقاء تعريشتَين يمكنه تحمل وزنه. وبعد ما بدا له دهراً، عثر على شيء ما يمكنه الاستناد إليه.

ألقى بثقله على التعريشات بعصبية مِزاج، وبحث بقدمه اليسرى عن نقطة ارتكاز أخرى. وعندما عثر عليها، رفع نفسه ومدّ يده اليسرى بحثاً عن تعريشة أخرى ليتمسك بها، ولكنه عثر بدلاً من ذلك على فجوة بين قطعتي آجرّ، فحشر أصابعه فيها وتحمّلت وزنه. خطوة تِلو أخرى، رفع نفسه بجهد حتى أصبحت النافذة تحته. وواصل التسلّق في اتجاه السطح.

وقعت قطع آجرّ صغيرة بجانبه، فوخز الغبار الناجم عن ذلك عينَيه. هز رأسه مُغمَض العينَين للتّخلّص من الغبار، فسقط المزيد من قِطَع الآجرّ الصغيرة على رأسه وكتفَيه.

فجأةً، ترنّحت التعريشة تحته، ودفعه وزنه بعيداً عن الجدار، ساحباً الجذوع الرقيقة المتشابكة التي يتسلق عليها من مكانِ تغلغلها في الفجوات والزوايا والشقوق حيث تتشبّث بالآجرّ. لقد شعر بمركز ثِقله يبتعد عن الجدار، فنظر إلى الأسفل، وشعر بالدُوار فوراً عندما بدت الأرض تحته كما لو أنها تدور في دوّامة إلى الأمام والوراء أثناء تأرجحه. أصبحت التعريشة في يده اليمنى طليقة، فتلمّس طريقه بسرعة نحو الأعلى باحثاً عن دعامة

أكثر ثباتاً. شعر بالامتنان عندما أطبقت أصابعه على جذع سميك بدا ثابتاً في مكانه، ودفع نفسه إلى الأعلى بقدمه اليمنى، فيما أطبقت يده اليسرى حول بلاطة مسطَّحة على حافة السطح، فارتاح للحظات مستعيداً أنفاسه وشاكراً الله.

من تحته، سمع صوت صريف ناتجاً عن رفعِ النافذة، فتسمّر في مكانه ملتصقاً بالجدار قدر الإمكان.

لقد شعر شارلوك_ أكثر مما رأى_ بوجود شكل بشري قاتم يمدّ عُنُقه خارج النافذة ويُمعن النظر في الأرض تحته. عندها، حبس أنفاسه باذلاً قُصارى جهده كي لا يُحدث أي ضجيج قد يفضح أمره.

انهمر غبار الآجرّ عليه من الأعلى، وشعر بأن التعريشة التي يمسكها بيده اليمنى بدأت بالإفلات عن الجدار. كان قد أمسك بها منذ وقت طويل، لذا يُفترض به الإلقاء بثقله على الجانب الآخر، ولكنه لم يجرؤ.

دخل المزيد من غبار الآجرّ عينَيه، فبدأ يطرفهما للتخلص منه. كما شعر بدغدغة في مِنخرَيه وبالرغبة في أن يعطس، ولكنه بذل جهداً للحؤول دون ذلك.

كان الشكل البشري تحته يتمايل إلى الأمام والوراء، ممعناً النظر بالأرض. وفي الحديقة، في الناحية الخلفية من المنزل، تمكن شارلوك من رؤية عدة أقفاص خشبية مكدَّسة. كانت هناك فجوات فيها، واعتقد أنه رأى شيئاً ما يتحرك وراءها. ولكن، حين استدار الشكل البشري تحته ونظر إلى الأعلى... إليه، اضطر إلى تحويل انتباهه عنها.

«أيها الجَرو الوقح والجبان!». صاح المجنون، وأطلق النار مجدداً.

أزّت الرصاصة قرب أُذُن شارلوك كدبّور مُغتاظ. وشعر بالحرارة الناجمة عن مرورها تسفع شعره. وبشكل يائس، جرّ نفسه إلى الأعلى في اتجاه الحافة الناتئة المسطحة على السطح، ساحباً ساقَيه وراءه مع إطلاق المجنون النار مرة أخرى.

ساد السكون للحظات أثناء التقاطه أنفاسه. وبعد ذلك، انزلق نحو الحافة، وألقى نظرة سريعة إلى الأسفل.

كانت النافذة فارغة. لا شك في أن المجنون يصعد الدرج للنَّيل منه.

نظر شارلوك حوله بيأس. فالحافة الناتئة التي يقف قربها يبلغ عرضها أقداماً قليلة، وبعد ذلك يبدأ السطح المكسوّ بالقرميد بالارتفاع في انحدار شديد وصولاً إلى الرأس المستدقّ، وتتخلّل الحافّةَ الناتئة نوافذ كل عشر أقدام تقريباً؛ لا بد أنها نوافذ غرف النوم في الطابق الثاني، أو غرف

التخزين.

لقد تعيّن عليه العثور على منفذ، وبسرعة.

كان يعرف أنه لن يتمكن من العودة إلى الأسفل على التعريشة، لذلك تحرك بأقصى سرعة على امتداد الحافة في اتجاه النافذة الأولى التي بدت مُقفَلة أو عالقة. فانتقل إلى النافذة التالية، ولكنها كانت مماثلة للأولى. وكانت النافذة الثالثة مفتوحة جزئياً، ولكن الخشب ملتوٍ ولا تتحرك النافذة نحو الأعلى. لذا تحرك نحو النافذة الرابعة، ولكنه أدرك فجأةً أن الرجل المجنون المسلّح واقف عند زاوية الحافة حيث تستدير في اتجاه مؤخّر المنزل. من الواضح أنه عثر على طريق للخروج قبل أن يعثر شارلوك على طريق للدخول.

صوّب المجنون ماسورة المسدس الطويلة نحو وسط صدر شارلوك صارخاً: «اللعنة عليك، اللعنة عليك». وخرج البُصاق من فمه. «سأقتلك».

انتظر شارلوك اصطدام الرصاصة به، وجعْله يهوي عن السطح. وتساءل للحظات عما إذا كانت الرصاصة ستقتله قبل السقطة. سيكون هذا من دون شكّ الاختبار الأخير في حياته.

فجأة، خرج رجل آخر من وراء الزاوية، وهو رجل قويّ البنية، ذو شعر باهت وأوردة بارزة في أنفه وخدَّيه. أمسك الرجل بالمجنون من عُنُقه مثبّتاً إيّاه بذراعه اليسرى، في حين غرز إبرةَ مِحقنةٍ في كتف الرجل، وضغط المكبس دافعاً كل كمية المسكِّن الموجودة في المِحقنة إلى داخل مجرى دم الرجل المجنون.

عندها، استرخى المجنون بين ذراعَي الرجل الآخر، وطقطق المسدس على السطح. كان لا يزال يحاول التكلم، ولكن كلماته كانت مُدغَمة. وسرعان ما خفقت عيناه للحظات قليلة، ثم سكن.

سحب القادم الجديد المِحقنة من كتف الرجل المجنون، فتقطّر منها سائل شفاف، وانهار المجنون على الحافة. مقوِّماً وقفته، حدّق الرجل بشارلوك على المستوى ذاته.

«ماذا تفعل هنا أيها الفتى؟».

أجاب شارلوك محاولاً أن يبدو أصغر سنّاً وأكثر عُرضة للأذى: «كنت أبحث فحسب عن كرة القدم الخاصة بي في الحديقة عندما أمسك بي هذا الرجل وسحبني إلى داخل المنزل». وانتبه شارلوك إلى أن الرجل حمل المسدس الذي كان المجنون يمسك به عندما قوّم وقفته، واحتفظ به واضعاً الماسورة على ساقه.

«وما الذي كان هذا السيد يريده منك عندما أدخلك إلى المنزل؟».

«لا أعرف. أُقسم إنني لا أعرف».

فلزم القادم الجديد الصمت للحظات قليلة؛ مفكراً ومربّتاً على سرواله بماسورة المسدس الطويلة.

«ادخل إلى المنزل». قال الرجل أخيراً، ومالت ماسورة المسدس نحو الأعلى، حين صوّبها نحو شارلوك. ثم أضاف: «وخذه معك». وأومأ في اتجاه المجنون فاقد الوعي. «جرّه حول الزاوية. هناك نافذة مفتوحة، دعه ينزلق إلى الداخل فحسب».

«ولكن...»

«لا تجادل، وقُم بما يطلب منك أسيادك القيام به».

تنقّل نظر شارلوك بسرعة بين وجه الرجل والمسدس. لم يكن هذا الرجل غَضوباً أو عصبيّ المزاج أو مجنوناً، بل كان سليم العقل ولكنه مستعد لإطلاق النار على الأرجح.

تقدّم شارلوك وأمسك بالمجنون من كتفَيه، فتراجع القادم الجديد لتوفير مساحة له. جرّ شارلوك المجنون فاقد الوعي حول الزاوية وصولاً إلى النافذة المفتوحة، مدركاً طوال الوقت لقرب حرف الحافة الناتئة؛ خطوة خاطئة واحدة فقط وسيسقط.

كان جسد الرجل ثقيلاً ويصعب تحريكه، فشعر شارلوك بالعرَق يتصبب من كل جسده فيما كان يبذل قُصارى جهده لتحريكه. في النهاية، تمكن من وضع نصفه داخل غرفة النوم، فيما ظل النصف الآخر خارج النافذة. عندها، دخل شارلوك عبر النافذة مارّاً فوقه بصعوبة، وسحبه وراءه إلى الداخل.

كان الرجل المسلّح يراقب طوال الوقت.

فجأةً، ظهرت ذراعان فوق كتف شارلوك وأمسكتا بالشخص فاقد الوعي، وسمع صوتاً عالياً يقول له:

«سآخذه من هنا».

أدار شارلوك رأسه متفاجئاً، فرأى رجلاً ثالثاً يقف قربه. وكان هذا الرجل قصير القامة، وضخم البنية، ومَهيباً، وأصلع، ويفتقر إلى جزء من أُذُنه اليمنى.

تراجع شارلوك إلى الوراء، وسمح للقادم الجديد بسحب المجنون على الأرض إلى الممرّ، ووصولاً إلى غرفة نوم مختلفة في قفلها مفتاح. في الداخل، وأثناء قيام الوافد الجديد برفع المجنون فاقد الوعي على السرير، لاحظ

شارلوك أن نوافذ الغرفة مزوَّدة بقضبان معدنية. إنها غرفة الرجل المجنون.

كان الرجل الثاني _ قويّ البنية وأشقر الشعر _ واقفاً عند مدخل الباب، حاملاً المسدس.

«كيف حال غيلفيلان؟». سأل.

«جرح عارض في الرأس». أجاب الرجل الأصلع قصير القامة الذي كان لا يزال يضع المجنون على السرير، وتابع: «سيُصاب بألم في الرأس عندما يستيقظ، ولكنني أعتقد أنه سيكون بخير». وأطلق ضحكة ماكرة. «لديه جمجمة سميكة. يتعيّن عليك توجيه ضربة أقوى بكثير لتسبّب له أي ضرر بالغ».

«ربما سأقوم بذلك». زمجر الرجل قويّ البنية. «إنّه أخرَق لعين، فقد سمح لبوث بإلحاق الأذى به على هذا النحو. كان من الممكن أن يغيّر ذلك مسار الخطة بأكملها. إن آخر ما نحتاج إليه هو تنقّل بوث في الريف مهتاجاً؛ لا سيما في هذه الحالة».

بوث! حاول شارلوك عدم إظهار أي رد فعل، ولكنه شعر بتوهّجِ اكتفاءٍ دافئ في داخله. فالرجل هو جون ويلكس بوث وليس جون سانت هيلين.

كان الرجل قويّ البنية ما زال يتكلم، ويومئ لشارلوك بمسدسه: «والآن بسببه ها نحن نتحمل عبءَ شاهدٍ».

أوقف الرجل الأصلع ما يقوم به، ورفع نظره إلى شارلوك للمرة الأولى. «ماذا سنفعل به يا إيف؟».

فهز الرجل قويّ البنية _ إيف _ كتفَيه قائلاً: «لا أرى أننا أمام أكثر من خيار واحد».

عندها، ثارت ثائرة الرجل الأصلع فجأةً وقال: «انظر، إنه مجرد فتى. ألا يمكننا، كما تعلم، إطلاق سراحه فحسب؟». والتفت إلى شارلوك. «أنت لم ترَ أي شيء، أليس كذلك يا فتى؟».

حاول شارلوك التظاهر بالذُّعر، ولم يكن الأمر صعباً. «أنا صادق أيها الرئيس». قال محاولاً إظهار أكبر قَدْر من الإخلاص في صوته تمكّن من استجماعه، «سأنسى كل شيء. أَعِد بذلك».

فتجاهله إيف. «ماذا عن بوث؟».

«سيُبقيه المسكِّن فاقد الوعي لبضع ساعات».

أومأ إيف برأسه. « إذاً، هذا يمنحني قدْراً كافياً من الوقت».

«يمنحك وقتاً كافياً للقيام بماذا؟».

رفع إيف المسدس ذا الماسورة الطويلة وصوّبه نحو شارلوك مباشَرةً، وهو يجيب: «لِقتل الفتى وإغراق جثته. القاعدة رقم واحد، تذكّر: لا تترك وراءك أحداً رأى وجهك».

الفصل الرابع

سرت في جسد شارلوك رعشة غير إرادية. فهم سيقومون بالتخلص منه ورميه ككيس مليء بقشور البطاطا! وتنقّلت نظراته السريعة بين الرجلَين باحثاً عن طريقة للفرار. ولكن إيف كان يقف عند المدخل، فيما الرجل الأصلع قصير القامة يقف بينه وبين النافذة. وحتى إن تمكن من الخروج عبر النافذة، فإلى أين سيذهب؟ وأين سيختبئ؟ فهم سيتبعونه إلى الخارج، ويحاصرونه في إحدى الزوايا، ويدفعونه من أعلى جرف أو يطلقون عليه النار ويشاهدونه وهو يسقط.

«رجاءً يا سيد، أنا لم أرَ أي شيء». أنّ محاولاً ربح بعض الوقت.

«لا تلعب دور البريء معي يا بُنَي». زمجر إيف، وعاد إلى الممرّ، وأومأ لشارلوك بالسير وراءه. «من هنا، وأَسرِع». ألقى شارلوك نظرة سريعة على الرجل الأصلع قصير القامة، الذي يفترض أنه طبيب متمرّن من نوع ما، كما بدا أنه الشخص الذي يلجأ إليه إيف عندما يتعلق الأمر بإصابات أو جنون. «بيرل، لِيَكن بوث في صحة جيدة وملائمة عندما أعود. واحرص على إيقاظ غيلفيلان، وجعله مستعداً للتحرك. أريد الخروج من هذا المكان بأسرع وقت ممكن. فكثيرون هم الأشخاص الذين لاحظوا وجود أمر غريب. أنا على ثقة تامة بأن صديقنا هنا لم يكن يتسلل في الأرجاء بحثاً عن كرة ضائعة، بل بسبب تحدٍّ ما، أو لأنه أراد رؤية ما يجري».

دخل شارلوك الرَّدهة، وألقى نظرة سريعة على بيرل في الخلف؛ فلم يبادله هذا الأخير النظرات. عندها، أنّ شارلوك قائلاً: «رجاءً يا سيد، لا تدَعْه يؤذيني». ولكن بيرل نظر إلى جون ويلكس بوث فاقد الوعي، وتمتم: «آسف، أيها الفتى. ولكن هناك أموراً كثيرة على المِحك هنا. وإذا قال إيف إنه يجب أن تموت، عندها يجب أن يحصل ذلك. وأنا لن أتورّط في الأمر».

وتردد بيرل للحظات ناظراً إلى شيء ما في خزانة المطبخ، ثم سأل إيف:

«ماذا عن هذا الشيء؟».

«أي شيء؟».

فمدّ بيرل يده والتقط مرطباناً زجاجياً غُطّي أعلاه بقطعة قماش من الموسلين لُفَّت بخيط. ومن حيث يقف، تمكن شارلوك من رؤية تلك الثقوب بالغة الصِّغر المُحدَثة في الموسلين بواسطة سكين حاد. إنه نوع

الأمور التي قد يقوم بها فتى إذا أراد الاحتفاظ بأُسروع [4] أو خُنفساء حية؛ أي تغطية أعلى المرطبان كي لا يتمكن المخلوق من الفرار، وإحداث بعض الثقوب في الأعلى لإدخال الهواء، وليتمكّن المخلوق من التنفس. ولكنه لم يرَ أي حشرات أو مخلوقات أخرى في الداخل. فالشيء الوحيد الذي كان في المرطبان كتلة حمراء متلألئة تبدو كقطعة كَبِد، أو بقعة دم متخثّرة كبيرة.

ألقى إيف نظرة سريعة وعابرة على المخلوق وقال: «سنصطحبها معنا؛ فالرئيس يريدها. إنه يريدها بقدْر ما يريد بوث».

هزّ بيرل المرطبان بشكل مريب، ثم سأله: «هل أنت واثق من أنها لا تزال حية؟».

«من الأفضل أن تكون كذلك. فالرئيس ليس رجلاً معروفاً بصبره عندما يتم خَذله، وهذا المخلوق قد رافقنا من بورنيو». وظهرت ملامح القلق على وجهه وهو يتابع: «سمعتُ ذات يوم أن أحد خدمه أوقع ذات مرة إبريق شراب مثلَّج بنكهة النعناع على الشرفة، فنظر إليه ديوك فحسب من دون قول أي شيء. عندها، شرع الخادم بالارتجاف، وتراجع القهقرى إلى الحديقة؛ حيث انتهى به الأمر عند ضفة النهر مرتجفاً طوال الوقت وباكياً. ثم سار إلى الوراء، ونزل النهر، وتوارى عن الأنظار كما لو أنه فاقد السيطرة على نفسه. ولم يُرَ مرة أخرى قط. وقد قال ديوك ذات مرة إن هناك قواطير في ذلك النهر، ولكنني لا أعرف إن كان يقول الحقيقة».

بدا بيرل متشككاً. «أظن أن ديوك قد يستخدم أحد ذَينك الشيئَين المربوطَين. ألا يُفترض بهما أن يكونا قاتلَيه؟».

«ربما أراد إثبات وجهة نظر ما، أو ربما لم يكن ذانك الشيئان جائعين». وهزّ إيف رأسه قبل أن يتابع: «لا أهمية للأمر. سيرافقنا هذا المخلوق إلى الوطن».

ودفع شارلوك عبر الممرّ في اتجاه الدّرج، مصوّباً ماسورة المسدس نحوه.

«ماذا ستفعل بي؟». سأل شارلوك.

«لا يمكننا إطلاق النار عليك». أجاب إيف متأملاً. «إلا إذا لم تترك لي خياراً آخر. فإذا عُثر على جثة فتى قتل برصاصة وأُجري تحقيق في الأمر، فسيكون المنزل الذي يقطنه أربعة أغراب أول مكان تقصده الشرطة. لذا، يمكن حقنك بجرعة مُفرطة من أحد مسكّنات بيرل كما أفترض، ولكن ذلك هَدر للمسكنات؛ فقد نحتاج إليها لاحقاً. إذاً، سأخنقك بوضع خِرقة في

فمك فحسب. وبهذه الطريقة، لن تكون هناك أي آثار واضحة تشير إلى استخدام العنف. هناك مقلع أحجار على بُعد أميال قليلة من هنا. لذا، سأضعك في عربة النَّقل، وأغطيك بالخَيش، وأصطحبك إلى هناك؛ حيث توجد الكثير من الحُفَر في الأرض، ويمكنني رميك داخل إحداها. وإذا تمّ العثور عليك يوماً، فستفترض السلطات أنك وقعتَ فحسب وصدمتَ رأسك».

«هل الأمر بهذه الأهمية حقاً؟». سأل شارلوك.

«ماذا تقصد؟».

«أيّاً يكن ما تقوم به هنا، فهل اضطرارك لقتلي والحرص على عدم عثور أحد عليّ بهذه الأهمية حقاً؟».

فضحك إيف. «أوه، سيكتشف الناس لاحقاً ما نقوم به. سيكتشف العالم ذلك في الوقت المحدد، ولكننا من نختار الوقت».

كان شارلوك قد بلغ أعلى الدّرج، فأومأ له إيف للتوجّه إلى الطابق الأول، وأطاع شارلوك بتردد. كان يعلم أنه يتعيّن عليه الفرار، ولكنه إذا حاول القيام بذلك الآن فسيطلق إيف النار عليه، وسيجد طريقة أخرى للتخلص من جثته من دون أن يُعثر عليها قطّ. وبالإضافة إلى ذلك، كان شارلوك على ثقة تامة بأن الفرار الآن لن يحقق أي شيء. ربما سيحصل على فرصة عندما يخرجان إلى الهواء الطَّلق.

نازلاً الدّرج، شعر بوجود شيء ما تحت نَعل حذائه؛ شيء ما مُلقى على السجادة. وقبل أن يتمكن من التحقق من الأمر، دفعه إيف إلى الأمام، فاستدار شاعراً بالفُضول، ورأى سلكاً مشدوداً بإحكام عبر الدّرج من الدرابزين إلى الجدار المغطى باللوحات. لقد خطا على السلك المُلقى على السجادة.

علقت قدم إيف تحت السلك أثناء نزوله الدرَجة التالية. وفيما واصل جسده التحرك، بقيت قدمه عالقة في مكانها، فاتسعت عيناه بطريقة هزلية أثناء وقوعه إلى الأمام، وتلمّست يداه الجدار والدرابزين محاولتين التمسّك بأي شيء للحؤول دون وقوعه كلياً، فارتطم المسدس الموجود بيده اليمنى باللوحات قبل أن يوقعه. وتنحّى شارلوك جانباً أثناء وقوع إيف مارّاً بجانبه. اصطدمت كتف الرجل بالدّرج، وتدحرج بقوّة مراراً وتكراراً؛ إلى أن وصل إلى الطابق الأول وتمدّد على السجادة.

ألقى شارلوك نظرة سريعة من فوق حافة الدرابزين من مكان وقوفه في منتصف المسافة التي تفصل أعلى الدّرج عن أسفله. تحته، في ظلال الطابق الأول، رأى وجه ماتي الشاحب يحدّق به. كان ماتي يمسك بطرف

سِلك، فتتبّع شارلوك السِّلك وصولاً إلى الدرابزين، حيث عبَر السّلك الدّرج وصولاً إلى مسمار أُقحم تقريباً داخل فجوة في الجدار، وربط به.

«لقد حالفك الحظ بعدم خروج المسمار من مكانه عندما كان وزنه يسحب السلك». علّق شارلوك بهدوء بالرغم من خفقان قلبه بسرعة وقوة في صدره.

«لا». صحّح ماتي، «كنتَ محظوظاً لأنه لم يخرج. فالأمر سيّان بالنسبة إليّ. فهو لم يكن يعلم أنني هنا».

نزل شارلوك إلى فسحة الدّرج في الطابق الأول، وانحنى لتفحّص إيف. كان الرجل فاقداً وعيه، مع وجود علامة حمراء خطيرة على جبينه. فالتقط شارلوك المسدس؛ إذ لا فائدة من القيام بأية مخاطرة.

انضم إليه ماتي، وسأله: «ماذا عنك وعن المنازل الأخرى؟».

«ماذا تعني؟».

«أعني أنه يتعيّن عليّ مواصلة تخليصك من المتاعب». وألقى نظرة سريعة إلى الطابق العُلوي، ثم سأله بفضول: «ماذا جرى هناك؟ رأيتُ الرجل ذا الوجه المحروق يسحبك إلى داخل المنزل، ومن ثم رأيت رجلَين آخرَين في عربة نقل بضائع. الأمر الثاني الذي عرفتُه هو وجودكم أنتم الثلاثة على السطح. لقد رأيت المسدس، لذلك ظننتُ أنه من الأفضل أن أدخل وأنقذك». وهزّ رأسه. «بالنسبة إلى فتى شديد الذكاء مثلك، أنت تقضي الكثير من الوقت كسجين. ألا يمكنك التخلص من المتاعب بواسطة الكلام؟».

أجاب شارلوك: «أعتقد أن الكلام هو الذي يعرّضني للمتاعب أحياناً». وتوقف، مفكراً. «من أين أحضرت السلك؟».

«من جَيبي بالطبع». أجاب ماتي. «لا تعرف أبداً متى تكون بحاجة إلى سلك».

«هيا». قال شارلوك. «لِنخرج من هنا».

«هناك رجل آخر في الطابق العُلوي». قال ماتي، وتابع: «ولكنه مصروع. على الأقل، كان موجوداً عندما صعدتُ إلى هناك. من الأفضل لنا أن نحترس، فربما يكون مستيقظاً الآن».

تسلل الاثنان على الدّرج إلى الطابق الأرضي، ومرّا أمام غرفة الاستقبال، حيث وجدا الرجل الذي كان شارلوك قد رآه مغمى عليه وينزف _ غيلفيلان، كما دعاه إيف _ مستلقياً على الأريكة وهو يشخر. متسلّلَين بجانبه، توجها إلى الباب الأمامي، وخرجا إلى الحديقة، وبلغا الطريق حيث

ربط ماتي الحصانَين.

«هل اكتشفتَ ما كنتَ بحاجة إلى معرفته؟». سأل ماتي أثناء امتطائهما الحصانَين.

«أظن ذلك». قال شارلوك مفكراً. «هناك أربعة رجال في المنزل، وكلهم أميركيون. على الأقل، ثلاثة منهم أميركيون، فأنا لم أسمع الرابع يتكلم. يعاني أحد الرجال من اضطراب عقلي، وأحدهم طبيب يعتني به. وأعتقد أن الآخرَين يحرسانه؛ فهم حريصون على عدم فراره. لا بد من أن يكونوا قد أَوكلوا مهمّة المراقبة إلى أحدهم بينما خرج الآخران _ لإحضار الطعام ربما، أو للقيام بأمر ما_ فصرعه الرجل المضطرب عقلياً، المدعوّ جون ويلكس بوث. لقد افترض ذلك المجنون أنني جزء من مكيدة ما ضده، ولهذا السبب سحبني إلى داخل المنزل».

«ولكن، ماذا يفعلون في إنكلترا في المقام الأول؟». سأل ماتي.

«لا أعلم، ولكن هناك أمراً ما مريباً. فهذا المكان ليس مَصَحّة عقليّة للمجرمين المجانين».

«مجرمون مجانين!».

«سأُطلعك على كل شيء عندما نصل إلى العزبة».

دامت رحلة العودة إلى فارنهام أكثر من ساعة، وكانت معنويات شارلوك تنهار مع كل مِيل يقطعانه. فكيف سيشرح لمايكروفت وأميوس غروي أن تحقيقه الصغير قد انتهى باكتشافه وجود الرجال الأربعة في المنزل، وهم على علم مسبق بأن هناك من يعرف بنواياهم الشريرة؟ لو فكر في الأمر بطريقة ملائمة لَما دنا أبداً من المنزل.

كانت عربة مايكروفت لا تزال خارج العزبة عندما وصلا إلى هناك.

فقال ماتي: «حسناً، حظاً سعيداً».

«ماذا تعني بقولك حظاً سعيداً؟ ألن تدخل معي؟».

«هل تمزح؟ السيد غروي يخيفني، وشقيقك يروّعني. أنا عائد إلى مركبي. أطلعني على كل شيء غداً». وأدار رأس حصانه وخبّ مبتعداً.

آخذاً نفَساً عميقاً، دخل شارلوك الرَّدهة، وعبر إلى المكتبة وقرع الباب.

«ادخل». دوّى صوت شقيقه.

كان مايكروفت وأميوس غروي جالسَين معاً إلى طاولة طويلة موضوعة في أحد جوانب غرفة المكتبة، وأمامهما كومة ضخمة من الكتب؛ كتب تاريخ وجغرافيا وفلسفة، وثلاثة كتب تحتوي على خرائط كبيرة جداً، فُتحت على خارطةٍ بدت لشارلوك القارة الأميركية.

نظر مايكروفت إلى شارلوك من الأعلى إلى الأسفل بطريقة انتقادية، ثم قال:

«تمّ الاعتداء عليك، وليس من قبل شخص في مثل سنّك».

«أو من هذا البلد». زمجر أميوس غروي.

قال مايكروفت مُلقياً نظرة سريعة إلى حذاء شارلوك: «في الواقع، كان هناك مهاجمان، أحدهما مختلّ عقلياً بطريقة ما».

«والرجلان مسلَّحان، ربما بمسدس». أضاف غروي.

«كيف عرفتما هذه الأمور؟!». سأل شارلوك مندهشاً.

«إنها مسألة تافهة». قال مايكروفت ملوّحاً بيده بعدم مبالاة. «سيكون شرح الأمر هدراً للوقت. فالأهم من ذلك هو إلى أين ذهبتَ؟ ولماذا هوجمتَ؟».

أخبرهما شارلوك بتردد بما حدث، مُدركاً أنه لا يزال يحتفظ بمسدس إيف مدسوساً تحت حافة سِرواله من الناحية الخلفية، فسحبه ووضعه على الطاولة أمام الرجلَين.

«إنه كولت عسكري». علّق غروي، ثم تابع شارحاً: «عيار 44 مليمتراً، ست طلقات نارية. أربع عشرة بوصة من الزّند إلى آخر الماسورة. حلّ مكان كولت دراغون كسلاح مفضَّل لدى الجيش الأميركي. إنه دقيق حتى مسافة مئة يارد». وانزلقت قبضة يده على الطاولة، مما جعل المسدس يقفز، وصاح قائلاً: «ماذا كنت تعتقد أنك تفعل بحق الله عندما ذهبتَ إلى ذلك المنزل؟! لقد نبّهتَ بوث ومحرِّضيه إلى واقع وجود من يتعقّبهم! والآن سيختفون بسرعة البرق».

قضم شارلوك الناحية الداخلية من شفته محاولاً منع نفسه من الإجابة. غير أنه قال أخيراً: «أردت إلقاء نظرة فحسب، فقد ظننتُ أن باستطاعتي المساعدة».

«أنت لم تساعدنا، بل أعَقتَ عملنا بفعالية». انفجر غروي. «هذا عمل للبالغين، وأنت لا تملك المهارات اللازمة أو المعرفة للقيام بالأمر بطريقة ملائمة».

لاحظ جزء من ذهن شارلوك _ جزء نزيه ومترفّع _ أن صوت أميوس غروي يصبح أجشّ عندما يكون غاضباً. ولكنه شعر بالخزي لعِلمه أنه خذل الرجلَين؛ لا سيّما وأن رأيهما به أكثر أهمية من رأي أي شخص آخر في العالم. لذا، فتح فمه ليعتذر، ولكن فمه بدا جافّاً للغاية ولم يتمكن من التفوّه بأي كلمة.

كان التعبير الذي يبدو على وجه مايكروفت يشير إلى خيبة أمله به وليس غضبه منه. «اذهب إلى غرفتك يا شارلوك. سنُرسل بطلبك عندما...» وألقى نظرة سريعة على غروي قبل أن يتابع: «نكون أكثر تأكداً من إجراء حديث أكثر هدوءاً. اذهب الآن».

شاعراً بخدَّيه يتوهجان خجَلاً، استدار شارلوك وخرج من المكتبة.

كانت الرَّدهة خانقةً بسبب حرارة بعد الظهر، فوقف هناك للحظات مطأطئاً رأسه، ومنتظراً شعوره بأنه قادر على مواجهة صعوده الطويل إلى غرفته؛ فقد شعر بألم في الرأس.

«لم تَعُد الصغير المفضَّل، أليس كذلك؟». قال صوت من الظلال.

فألقى شارلوك نظرة سريعة على السيدة إغلانتين التي كانت تقف قرب الحجرة الصغيرة تحت الدّرج. كانت تبتسم بقسوة، وفستانها الأسود المزوَّد ببطانة يتحرك حولها بصعوبة، وصوتُ ملامسته الأرض يبدو أشبه بهمس في غرفة بعيدة.

«كيف تمكنتِ من البقاء في هذا المنزل بالرغم من معاملتك الجميع بفظاظة؟!». سألها شارلوك وهو يعرف أن لا شيء لديه ليخسره. فالأمور سيّئة اليوم، ولا يمكن أن تغدو أسوأ. «كنت سأطردك منذ أعوام لو كنت المسؤول هنا».

بدت متفاجئة برد فعله، وتلاشت الابتسامة عن وجهها، وهي تقول بحدّة: «لا سلطة لك هنا. أنا التي تملك السلطة في هذا المنزل».

«إلى أن يتوفى العم شِرينفورد فقط». أشار شارلوك. «ولكن، لا تنسي أنه لا أبناء له أو لزوجته آنا، ولذلك ستنتقل ملكية المنزل إلى والدي. عندئذٍ، سيتوجب عليك أن تحرصي جداً على خطواتك يا سيدة إغلانتين».

وقبل أن تتمكن من الرد بأي شيء، صعد الدّرج إلى غرفته ناظراً إلى الأسفل من فسحة الطابق الأول، وتمكن من رؤيتها مسمّرة في مكانها هناك.

استلقى على سريره، ووضع إحدى ذراعيه على عينَيه، واستسلم للأفكار المتصارعة في رأسه. ما الذي كان يفكر فيه حين تدخّل في ما لا يعنيه!؟ فقد سبق لمايكروفت وغروي أن حذّراه من المساعدة. ما الذي كان يحاول إثباته بالتحديد؟

لا بد من أن يكون قد غفا قليلاً؛ لأن الضوء في الغرفة كان قد تبدّل حين فتح عينيه، كما شعر بوخز وخَدَر في ذراعه. نهض ونزل إلى الطابق السفلي ببطء ليتناول بعض الطعام؛ فقد شعر فجأةً بجوع شديد.

كانت الخادمات يُعدِدنَ مائدة العشاء. خرج مايكروفت من المكتبة،

بينما لم يكن هناك أثر لأميوس غروي.

أومأ مايكروفت برأسه لشارلوك وسأله: «أتشعر بتحسن؟».

«ليس حقاً. لقد قمتُ بعمل غبيّ».

«ليست هذه هي المرة الأولى، ولن تكون الأخيرة على الأرجح. احرص فحسب على تعلّم درس من هذا الأمر. إذ يمكن الصفح عن خطأ ارتُكب للمرة الأولى، ولكن بعد ذلك إن تكرر فسيصبح الأمر مُتعِباً».

خرجت إحدى الخادمات من غرفة الطعام مع ناقوس قُرصيّ صغير موضوع في إطار، وضربت الناقوس مرة واحدة وبصوت مرتفع من دون النظر إلى مايكروفت أو شارلوك، ثم تراجعت إلى داخل غرفة الطعام ثانيةً.

«هلّا دخلنا». قال مايكروفت.

في غضون لحظات قليلة، انضمّ إليهما شِرينفورد وآنا هوملز. قضى مايكروفت معظم فترة تناول العشاء في مناقشة دقة ترجمة الكتب اللاتينية واليونانية باللغتَين العِبرية والآرامية. وقضت العمة آنا معظم الوقت في التحدث إلى شِرينفورد ومايكروفت جاهلةً واقع تحدّثهما معاً؛ بالرغم من قيام مايكروفت_ بسبب تمتعه بحسٍّ الشهامة_ بالاستدارة من حين لآخر للإجابة عن أحد الأسئلة التي تتخلّل مونولوجها المتواصل. وقضى شارلوك وقته متناولاً الطعام، ومتجنباً نظرة السيدة إغلانتين المحدّقة والمحملقة به من موقعها قرب إحدى النوافذ.

بعد العشاء، رافق شِرينفورد وآنا مايكروفت إلى الدرَجات الأمامية لإلقاء تحية الوداع عليه.

قال شِرينفورد لمايكروفت: «لغتك اليونانية طليقة، وللغتك اللاتينية بنية جيدة بصفة خاصة». وهذا هو الثناء الأعلى الذي قد يفكر فيه. «ولقد استمتعتُ بحديثنا. أنت تفتقر إلى المعرفة الواسعة في هذا المجال، ولكنك قمتَ ببعض الاستنتاجات المذهلة بالاستناد إلى ما أخبرتُك به. سأكون بحاجة إلى التفكير مطوَّلاً وبإمعان في ما اقترحتَه. رجاءً، زُرنا مرة أخرى قريباً».

لقد فاجأت العمة آنا الجميع بتقدّمها من مايكروفت، ووضعها يدها على ذراعه قائلة: «أنت مرحَّب بك هنا على الدوام. وأنا آسفة... لأن العداء فرّق بين أفراد العائلة. ليت الوضع مختلف».

«لطفك قوة باستطاعتها التغلب على كل المشاكل». أجاب مايكروفت بلطف. «والمحبة التي أظهرتِها من خلال اهتمامك بشارلوك الشاب مثال لنا كلنا في التواضع. اعتبري أنّ الخلاف قد أُصلح، لا بل انتهى تماماً». وألقى نظرة سريعة إلى داخل ظلال الرَّدهة، إلى حيث ظن شارلوك أنه رأى شكلاً

بشرياً بلباس أسود يقوم بمراقبتهم. أخفض مايكروفت صوته وتابع قائلاً: «ولكن، طالما أنه لا يزال هناك شخص محدَّد داخل هذا المنزل يملك قدرة على التأثير، فأنا لا أعتقد أنني سأشعر يوماً أنه مرحَّب بي كما تتمنَّين».

أشاحت آنا بنظرها. واعتقد شارلوك أنه رأى تلألؤ دموع في عينَيها. «نحن حيث نحن». قالت بغموض. «ونقوم بما نقوم به».

تراجع مايكروفت خطوة إلى الوراء وقال: «أستأذنك بالانصراف، ومع جزيل الشكر. هل يمكنني استغلال جوهرك الخيِّر للمرة الأخيرة بأن أطلب من شارلوك مرافقتي إلى محطة القطارات؟ يمكن أن تعيده العربة بعد ذلك».

«بالطبع». قال شِرينفورد ملوّحاً بيده بعدم مبالاة.

وأثناء قيام العربة بنقلهما خارج الأرض التابعة لمانور في اتجاه الطريق، نظر شارلوك إلى الوراء. كانت هناك ثلاثة أشكال بشرية على الدرَجات: عمته، وعمه، والسيدة إغلانتين التي كانت واقفة على الدرجة العليا؛ سواء أتعمّدت ذلك أو حصل الأمر صدفة، لتبدو ساميةً على مستخدمَيها.

«أنت ما زلت تريد التحدث عما جرى اليوم». حزر شارلوك فيما كانت العربة تقفز فوق حُفَر وحجارة.

«بالطبع. سنتوقف في منزل السيد غروي؛ إذ لا يزال هناك الكثير لمناقشته».

وأحدثت عجلات العربة صليلاً لدى عبورها المنظر الطبيعي.

كان لا يزال بإمكان شارلوك الشعور بالألم في فروة رأسه حيث أمسكه المجنون من شعره وجرّه إلى داخل المنزل. فمدّ يده خِلسةً وشدّ خُصلة من شعره للتحقق من عدم قابليّته للاقتلاع. وقد جعل الألم الفجائي الذي شعر به الدموعَ تندفع من عينَيه، ولكن الشعر بقي حيث هو. الحمد لله.

بعد عشر دقائق، أبطأت العربة، وتمكن شارلوك من رؤية سطح من القشّ أشبه برغيف خبز فوق كتلة من الخمائل.

«تعال». قال مايكروفت بعد توقف العربة خارج بوّابة في جدار حجري. «السيد غروي بانتظارنا».

كان باب المنزل مفتوحاً، فقرعه مايكروفت، ثم دخل من دون انتظار إجابة.

كان أميوس غروي جالساً على كرسي بجانب المدفأة يدخّن سيجاراً،

ومظهره الضخم يجعل الإطار الخشبي للكرسي يبدو صغيراً. «سيد هولمز». قال مرحباً، وأومأ برأسه.

أجاب مايكروفت: «سيد غروي، شكراً لاستقبالك لنا».

«رجاءً، اجلسا».

اختار مايكروفت الكرسي الآخر الوحيد والمريح في الغرفة. فيما جلس شارلوك على كرسي بدون ظهر قرب المدفأة الباردة والفارغة، ونظر حوله. كان منزل أميوس غروي الريفي غير مرتَّب كما يذكر. ورأى كومة رسائل مثبَّتة على رفّ المدفأة الخشبي بواسطة سكين، ويحتوي خُفّ وحيد موجود على الأرض قرب المدفأة على مجموعة من السجائر الموضوعة بشكل عمودي وفي اتجاهات مختلفة. وهناك خارطة للمنطقة المحلية مثبَّتة على جدار بواسطة دبابيس. لقد رُسمت عليها دوائر وخطوط بطريقة عشوائية كما يبدو، وتتواصل بعض الخطوط على مِلاط الجدار.

تساءل شارلوك عن مكان ابنة غروي، فرجينيا. لم يكن لها أي أثر في المنزل، ونظراً إلى سلوكها العنيد، ما كان لِيتوقع بقاءها في غرفتها بوَداعة أثناء تحدث البالغين. ربما هي تقوم بنزهة في الريف على صهوة الحصان كما تفعل في كثير من الأحيان؛ فهو لم يرَ حصانها، ساندیا، خارج المنزل.

وابتسم. تكره فرجينيا المكوث في الداخل. فبطريقة ما، كانت أشبه بالحيوان برغبتها في عدم تقييد حريتها.

سأل غروي: «هل يمكنني أن أقدّم لك كأس شراب؟ شخصياً، أنا لا أُطيقه، فمَذاقه كمَذاق شيء ما زحف إلى داخل البرميل ومات، ولكنني أحتفظ بقنينة للزائرين».

«شكراً لك، ولكن لا». أجاب مايكروفت بسلاسة. «لا يحتسي شارلوك الشراب، وأنا أفضّل كأساً من العصير في هذا الوقت من اليوم». وألقى نظرة سريعة على شارلوك.

لقد بدا لشارلوك أن مايكروفت يوشك على التطرق إلى فكرة مهمة، ولكنه لم يتمكن من معرفتها قط.

«للمكسيكيين شراب خاص يقطّرونه من الصبّار». قال غروي برحابة صدر. «ربما يكون بإمكاننا اعتماده».

«ما هو الصبّار؟». سأل شارلوك.

«إنها نبتة ذات غلاف سميك مغطى بالأشواك». أجاب غروي. «وهذه النبتة تنمو في المناخ الحار وفي رمال أراضي تكساس ونيو مكسيكو وكاليفورنيا الحارة والقاحلة. إذ يمنع الغلاف السميك الماء من التبخر، وتحول

الأشواك دون قيام الأبقار والجياد_ وما شابهها_ بتناولها بسبب ما تخزّنه من ماء. والصبّار دليل على عظمة الله؛ فقد خلق أشياء مختلفة لبيئات مختلفة لتتمكن من مواصلة الحياة، كما أنه دليل على وجود قوة ما تحمل الكائنات الحية على التبدّل والتطور لتواصل الحياة بطريقة أفضل في أي مكان تجد نفسها فيه».

«بالعودة إلى موضوعنا المهم، ما الذي تمكنتَ من اكتشافه؟». سأل مايكروفت.

فهز غروي كتفَيه وأجاب: «عثرتُ على المنزل. إنه فارغ، ويبدو كما لو أن ساكنيه قد غادروا على عجَل. تحدّثتُ إلى عامل مزرعة على الطريق رآهم وهم يغادرون. قال إن هناك أربعة رجال، وبدا أحدهم نائماً، والآخر مضمَّد الرأس، أما الاثنان المتبقيان فكانا عابسين كما لو أن أمامهما رحلة طويلة وغير سارّة».

«لقد طارت العصافير». وفكر مايكروفت للحظات، ثم أردف: «هل هناك أي دليل آخر على كون الرجل النائم جون ويلكس بوث؟».

فهز غروي كتفَيه، وأجاب: «لا شيء باستثناء ما أخبرنا به شقيقك». من الواضح أن وجهه مشوّه بسبب تعرّضه لحريق منذ زمن. وآخر ما عُرف عن جون ويلكس بوث هو مشاركته في معركة حاسمة في هُري في فيرجينيا مع الجيش. لقد تتبّعوه وأمروه بالاستسلام، ولكنه فتح النار. عندها، أطلق الجيش النار بالمِثل، واشتعلت النيران في الهُري في إحدى المراحل. ربما أوقع مصباح زيت. بأية حال، عندما خمدت النار، أخرج الجيش من بين الأنقاض جثة محترقة بشدة لدرجة عدم تمكن أيّ كان من تحديد هويّتها، ولكنهم افترضوا أنه بوث. يبدو الآن كما لو أن بوث قد فرّ، فيما علق شريك له وسط النيران ولم يتمكن من الخروج في الوقت المحدَّد». وتوقف قليلاً ثم تابع: «طالما كان بوث متوتراً ذهنياً إلى حد كبير. ويبدو الآن أن فظاعة ما قام به، وفراره، والنار أدّت مجتمعة إلى انهياره العقلي. ما يثير اهتمامي هو تلقّيه_ كما يبدو_ العناية والحماية من منظمة من نوع ما؛ ومن الواضح أنها بحاجة إليه. لن يكون قائداً بعد اليوم، وخير دليل على ذلك ما قاله هذا الشاب. إذاً، ما الذي يمكن أن يقدّمه لهم سوى ذلك؟».

«إنه رئيس صُوَري». أشار مايكروفت. «وربما هو العضو الأكثر شهرة في التحالف، إضافةً إلى الجنرال لي وجيفرسن ديفيس. وإذا كان لا يزال هناك عدد ضئيل من مؤيّدي التحالف في أميركا، ولا يزال لديهم أدنى مصلحة في قلب الرئاسة الجديدة وتنصيب رئاسة أكثر تعاطفاً مع معتقداتهم، فسيكون

جون ويلكس بوث حينذاك رجلاً مثالياً لهم ليستخدموه لاستنهاض المناصرين. فكل ما يتعيّن عليهم القيام به هو إظهاره على قيد الحياة في عدد قليل من التجمعات السريّة، والتعبير عن مدى شجاعته لدى محاولته التغلّب على الاتحاد وإصابته بعدد من الطلقات النارية، وهكذا يمكنهم إثارة حشد من الناس».

«هذا ما كنت أخشاه». قال غروي، وأومأ برأسه. «لا أهمية لكونه مجنوناً؛ عليهم تخديره بما يكفي ليتمكن من الوقوف بثبات على منصة، ويمكنهم إلقاء كل أنواع الخُطَب عنه». وتوقف للحظات قبل أن يتابع: «ما موقف الحكومة البريطانية من كل ذلك؟».

«أستطيع الإعراب عن رأي الحكومة البريطانية». قال مايكروفت بحصافة، «ولكنني أُدرك أن وزارة الخارجية تؤيّد النظام الحالي، ولا ترغب في رؤية التحالف يظهر مجدداً. فالرِّق ممارسة مقيتة يجب قمعها. وأوّل ما سيقوم به رئيس منتمٍ إلى التحالف هو عكس الخطوات التي قام بها الرئيس لينكولن وخلَفه في هذا الشأن. ولا يمكن السماح بذلك».

فتنهد غروي. «سيعودون إلى الولايات المتحدة، أليس كذلك؟».

أومأ مايكروفت برأسه.

«إذاً، عليّ اللحاق بهم».

«باستطاعتنا إرسال برقية». عرض مايكروفت. «ستسبقهم عبر المحيط الأطلسي».

فهزّ غروي رأسه وقال: «لا نعرف السفينة التي سيكونون على متنها».

«يمكننا التحقق من البيانات بأسماء الركاب». قال مايكروفت. «صحيح أنه من المسلَّم به أنهم سيسافرون بأسماء مزيّفة، ولكن بإمكاننا البحث عن أربعة رجال يسافرون معاً، ومن الواضح أن أحدهم مريض».

«لن يسافروا معاً». بدا غروي واثقاً. «بل سيحجزون بشكل منفصل، وربما سيستعينون بخدمات ممرضة للاعتناء ببوث. لا، سنحاول اقتفاء أثر أربعة أشخاص أوصافهم مُبهَمة وأسماؤهم غير معروفة». وضرب فجأةً ذراع كرسيّه بقبضة يده المكوَّرة، جاعلاً شارلوك يقفز. «أنا متعقِّب، وعليّ تعقّبهم؛ الأمر بهذه البساطة. سأفترض أنهم متوجهون إلى نيويورك وسأبدأ من هناك».

«يمكنني المساعدة». قال شارلوك مفاجئاً غروي ومايكروفت، ومفاجئاً نفسه أيضاً. «أنا الوحيد الذي رآهم. يمكنني الذهاب إلى أحواض السفن ومراقبة من يصعد إلى متن السفن».

«نحن لا نعرف المكان الذي سيرحلون منه». أشار غروي.

«قد يكون ساوثمبتون، أو ليفربول، أو حتى كوينزتاون». أضاف مايكروفت بلطف. «ولا يمكن لفتى واحد تغطية ثلاثة مرافئ مهما كان بارعاً».

«ولكن...» استهلّ شارلوك كلامه ومن ثم تلكأ. فما أراد قوله هو إنه ليس باستطاعة غروي مغادرة إنكلترا لأن شارلوك قد بدأ للتوّ بفهم الدروس التي يلقّنه إيّاها، وإذا أراد المغادرة فلا يمكنه اصطحاب ابنته فرجينيا معه؛ فشارلوك يكنّ لها مشاعر لا يفهمها، ويريد أن يعرف ما ستؤول إليه تلك المشاعر، عِلماً أنها تُخيفه. ولكنه يعرف أن أيّاً من تلك الحجج لن يصمد في وجه مؤامرة غامضة_ ولكنها هامة كما يبدو_ موجَّهة ضد حكومة بلد بأكمله.

غير أن الأمر بدا له كما لو أن الحياة على وشك الانقلاب رأساً على عَقِب؛ مرةً أخرى.

الفصل الخامس

شرع مايكروفت وغروي بمناقشة جداول مواعيد السفن والموانئ التي تُنزل وتُصعد ركّاباً. فشعر شارلوك بالسأم بسرعة، وواصل عقله تقليب المشكلة محاولاً العثور على شيء ما يحول دون مغادرة أميوس وفرجينيا غروي إنكلترا.

«أنت لا تعرف مظهر كلّ من الرجال». أشار شارلوك بعد دقائق قليلة. «يمكنك تعقّبهم، ولكن كيف ستعرف أنك عثرتَ عليهم؟ فما داموا يُبقون الرجل ذا النُّدوب الناجمة عن الحريق بعيداً عن الأنظار، فسيكونون ثلاثة رجال فقط. لا شيء مميِّز في شأنهم باستثناء لهجتهم، وأفترض أنك عندما تصل إلى حوض سفن يحتوي على سفينة متوجهة إلى أميركا، فستكون هناك الكثير من اللهجات الأميركية حولك».

«باستطاعتك تزويدي بتفاصيل عن أشكالهم». أشار غروي. «فقد سبق لي أن درّبتك على البحث عن التفاصيل الصغيرة التي تميِّز وجهاً عن آخر؛ كالخط الكفافي للآذان، وحدّ الشَّعر، وشكل الأعين. حتى إنه يمكننا وضع رسوم تقريبية وفقاً لأوصافك؛ فلفرجينيا ضربة خفيفة بقلم الرصاص».

«لست واثقاً من أن هذا الأمر سيكون كافياً». قال مايكروفت مفكراً. «إذ يمكن أن يكون ما يذكره أحد الشهود _ حتى لو كان الشاهد دقيق الملاحظة كشقيقي _ مغلوطاً في غالب الأحيان ومتأثراً بالإجهاد. لقد أثار هذا الأمر اهتمامي منذ مدة طويلة؛ أعني كيفية ابتكار العقل البشري تفاصيل وإقناعه نفسه أنها حقيقية. أظن أن هناك العديد من الأبرياء في السجون البريطانية استناداً إلى ذكريات مشكوك فيها لشخص ما. فعلى سبيل المثال، عندما يُقال لك إنك تبحث عن رجل ملتحٍ، فإن كل من تشرع برؤيتهم هم الرجال الملتحون. لذا، أيّاً تكن الأمور التي يتذكرها شارلوك فهي تُعتبر غير دقيقة».

كان شارلوك على وشك الاعتراض لأنه يمتلك ذاكرة لا تشوبها أية شائبة، ولكن أمراً ما حال دون ذلك. فقد شعر بأن النقاش بدأ يميل لصالحه بعد إدراك مايكروفت وغروي أن المشكلة أكبر مما اعتقدا، ولم يشأ القيام بأي شيء قد يُفسد الأمر.

ولكن بينما كان قلبه يحثه على محاولة منع أميوس وفرجينيا غروي من المغادرة، كان عقله يقول له إن الأمر هام. فمايكروفت وغروي يبدوان جدّيَّين أكثر من أي وقت مضى. لم يكن واثقاً من فهمه التشعبات المحتمَلة

لما يحدث كما ينبغي_ فكيف يمكن لأربعة رجال، أحدهم مجنون بالتأكيد، التأثير في سياسة أمّة بأكملها!؟_ ولكنه فهم أن ما هو على المِحك هنا قلّل من أهمية مشاكله الثانوية. وإذا كان يستطيع المساعدة، فيُفترض به القيام بذلك بصرف النظر عن الكلفة المترتّبة عليه.

إنها فكرةٌ بالغٍ، ولم تُعجبه المعاني الضمنية.

«لقد رآهم ماتي أيضاً». قال فجأةً، وتبعت كلماتُه أفكارَه آنيّاً.

«ماذا تعني؟». سأل مايكروفت مُديراً رأسه نحوه.

«أعني أن ماتي رأى الرجل الذي سحبني إلى داخل المنزل _ الرجل الذي قد يكون جون ويلكس بوث _ وفي وقت لاحق، عندما أنقذني رأى على الأقل رجلَين من الرجال الثلاثة الآخرين. كان أحدهم فاقداً وعيه، ولم يحظَ أيٌّ منا بفرصة النظر إليه كما ينبغي. إذا كنت تريد وصفاً دقيقاً وتشعر بالقلق من مصداقية ذاكرتي، فلِمَ لا تُحضر ماتي إلى هنا إذاً؟ ومما سنرويه كلانا باستطاعتك الحصول على الأرجح على وصف يعوَّل عليه؛ لا سيما إذا سألتنا بشكل منفصل وليس معاً. وبهذه الطريقة، لن يؤثّر أيٌّ منا عَمداً في ما يقوله الآخر».

«للفتى وجهة نظر سليمة». صاح غروي وتابع: «رأسان أفضل من رأس واحد. ربما تمكنت من إرسال فرجينيا لإحضار الفتى، فهي تعرف مكان رسوّ مركبه». وأومأ برأسه لنفسه مؤكّداً. «إنّ رسْماً تقريبياً استناداً إلى ذاكرتَين يكون أقرب بكثير إلى الحقيقة من رسم تقريبي استناداً إلى ما يتذكّره شخص واحد».

حدّق مايكروفت بشارلوك على المستوى ذاته، ثم قال بهدوء: «أعتقد أنك لا تريد مغادرة أيٍّ من السيد غروي أو ابنته، ومع ذلك طرحتَ اقتراحاً يجعل ذهابهما أكثر احتمالاً. مما يعني أنك الآن تفكر كرجل وليس كفتى. أنا فخور بك يا شارلوك، وسيكون الوالد فخوراً بك أيضاً».

أشاح شارلوك بنظره كي لا يرى مايكروفت تلألؤ عينَيه المفاجئ.

غافلاً عن الحديث الجاري بين الشقيقَين، رفع غروي نفسه عن الكرسي الضيّق وتحرك بتثاقل في اتجاه باب المنزل، وصاح فاتحاً الباب: «يا جيني، أنا بحاجة إليك!». ووقف هناك للحظات حتى تأكد من أنها في طريقها إليه، ومن ثم عاد ووقف بجانب الكرسي.

ظهرت فرجينيا غروي عند مدخل الباب، وألقت نظرة سريعة على شارلوك وابتسمت. وكالعادة، صُدم باحمرار شعرها، وسُمرة بشرتها، والعدد القليل من النمش المتناثر على خدَّيها وأنفها، ودرجة اللون البنفسجية

لعينَيها. إنها تجعل الفتيات الأخريات يبدوْن كرسوم بالأسود والأبيض.

«أجل، يا والدي؟».

«لديّ مهمة لك. أريد منك أن تذهبي وتُحضري الفتى أرنت من مركبه. قولي له إنني بحاجة إلى طرح عدد قليل من الأسئلة عليه في شأن ما جرى اليوم. وقولي له إنه لا يواجه أي متاعب، ولكنني بحاجة إلى مساعدته».

فأومأت برأسها. «أتريد مني إحضاره ممتطياً ساندیا؟».

«سيكون الأمر أسرع بهذه الطريقة. وباستطاعة ساندیا حمل وزنَيكما معاً، فهو فتى صغير».

«ولكنه مشاكس». أضاف شارلوك.

«أوه، لا أشك في ذلك». قال غروي، ونظر إلى فرجينيا وتابع: «أَسرعي الآن».

ألقت فرجينيا نظرة سريعة ثانيةً على شارلوك كما لو أنها تريد قول شيء ما، وسؤاله ربما عما إذا كان يريد مرافقتها، ولكنها استدارت بعد ذلك وغادرت. وبعد لحظات قليلة، سمع شارلوك الصهيلَ العالي لحصانها وهو يرحّب بها، وصليل الرَّسَن، والصوت المتضائل للحوافر على الأرض الصلبة.

عاد غروي ومايكروفت إلى مناقشة سُبُل عبور المحيط الأطلسي بسرعة أكبر من سرعة الأميركيين الأربعة. وكان الأمر كما يبدو مرتبطاً بالسفينة التي يستقلّونها والميناء الذي يُبحرون منه؛ فبعض السفن أسرع من سواها. لقد فهم شارلوك من النقاش أن بعض السفن الأحدث عهداً لا تعتمد على الريح والأشرعة فقط لنقل المسافرين عبر البحار، بل تكون متمَّمة بمحركات بخارية قوية تسيِّر عجَلات ضخمة مماثلة لتلك المستخدَمة في الطواحين المائية، وعلى محيطها الدائري مِجذافات خشبية، وتسيّرها محركات بخارية؛ فتدور بعكس الاتجاه الذي تسلكه السفينة، دافعةً إيّاها حتى لو لم تكن هناك ريح. هل هناك أي مكان لا يستطيع المحرك البخاري الذهاب إليه؟ أو أية مشكلة لا يمكنه حلها؟ ما الذي سيلي ذلك؟ تساءل شارلوك؛ هل ستتخلّى العربات الخفيفة التي تُدفع باليد والعربات التي تجرّها الأحصنة عن آليات الدفع التقليدية وتعتمد على بخار يملأ الطرقات، وتنقل الناس من لندن إلى ليفربول في غضون ساعات قليلة، وربما إلى مسافة أبعد؟ هل سيتمكن الإنسان من بلوغ القمر ذات يوم بواسطة أداة ما يدفعها البخار؟

هازاً رأسه للتخلّص من هذه الأفكار التي لا تصدَّق، عاود الإصغاء إلى

مايكروفت وأميوس غروي وهما يناقشان شؤون السياسة والسفر والثورة.

وتَواصل الحديث، ووجد شارلوك نفسه متابعاً الحديث تارةً، ومبتعداً عنه طَوراً. كانت خلفية الحديث سياسية، وقام غروي من حين لآخر بالتطرق إلى السياسة مباشَرةً؛ طارحاً مثالاً عن عدد الأشخاص الذين ماتوا في مكان أو زمان معيّن، أو عن كيفية تحويل بلدة ما إلى أنقاض لإثبات وجهة نظر ليس إلا.

وفي النهاية، سمع شارلوك صوت حوافر مقتربة؛ كما لو أنه قرع طبل، فذهب إلى الباب مستعداً للترحيب بفرجينيا وماتي.

في الخارج، وفي ضوء المساء الباكر، رأى ساندیا _ حصان فرجينيا _ وهو يدنو من البيت. لا بد من أن تكون فرجينيا وماتي الشخصَين الداكنَين اللذين يمتطيانه. وللحظة من الزمن، شعر شارلوك بالغيرة من قُرب ماتي منها. غير أن هذا الشعور لم يَدُم سوى لحظة فقط.

ومع اقتراب ساندیا، تحوّلت الكتلة القاتمة على صهوته إلى شكل بشري واحد. إنها فرجينيا التي أوقفت ساندیا بجانب شارلوك. كانت عيناها غاضبتين، وشعرها متشابكاً بفعل الريح.

«أين ماتي؟». سأل شارلوك.

فقفزت عن صهوة الحصان، واندفعت أمامه راكضةً إلى داخل المنزل، فتبعها شارلوك.

«لقد أخذوا ماتي!». صاحت.

«ماذا تعنين؟!». قال مايكروفت ناهضاً من مكانه.

فأجابت على عجل: «وصلتُ إلى المركب الضيّق، وطلبت منه القدوم معي. وحين وصلنا إلى الطريق ووجدناها مقطوعة بشجرة. لم تكن هناك أثناء توجهي إلى مركب ماتي في البداية، أُقسم. فكرتُ في القفز فوقها، ولكن بوجود ماتي على صهوة ساندیا لم أكن واثقة من قدرة الحصان على القيام بالأمر؛ لذلك توقفتُ لأتمكن وماتي من إزاحة الشجرة. وفي تلك الأثناء، ركض رجلان من الغابة في اتجاهنا_ لا بد أنهما كانا مختبئَين بين الخمائل_ وضرب أحدهم ماتي على رأسه. لا بد أنه صرعه؛ فقد كفّ عن المقاومة. فيما توجّه الرجل الآخر نحوي، وحاول الإمساك بشعري، ولكنني عضضت يده، فتراجع. ركضت نحو ساندیا، وقفزتُ على صهوته، وانطلقتُ. وعندما نظرتُ إلى الوراء، كانا يحملان ماتي بعيداً». وبدا وجهها أبيض ومصدوماً. «لقد تركتُه هناك فحسب!». صاحت؛ كما لو أنها أدركت الآن ما حدث. «كان يُفترض بي البقاء وإنقاذه، أو العودة لأجله».

«لو قمتِ بذلك لَأخذاك أيضاً على الأرجح». أشار غروي، ثم انتقل إلى الناحية المقابلة من الغرفة بسرعة مُذهلة وغير معهودة بالنسبة إلى شخص ضخم البنية، وضمّها إليه بقوة. «شكراً لله على سلامتك».

«ولكن، ماتي!». صاح شارلوك.

«سنعيده». وعده مايكروفت، رافعاً جسمه الضخم عن كرسيّه. «من الواضح أن ...»

وقبل أن يتمكن من إتمام الجملة، سُمع صوت تحطم زجاج، وطار شيء ثقيل في الهواء عبر النافذة المحطَّمة وأحدث صوتاً مكتوماً لدى اصطدامه بالأرض، فركض غروي نحو الباب وفتحه. ومن الخارج، تمكّن شارلوك من سماع صوت حوافر على الأرض أثناء انطلاق شخص ما بأقصى سرعة على صهوة جواد. أطلق غروي الشتائم بطلاقة لسان، وكانت من بينها كلمات لم يسبق لشارلوك أن سمعها في حياته؛ عِلماً أنه أدرك معناها.

انحنى شارلوك لالتقاط الشيء الذي قُذف عبر النافذة، فوجد أنه حجر كبير بحجم قبضتَي يدَين مكورتَين ومجموعتَين معاً، وقد لُفّ حبل حوله لتثبيت قطعة ورقة ممزَّقة.

أخذ مايكروفت الحجر من بين يدَي شارلوك ووضعه على الطاولة، والتقط سكيناً وقطع الحبل بمهارة قائلاً لشارلوك من دون إدارة رأسه: «من الأفضل الحفاظ على العقدة؛ فقد تكشف لنا أمراً ما عن الرجل الذي ربطها. فللبحّارة على سبيل المثال مجموعة كاملة من العُقَد الغريبة التي يستخدمونها، ولم يعرف بها عامة الناس بعد. لو كنا نملك الوقت الكافي لأعطيتك درساً عن العُقَد».

محركاً الحبل إلى جانب واحد لتحليله في وقت لاحق كما يفترض، أبعد الورقة عن الحجر وملّسها على الطاولة، وقال لغروي:

«إنه تحذير. لدينا فتاك. كُفّ عن إزعاجنا، ولا تحاول اقتفاء أثرنا. إذا تركتَنا وشأننا فسيعود إليك بعد ثلاثة أشهر سليماً من أي أذى. أما إذا لم تدَعنا وشأننا فسيعود إليك مقطَّعاً في غضون بضعة أسابيع. وقد أُعذر من أَنذر».

كان غروي يضم فرجينيا بين ذراعَيه. «من الواضح أنهم يفترضون أن ماتي ابني؛ على الأرجح لأنهم رأوه مع جيني على الحصان نفسه. سيُدركون خطأهم قريباً عندما يسمعونه يتكلم».

«ليس بالضرورة». أشار مايكروفت. «فهم لا يعرفون كم مضى على

وجودك هنا في إنكلترا. في الواقع، إنهم على الأرجح لا يعرفون أيضاً أنك أميركي. أعتقد أن ماثيو الصغير سيكون بأمان في الوقت الحاضر. الآن، ماذا يمكننا أن نستنتج من الرسالة؟».

«انسَ أمر الرسالة، إذ يُفترض بنا ملاحقتهم!». صاح شارلوك.

«الفتى مُحِق». زمجر غروي. «هناك وقت للتحليل ووقت للعمل. والآن وقت العمل». وأبعد فرجينيا عنه بلطف. «ابقَي هنا. سألاحقهم».

«وأنا كذلك». قال شارلوك مصمماً. وعندما فتح غروي فمه ليجادله، أضاف: «ماتي صديقي، وأنا من ورّطه في هذا الأمر. وعلاوةً على ذلك، يمكن لاثنَين منا تغطية بُقعة مضاعَفة».

ألقى غروي نظرة سريعة على مايكروفت الذي لا بد من أن يكون قد أومأ برأسه بطريقة لا تُرى؛ لأن غروي سرعان ما قال: «حسناً أيها الفتى، امتطِ الحصان، سننطلق الآن».

وتوجّه غروي إلى الباب وتبعه شارلوك.

في الخارج، أسرج غروي حصاناً بسرعة، وبدأ بإسراج حصان ثانٍ لشارلوك. وعندما اعتلى شارلوك صهوة الحصان كان غروي قد انطلق.

لكز شارلوك بعَقِبَي قدمَيه على جنبَي الحصان، فعدا الحصان بسرعة.

كانت الشمس تميل في اتجاه الأُفُق تسترها سُحُب رقيقة، فبدت لشارلوك ككرة ضوء أحمر. كان غروي وحصانه ينطلقان بأقصى سرعة أمامه، فناضل شارلوك للّحاق بهما. جرى حصانه على الطريق بسرعة، وشعر شارلوك بذبذبة متواصلة من جراء ذلك؛ ممّا جعل التقاطه أنفاسه بشكل كامل أمراً صعباً.

كيف عرف غروي الاتجاه الذي ينبغي سلوكه؟! تساءل شارلوك في سره. لا بدّ أنه قد أجرى تقييماً سريعاً لتوقّع الطريق المؤدي إلى خارج فارنهام، والذي يحتمل أن يسلكه الخاطفان أكثر من سواه في حال توجّههم إلى الشاطئ. ستكون ساوثمبتون المكان المنطقي للانطلاق إذا كانوا مغادرين إلى أميركا. ولكن، قد يكون غروي مخطئاً، فربما يعتزم الرجال الإبحار من ليفربول بعد انطلاقهم من لندن عبر القطار، مما يعني مغادرتهم فارنهام في اتجاه مختلف كلّياً. للمرة الأولى، أدرك شارلوك أنه يمكن للتفكير المنطقي أن يذهب بعيداً من دون أن ينجم عنه جواب واحد؛ إلا نادراً. ففي غالب الأحيان، تنجم عن التفكير المنطقي عدة إجابات محتمَلة، وينبغي العثور على طريقة أخرى للاختيار من بينها. من الممكن تسمية ذلك الحَدْس أو التخمين، ولكنه ليس المنطق بالتأكيد.

كانت البيوت الريفية والمنازل تمرّ بسرعة كبيرة أمام ناظريه لدرجة عدم تمكنه من تمييزها. وبعيداً، تمكن شارلوك من رؤية مبنى حجري على تلة؛ إنه قصر فارنهام ربما. صفرت الريح قرب أُذُنَيه مجمّدةً إيّاهما؛ بالرغم من حرارة النهار التي امتصّتها الأرض. وظن شارلوك أن بإمكانه سماع صدى حوافر حصانه، ولكن الحوافر لم تكن تُصدر أي صدى. وحين ألقى نظرة سريعة من فوق كتفه، دُهش لدى رؤيته فرجينيا وراءه ورأسها على عُنُق ساندیا. أطلقت له ابتسامة عريضة، فبادلها الابتسامة. كان يُفترض به أن يعلم أن ابتعادها عن المغامرات أمر مستحيل. إنها مختلفة حقاً عن أية فتاة أخرى التقاها يوماً.

عبر الثلاثة قرية صغيرة تحتوي على بيوت ريفية متعنقدة، فتنحّى الناس عن طريقهم. وقد تمكن شارلوك من سماع أصوات مرتفعة وراءهم أثناء ابتعادهم. أمامهم، كانت الطريق فارغة. لكم من الوقت سيواصل غروي طريقه قبل أن يُقرّ بأنهم سلكوا الطريق الخاطئ؟!

أدركت فرجينيا شارلوك، وألقت نظرة جانبية سريعة بعينَين متّقدتَين ذكاء. ظن شارلوك أنها تستمتع بما تفعله؛ بالرغم من خطورة المهمة. فقد كانت تحب امتطاء الحصان، وقد سنحت لها الفرصة لامتطائه كما لم يسبق لها أن فعلت من قَبْل.

في الأمام، وقرب جسد أميوس غروي الضخم وقبّعته البيضاء الواسعة التي تمكنت من البقاء على رأسه بالرغم من سرعة انطلاقه، رأى شارلوك فجأةً عربة خَيل. كانت تتأرجح إلى الأمام والوراء أثناء انطلاقها بسرعة على الطريق، وقد ابتعدت عجَلات العربة عن الطريق للحظات قليلة قبل أن تعود إلى مسارها أثناء سلوكها المنعطف. فوقها، اعتقد شارلوك أنه رأى السوط وهو ينقر إلى الأمام أثناء قيام الحوذي بتوجيه الضربات للجياد كي تبذل جُهداً أكبر. هل ماتي في العربة؟ من الواضح أن الحوذي يبذل قُصارى جهده للانطلاق بأقصى سرعة. لو لم يكن الأميركيون في الداخل، إذاً هذه صُدفة غريبة جداً؛ وهي أن يكون هناك أشخاص آخرون يتلهّفون كثيراً لمغادرة فارنهام لدرجة استعدادهم للمخاطرة بحياتهم.

ضغط شارلوك على حصانه للانطلاق بسرعة أكبر، فأذعن. وشيئاً فشيئاً، ضاقت المسافة بين شارلوك وغروي، وتمكّن شارلوك من رؤية العربة بشكل أفضل؛ عربة بأربع عجلات يجرّها حصانان. وكانت النوابض ترتد إلى الأعلى والأسفل مع اصطدام العجَلات بأخاديد، وحُفَر، ونتوءات في الطريق.

تقدمت فرجينيا إلى الأمام تدريجياً لتصبح بمحاذاة كتف شارلوك

اليسرى، فألقى نظرة سريعة عليها ثانيةً. كانت أسنانها ظاهرة في ما بدا ابتسامة عريضة، ولكنه اشتبه في أن تكون تكشيرة أكثر من كونها ابتسامة.

ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى اليمين حيث والد فرجينيا. كانت نظرته المحدِّقة مثبَّتة على عربة الخَيل أمامه، وفي عينَيه قوة بركانية عظيمة؛ لدرجة أن شارلوك شعر بالخوف مؤقتاً. لطالما اعتقد شارلوك أن غروي سيد نبيل يعتبر المنطقَ وجمعَ الوقائع أكثر أهمية من أي أمر آخر. ولكن، سبق لفرجينيا أن أخبرته أن غروي كان في أميركا متعقّب رجال، وأنه كان يعيدهم أحياء في معظم الأحيان. ناظراً إلى غروي الآن، تمكن شارلوك من تصديق الأمر. فلا قوة على الأرض يمكنها إيقاف هذا الرجل مع هذه النظرة في عينَيه.

كان حصان غروي يُزبد من فمه بسبب الضغط عليه بشدة، وكانت الريح تحمل إلى الوراء، إلى البعيد، نُدَفاً صغيرة من الزَّبَد.

فجأة، انعطفت الطريق إلى اليمين، وسلكت العربة في الأمام المنعطف من دون إبطاء سرعتها، فخرجت العَجَلتان القائمتان على الجانب الخارجي للمنعطف عن الطريق، وبدت العربة ذاتها كما لو أنها ستنقلب. ولكن، لا بد أن يكون الرجال داخلها قد رموا بثقلهم في اتجاه اليسار لأنها ترنّحت بشكل جانبي، ونزلت العَجَلتان إلى الأرض.

سلك شارلوك وغروي وفرجينيا المنعطف أيضاً، ومالت أحصنتهم جانبياً لتتمكن حوافرها من التشبّث بالأرض جيداً. أمامهم، ومع استعادة الأحصنة وضعيّتها السابقة، رأى شارلوك فجأةً عربة تُدفع باليد ومحمَّلة بحُزَم من العشب المقطوع حديثاً تتوجّه نحو العربة المندفعة والتي يجرها الحصانان. أومأ الرجل الذي يدفع العربة بهياج لعربة الخَيل كي تبتعد عن طريقه، ولكنه علم كما يبدو أن الوقت يداهمه لأنه حَرَف عربته إلى خارج الطريق فسقطت في خندق، وهدرت عربة الخَيل بجانبها مُخطئةً الجانب الخلفي للعربة الخفيفة ببوصات قليلة. بعد لحظات، عدا شارلوك وغروي وفرجينيا بجانبها أيضاً، فألقى شارلوك نظرة جانبية سريعة عليها للتحقق من أن الرجل بخير، فوجده واقفاً أمام العربة، وهو يومئ لهم بغضب.

فجأة، لفتت حركة عند جانب عربة الخَيل انتباه شارلوك. فقد كان هناك رجل منحنٍ إلى الخارج وهو يحمل عصا من نوع ما. اعتقد شارلوك أنه أحد الرجال من منزل غودالمينغ، ولكنه لم يكن واثقاً من ذلك. صوّب الرجل العصا إلى الوراء في اتجاه الخيّالة الثلاثة، وفجأة انطلق لسان لهَب من آخر العصا. إنه يحمل بندقية!

لم يعرف شارلوك أين استقرت الرصاصة. فقد كانت العربة تقفز كثيراً، ولم يكن بإمكان رجل البندقية التسديد بدقة، ولكن ذلك لا يعني أنه لا يستطيع إصابة أحدهم أو أحد الأحصنة بالصُّدفة.

أطلق الرجل النار ثانيةً، وظن شارلوك هذه المرة أنه سمع صوت الرصاصة وهي تمرّ بجانبه؛ صوت أزيز قوياً كما لو أنه دبّور غاضب.

حثّ غروي حصانه على بذل مجهود أكبر، وبدا للحظات أنه يدنو من العربة. وكان يمسك الرَّسَن بإحدى يديه، فيما تشدّ الأخرى شيئاً ما من حزامه. بعد قليل، سحب مسدساً وصوّبه نحو الرجل المنحني خارج العربة وأطلق النار، فدفع الارتداد يده إلى الوراء، وانحرف جسده على السَّرج، فيما سحب رجل البندقية نفسه إلى داخل العربة. لم يعرف شارلوك إن كان قد أُصيب أو قام بذلك بدافع الحذر.

كانوا منطلقين بأقصى سرعة على امتداد جانب نهر، فيما الضوء الفضّي منعكس على صفحة الماء.

ظهر رجل البندقية مجدداً، منحنياً إلى الخارج على الجانب نفسه كما في السابق، ولكن وجهه هذه المرة إلى الأمام. سدّد بندقيته، ثم ضغط على الزِّناد. مرة أخرى، انطلق لسان لهب أشبه بزهرة غير عادية عند الغَسَق. وفي لحظة ارتباك، اعتقد شارلوك أنه يطلق النار على الحصانين اللذين يجرانّ العربة، ولكنه سرعان ما أدرك أن الرجل أطلق النار فوق رأسيهما! حينها، عرف شارلوك على الفور أنه يحاول ترويعهما للعَدو بسرعة أكبر؛ وقد نجح في ذلك كما يبدو، إذ اتسعت المسافة بسرعة بين العربة والجياد التي تلحق بها. لم يكن بإمكانهم مواصلة الانطلاق بهذه السرعة لفترة طويلة؛ إذ سيُنهك الجوادان نفسيهما. ولكن، من الواضح أنه يُعِدّ لأمر ما.

فقد توارى رجل البندقية داخل العربة ثانيةً؛ ولكن للحظات قليلة فقط، ثم فُتح باب العربة فجأةً، وهوى الرجل إلى الخارج. لقد وقّت سقوطه بشكل مثالي، إذ اصطدم بكتلة من القصب والنباتات القائمة على امتداد ضفة النهر، وتوارى عن الأنظار. ولكن شارلوك تمكن من تتبّع أثره داخل الفجوة الطويلة التي ظهرت في القصب الذي أبطأ تقدّمه.

أبطأ غروي من سرعة حصانه للحظات؛ غير واثق مما يجدر به فعله، ومن ثم حثّه على مواصلة التقدم، ملاحقاً العربة بدلاً من الرجل. ولكن شارلوك شاهد الرجل وهو يخرج من بين القصب مبللاً، وعلى امتداد وجهه جراح بليغة تسبّب بها القصب.

كان يحمل بندقية بيدَيه، ورفعها عالياً مع دنوّ غروي منه، وسدّد

بعناية على امتداد الماسورة، وأطلق النار.

وفي لحظة خروج لسان اللهب من الماسورة، رفع غروي ذراعَيه أمام وجهه، ووقع إلى الوراء بعيداً عن السَّرج. لقد اصطدمت كتفه اليمنى بالطريق أولاً، وتدحرج مراراً وتكراراً على التراب حتى استقرّ من دون حراك كجِذع شجرة مكسوّ بالغبار. بينما واصل حصانه العَدو، ولكنه أبطأ خطاه تدريجياً إلى أن صار يخبو بسبب عدم قيام غروي بحثّه، ليتوقف أخيراً. وقف الحصان مكانه، مراقباً كما يبدو العربة وهي تصغر شيئاً فشيئاً في البعيد، ومتسائلاً عن سبب تلك العجلة التي كانت مفروضة عليه.

زعقت فرجينيا: «يا والدي!» أثناء إيقافها حصانها بطريقة انزلاقية ورمْيها نفسها خارج السَّرج. ثم ركضت على الطريق بسرعة في اتجاهه، غير آبهة برجل البندقية الذي كان يراقبها وهي تدنو.

ورفع الرجل بندقيته مجدداً.

حدث كل ذلك في غضون ثوانٍ قليلة، فضغط شارلوك على جنبَي حصانه بعقبَي قدمَيه، واندفع الحصان إلى الأمام بسرعة.

«انخفضي!». صاح شارلوك مخاطباً فرجينيا.

ألقت فرجينيا نظرة سريعة من فوق كتفها، ورأته وهو ينقضّ عليها، فانحنت نحو الأسفل. في تلك الأثناء، شد شارلوك الرَّسَن، فقفز حصانه فوقها كما لو أنه يُبحر في الهواء بصرف النظر عن جاذبية الأرض.

اصطدم حافرا الحصان الأماميان بالأرض بقوة أثناء إطلاق رَجل البندقية النار مجدداً. لم يسمع شارلوك صوت الطلق الناري، فقد قُذف به من السَّرج إلى رأس الحصان، ليطير لاحقاً في الهواء. بدا الزمن ممتدّاً إلى ما لا نهاية، ووجد شارلوك نفسه يتساءل عما إذا كان سيحطم جمجمته أو يكسر ساقَيه أولاً. لقد جعله شيء ما يتكوّر على شكل كرة، داسّاً رأسه على صدره ولافّاً ذراعَيه حوله أثناء رفعه ركبتَيه إلى معِدته. وقع على الأرض وتدحرج، شاعراً بالحجارة تمزّق لحمه تحت ضلوعه، وظهره، وساقَيه. وومض العالم من حوله مراراً وتكراراً؛ ظُلمة، نور، ظُلمة... وبعد ذلك، فقد الصِّلة بمكان وجوده.

بعد مدة خُيِّل إليه أنها طويلة توقف. رفع رأسه بحذر، وحاول اكتشاف المكان الذي وصل إليه. كان كل شيء مشوَّشاً، وشعر بأن جزءاً منه لا يزال يتدحرج مراراً وتكراراً؛ بالرغم من أن شعوره بالحجارة تحت يدَيه وركبتَيه أنبأه أنه ثابت في مكانه. انقبضت معدته، وتعيّن عليه منع نفسه من التقيّؤ. كان يشعر بألم شديد في كل جسده بسبب الخدوش.

في البعيد، كانت عربة الخَيل التي احتُجز فيها ماتي كسجين تختفي وسط سحابة من الغبار.

وقع عليه ظل، فرفع نظره. كان رجل البندقية واقفاً فوقه. لم يكن شارلوك واثقاً، ولكن بدا له أنه الرجل الذي صرعه المجنون جون ويلكس بوث، ويدعوه الرجلان الآخران غيلفيلان. كان مضمَّد الرأس، وكانت عيناه مليئتَين بالكراهيّة والحقد.

«ما أمركما أيها الصغيران؟». سأل رافعاً البندقية. «أُقسم إننا عانينا من المتاعب بسببكما في اليوم الماضي أكثر مما عانيناه من جيش الاتحاد برمّته منذ نهاية الحرب!».

«أَعِد لي صديقي». قال شارلوك بحدة واقفاً على قدمَيه.

«هذا كلام قويّ من قِبل شخص لن يكون حيّاً بعد دقيقة». قال الرجل مبتسماً بقسوة. «أخذنا الفتى لنمنعك ونمنع ذلك الرجل في الكوخ الأبيض من ملاحقتنا، ولكنني أعتقد أن الأمر لم ينجح بخلاف توقعاتنا. لذلك، سأقتلك الآن، وسأُبرِق لإيف كي يقتله لأننا لم نَعُد بحاجة إليه». ثم رفع إصبعه عن الزِّناد، وكشف لشارلوك عن ظاهر يده. كانت هناك دماء عليها، وما بدا أنها آثار أسنان في اللحم الطريّ بين أسفل الإبهام والسبابة. «تلك الفتاة عضتني!». اعترض غير مصدِّق.

«أجل». قال شارلوك مؤكداً، ثم تابع: «أراهن أنك تتلقى معاملة شبيهة بهذه كثيراً». وأظهر يده التي كان يخفيها وراء ظهره، ورمى قطعة الحجر التي التقطها عن الأرض نحو الرجل. طارت قطعة الحجر في الهواء، ثم اصطدمت بخدّ غيلفيلان وجبينه وعينه اليسرى، فرفع يدَيه إلى وجهه ليحميه مُفلِتاً البندقية. ارتدّت البندقية على الأرض قبل أن يندفع شارلوك إلى الأمام لالتقاطها، ولكن الرجل ركلها بعيداً. أمسك غيلفيلان شعر شارلوك بيده وفتَله، فصاح شارلوك تعبيراً عن الغضب والألم في آن واحد، وانهال على غيلفيلان راكلاً إياه بقدمه؛ فأصابت ذَقن هذا الأخير. فجأةً، تحرر شارلوك من القبضة الشديدة الممسكة بشعره، فاندفع إلى الوراء باحثاً عن البندقية، ورآها هو والأميركي في الوقت نفسه، واندفعا معاً في اتجاهها. وصل شارلوك إليها أولاً، فأمسك بالمقبض بإحكام، وتدحرج بعيداً أثناء تفوّه الرجل بالشتائم.

لقد وقفا هناك للحظات متنفّسَين بصعوبة، ثم مسح الرجل فمه بظاهر يده، وقال له:

«أنت لا تملك الشجاعة لتطلق النار علي. سآتي لأحصل على تلك

البندقية، وسألفّها على عُنُقك وأسحب الحياة من جسدك الهزيل!».

وخطا إلى الأمام، فرفع شارلوك البندقية بطريقة تهديدية قائلاً له: «أنصحك بألا تقترب».

ولكن الرجل واصل تقدمه، وتجهّم وجهه، ومدّ يدَيه إلى الأمام في اتجاه شارلوك.

الفصل السادس

مُدركاً عدم وجود خيار آخر لديه، صوّب شارلوك البندقية نحو صدر الرجل وضغط على الزِّناد، مستعدّاً لتلقّي الارتداد الناجم عن إطلاق النار.

ولكن، لم يحدث أي شيء؛ فقد أخفقت البندقية في إطلاق النار.

عندها، أطلق غيلفيلان ابتسامة عريضة منتصرة وقال. «يجب معاملة البنادق القديمة بالطريقة المناسبة. إذ يمكن لأصغر الأشياء إيقافها عن العمل». ومدّ يده إلى داخل جَيب سِرواله وأخرج شيئاً ما صغيراً وقاتماً. ثم نفض يده، فظهر فجأةً نَصْل متقوِّس بشدّة. «البندقية ليست كالسكين، فقد اكتشفتُ أن السكاكين تعمل في معظم الظروف. صحيح أنها أبطأ من البندقية، ولكنها أكثر متعة».

ثم خطا إلى الأمام، ووجّه ضربات جانبية بالسكين مستهدفاً عينَي شارلوك. فترنّح الفتى إلى الوراء، شاعراً بالنسيم البارد الذي نجم عن ملامسة النَّصْل أهداب جفونه. ورسمت أشعة الشمس المنخفضة التي عكسها الرأس المستدق للنَّصْل خطاً أحمر على شبكيّتي شارلوك دام حتى عندما ابتعد السكين.

خطا غيلفيلان إلى الأمام مجدداً، رافعاً السكين إلى الأعلى، ومحاولاً إغماده في معدة شارلوك، ولكن شارلوك صدّه بِمقبض البندقية. ودفعه الاصطدام الناجم عن التقاء نصل السكين بمقبض البندقية إلى الوراء، فيما قال غيلفيلان بحدّة:

«لقد عيل صبري. لن أعاملك كنَدّ بعد الآن، بل سأذبحك كالماشية».

ومدّ يده وأمسك أُذُن شارلوك قبل أن يتمكن الفتى من الفرار، وسحبه في اتجاهه أثناء رفعه السكين إلى حَلْقه. ومن دون أدنى تفكير، وضع شارلوك البندقية بينهما محاولاً إعاقة النَّصْل. ولكن، مع مرور الماسورة بجانب وجهه، تبادرت فكرة إلى ذهنه فجأةً، فأقحم رأس الماسورة في عين غيلفيلان اليمنى.

زعق الأميركي وترنّح إلى الوراء واضعاً يده على وجهه، فيما تدفّقت الدماء من بين أصابعه، فتوقّع شارلوك سقوطه أرضاً نتيجة الألم. ولكن العين السليمة ثُبّتت على شارلوك مجدداً، وأطلق غيلفيلان صيحة غضب بَحْت ثانيةً، فتردد صداها عبر الغابة متسبباً بطيران الحمائم عن الأشجار. مترنّحاً إلى الأمام، مدّ غيلفيلان السكين محاولاً الوصول إلى شارلوك. عندها، لوّح شارلوك بالبندقية في اتجاه رأس الأميركي مدافعاً عن نفسه، فاصطدمت

بالضّمادة، وشعر شارلوك بقوّة الضربة، وسرعان ما وقع الأميركي على الأرض ككيس ذُرة.

راقبه شارلوك للحظات قليلة، متوقعاً جزئياً أن يقف مجدداً على قدمَيه ويحاول مهاجمته ثانيةً، ولكن غيلفيلان ظل مدداً هناك بلا حراك باستثناء الارتفاع والانخفاض غير الطبيعيين لصدره. وباتت عينه اليمنى_ كما لاحظ شارلوك_ تجويفاً من لحم أحمر، فيما تسرّب الدم عبر الضمادة الملفوفة على رأسه، والتي كانت تندفع إلى الأعلى مع انتفاخ اللحم تحتها.

كان الرجل أشبه بقوة خارقة للطبيعة؛ فهو لا يتأثر بالألم والإصابات على غرار الإنسان العادي. شعر شارلوك بأنفاسه تحترق في صدره أثناء انتظاره نضال غيلفيلان من أجل الوقوف على قدمَيه. هل كل الأميركيين على هذا النحو؟! هل للأمر علاقة بالحِذق والنباهة اللذين سمع عنهما؟ لقد أراد جزء منه التقدم وتوجيه ضربات متكررة إلى رأس الرجل ليحرص على عدم تحركه مجدداً، ولكنه لم يكن واثقاً تماماً مما إذا كان ذلك الجزء من دماغه قلقاً من استعادة غيلفيلان وعيه أو يريد فحسب الثأر مما فعله الرجل بأميوس غروي وحاول القيام به معه. وبعد فترة وجيزة، أنزل شارلوك البندقية. فهو ليس قاتلاً؛ إنه لا يقتل عَمداً بأية حال.

وعندما وثق تماماً من عدم تمكن غيلفيلان من التحرك لبعض الوقت، ارتدّ إلى الوراء مواصلاً مراقبته، حتى تمكن من سماع صهيل حصان أميوس غروي وراءه، فاستدار.

كان أميوس غروي ممدّداً على الطريق الترابية. وفي ضوء المساء المائل إلى الحُمرة، بدا الدم على جبينه متوهّجاً إلى حد ما بقوة شريرة.

«هل هو...؟» استهلّ شارلوك كلامه، ولكنه لم يتمكن من حَمل نفسه على إتمام السؤال.

«ما زال يتنفس». أجابت فرجينيا لاهثة؛ وقد باتت لهجتها أكثر وضوحاً.

ثم مدّت يدها إلى جَيبها وأخرجت مِنديلاً كتانياً، وكانت على وشك استخدامه لمسح جبين والدها حين أخذه شارلوك منها قائلاً:

«سأبلّله في النهر».

فأومأت برأسها امتناناً.

اندفع شارلوك مُسرعاً في اتجاه المكان الذي أحدث فيه الأميركي درباً عبر نبات القصب بواسطة جسده؛ قبل أن يخرج ويطلق النار على أميوس غروي. دانياً من النهر لأقرب مسافة ممكنة من دون الوقوع فيه، بلّل

شارلوك المِنديل، ومن ثم عاد إلى حيث يتمدّد أميوس غروي. كانت فرجينيا قد قوّمت ذراعَيه وساقَيه ليكون ممدَّداً بشكل طبيعي وليس ملتوياً كما كان عندما سقط. وأثناء انحناء شارلوك للانضمام إليها، لاحظ أن صدر غروي يرتفع وينخفض، وأجفانه تخفق. لقد بدا أن وقتاً طويلاً قد مضى منذ وقوع غروي عن حصانه، ولكن شارلوك كان واثقاً من أن ثواني قليلة فقط قد مرّت على سقوطه، وأقل من دقيقة على الأكثر. لم تكن المعركة مع غيلفيلان طويلة، وإنما كانت شرسة؛ مما جعلها تبدو طويلة.

كانت فرجينيا تمرّر يدَيها على ذراعَي والدها وساقَيه إلى الأعلى والأسفل، ثم قالت: «لا كسور في العظام كما يبدو لي. لا أعرف حقيقة الوضع بشأن ضلوعه؛ عِلماً أنني سأكون مندهشة إذا لم يكسر اثنَين منها. ولديه عدد كبير من الجراح والكشوط كما أرى».

«لقد حالفه الحظ». أجاب شارلوك. «ففي هذا المكان القريب من النهر، تكون الأرض طريّة وموحِلة. ولو سقط عن صهوة حصانه باكراً حيث الأرض صلبة وجافّة لَلقي مصرعه ربما».

تناولت فرجينيا المِنديل منه، ومرّرته على جبين غروي، ومن ثم رفعته مضرَّجاً بالدماء، كاشفةً عن كشط طويل سرعان ما أخذ ينزف مجدداً.

«القليل من الحظ أيضاً. إذ إن بوصات قليلة فقط إلى اليسار تفصل بين الجرح وصُدغه». أخذ شارلوك نفَساً عميقاً، وحاول منع يدَيه من الارتجاف. «ينبغي لنا العثور على طبيب».

فهزت فرجينيا رأسها. «علينا إعادته إلى المنزل، وباستطاعتي الاعتناء به هناك. فما دامت عظامه سليمة، فإن الراحة هي كل ما يحتاج إليه». وتنهّدتْ. «أشعر أنه مرّ بظروف أسوأ ونجا». وألقت نظرة سريعة على شارلوك، ثم أشاحت بنظرها بعيداً عنه، وبعد ذلك نظرت إليه مجدداً ملاحظةً كَدْماته وخدوشه وجراحه ورضوضه المتنوعة، وسألته: «هل أنت بخير؟».

فأجابها: «مررت بظروف أسوأ أثناء لعب الرُّكْبي».

عبستْ وهزت رأسها.

«إنها لعبة لا أحبها ولا أُجيدها. المهم في الموضوع أنني سأكون بخير».

«هل نلتَ منه؟». سألت بغضب.

«لقد أَوقفتُه». أجاب شارلوك، «ولكنني أعتقد أن والدك وشقيقي سيرغبان في التحدث إليه، ولذلك لم أُلحق به الكثير من الأذى؛ عِلماً أنه

كان باستطاعتي القيام بذلك».

«ربما كان يُفترض بك ذلك». قالت بكآبة.

مفكراً في إصابات الرأس، سأل شارلوك: «ماذا عن الارتجاج؟ لقد آذت الرصاصة رأس والدك، وربما يكون قد اصطدم بشيء ما أيضاً».

حدّقت به فرجينيا، وكانت تعابير وجهها ثابتة وغاضبة في آن معاً، ولكن عينَيها توحيان بقصة مختلفة؛ كانت يائسة.

«سيتوجب علينا مراقبته، والبحث عن أعراض تشير إلى حصول ارتجاج في الدماغ؛ كالدُوار، والمرَض، والغثَيان، والارتباك».

«لقد عانيتُ منها كلّها في الماضي». قال غروي بوهَن، ولكن بشكل مميّز. «لا يمكنني القول إنني استمتعت بها كثيراً، ولكنني حينها كنت مسؤولاً عن إلحاقي الأذى بنفسي. أما هذه المرة، فلم يكن الخطأ خطئي».

«والدي!».

مُغمَضَ العينَين، مدّ غروي يده وربّت على كتفها بصعوبة. «تدحرجتُ عندما اصطدمتُ بالأرض. إنها تقنيّة علّمني إيّاها متبارٍ بالروديو في ألبوكيرك. فإذا أرخى الجسد كل عضلاته وتدحرج كالشَيهَم [5] ، فقد ينجو على الأرجح من سقطة أسوأ من تلك». وألقى نظرة سريعة على شارلوك قبل أن يتابع: «أرى أنك اكتشفتَ الأمر نفسه». وصمت قليلاً مُغمِضاً عينَيه مؤقتاً، ومتنفساً ببطء. «ماذا حدث للعربة؟».

أجاب شارلوك بغضب: «لقد فرّوا ومعهم ماتي».

«وماذا بشأن الرجل الذي تخلّف عنهم وأطلق النار عليّ؟».

«إنه حيّ، ولكنه فاقد الوعي. يمكننا اصطحابه معنا واستجوابه؛ كما أفترض».

«أجل». قال غروي بكآبة، «أفترض أن باستطاعتنا القيام بذلك».

ففكر شارلوك للحظات، ثم قال: «يمكنني أن أوثقه. بعد ذلك، يمكننا وضعه على حصاني. إذا كنت تستطيع امتطاء جوادك، فباستطاعة فرجينيا امتطاء ساندیا، أما انا فسأسير».

«علينا التحرك بسرعة». قالت فرجينيا وقد احمر وجهها لسبب ما، ثم تابعت من دون أن تنظر إلى شارلوك: «السير يتطلب وقتاً طويلاً، لذا يمكنك الركوب ورائي».

«هل أنت واثقة؟». سأل شارلوك.

«لا تَقبل هديةً لستَ راضياً عنها». قال غروي ضاحكاً في سرّه. «الأفكار جيدة، ولكن ماذا ستستعمل لتقييد الرجل؟».

فكر شارلوك للحظات. لم تكن لديهم أية حبال. باستطاعته استخدام رَسَن حصانه كما افترض، ولكن كيف سيتمكنون من توجيه الحصان عندما ينطلقون؟ هل باستطاعته إعداد أحزمة من القصب على ضفة النهر؟ إنه مبلَّل جداً، ويتطلب الأمر وقتاً طويلاً. «بواسطة حزامي». قال أخيراً. «يمكنني تقييد يدَيه وراء ظهره بواسطة حزامي».

فأومأ غروي برأسه وقال: «يبدو لي هذا جيداً. أو يمكنك استخدام خيط مَصيص من جيبي». وألقى نظرة سريعة على شارلوك، ثم تابع: «هناك بعض الأشياء التي يُفترض بالمرء اصطحابها معه أثناء السفر مثل السكين، وعيدان الثقاب، وبَكرة من خيوط القنب. هناك الكثير من الأمور التي يمكن القيام بها بواسطة سكين، وعيدان ثِقاب، وخيوط قنب».

أخذ شارلوك خيط القنب من غروي، وعاد بتردد على الطريق إلى حيث كان غيلفيلان لا يزال مُلقى. كان الظلام قد حلّ تقريباً، وفي لحظة مروِّعة لم يتمكن شارلوك من تحديد مكان الرجل في الظلال، ولكنه أخيراً عثر على المكان حيث كان ممدَّداً. أوثق يدَي الرجل، المِعصم فوق المِعصم، ومن ثم تركه وعاد إلى حيث يقوم حصانه بقضم العشب قرب جانب الطريق كما لو أن هذا النوع من الأمور يحدث كل يوم. واقتاد الحصان، وأوقفه بجانب غيلفيلان، ثم انحنى محاولاً رفع الرجل وإلقاءه على الحصان. وتمكن في النهاية من وضع الأميركي على ركبتَيه وهو لا يزال فاقد الوعي، ومن ثم انسلّ تحت الرجل أثناء هبوطه إلى الأمام، جاعلاً ظهره يتحمّل الثِّقل. وبعد ذلك، قوّم وضعته دافعاً بركبتَيه، وشاعراً بعضلاته تقاوم أثناء وقوفه وقد أحنى رأسه إلى الأمام، وجسد غيلفيلان في توازن غير مستقر على كتفَيه. وفي لحظة من الزمن ذُعر، وكان غير واثق من كيفية وضعه على حصانه، ولكن فرجينيا قدمت لمساعدته بعد تمكن أميوس غروي من الوقوف على قدمَيه. مادَّين يد المساعدة لأحدهما الآخر، تمكّنا معاً من وضع غيلفيلان على سَرج حصان شارلوك غير المتذمّر. ولمنعه من الانزلاق عن صهوة الحصان، أوثق شارلوك مِعصمَي غيلفيلان بالرِّكاب [6] من جهة، وكاحلَيه بالرِّكاب الآخر من الجهة الأخرى. مُنهياً عمله، عاد شارلوك إلى الوراء للتأمل بعمله اليدوي.

قالت فرجينيا الواقفة بجانبه: «كنت أعتزم أن أسأل عن الاسم الذي أطلقتَه على حصانك في نهاية المطاف؟».

«لم أُطلق عليه أي اسم». أجاب شارلوك.

فبدت متفاجئة. «لِمَ لا؟».

«لم أتمكن يوماً من فهم الجدوى من ذلك. إذ لا تعرف الأحصنة أن لديها أسماء».

«ساندیا تعرف اسمها».

«لا، هي تعرف صدى صوتك. وأنا أشك في فهمها للكلمات».

قالت بطريقة انتقادية: «بالنسبة إلى فتى يعرف الكثير، من المؤكد أنك لا تعرف الكثير».

كان أربعتهم يشكلون مجموعة يؤسَف لها أثناء عودتهم إلى منزل أميوس غروي؛ فقد هبط غروي إلى الأمام على حصانه، فيما جلست فرجينيا على صهوة ساندیا وشارلوك وراءها ملتصقاً بها، وحصانه يسير في الخلف حاملاً غيلفيلان. بدت رحلة العودة لا متناهية. وكان الإرهاق يُلقي بثقله على شارلوك كبطانية ثقيلة، فيما شعر بالرغبة في حك خدوشه، وكل ما أراد القيام به هو دخول السرير والنوم لأكبر عدد ممكن من الساعات.

كان الليل قد حلّ عندما وصلوا، وكان مايكروفت واقفاً عند المدخل بانتظارهم. وما إن رآهم حتى نادى:

«شارلوك! كنت...» وصمت عن الكلام، وبدا صوته لشارلوك ذا طبقة أعلى من المعتاد؛ كما لو أن أحاسيس كثيرة تختلج في صدره.

«كل شيء بخير». قال شارلوك بتعَب. «نحن بخير. أعني، أُطلقت النار على السيد غروي، ولدينا سجين، ولم نتمكن من استعادة ماتي، ولكننا جميعاً لا نزال على قَيد الحياة».

«لم يكن هناك سبيل لمعرفة ما حدث». قال مايكروفت أثناء انزلاق شارلوك عن ظهر ساندیا. «لقد كانت لديّ عدة وسائل للتحرك، ولكنني لم أكن واثقاً من الطريقة الفضلى».

«ألم يكن يُفترض بك أن تكون على متن قطارك الآن؟». سأل شارلوك.

فهز مايكروفت كتفَيه. «عند الضرورة، يمكنني العثور على فندق مريح لأقضي فيه الليلة».

«ولكن، ألن ينزعج رؤساؤك عندما تتخلّف عن العمل غداً؟».

فتجهّم وجه مايكروفت كما لو أن مفهوم الرئيس غريب، ثم أجاب: «أجل. أفترض ذلك». وبعد ذلك أشرق وجهه. «عِلماً أن ما يحدث هنا قد يكون له أثر مباشَر على العلاقات الدولية، ولهذا فهو في مجال عملي. ولكن، عند الضرورة، باستطاعتي على الدوام استئجار قطار خاص ليعيدني إلى لندن في الليل».

فحدّق شارلوك به بعينَين جاحظتَين، وسأله متعجباً: «ماذا باستطاعتك

أن تفعل؟!».

«لم أُضطر إلى القيام بذلك حتى الآن، ولكنني أعتقد أن صلاحياتي تسمح لي ببعض الامتيازات من حين لآخر. الآن، أخبرني بكل شيء».

أثناء قيام شارلوك وفرجينيا بمساعدة أميوس غروي على النزول عن حصانه، ودخول الأربعة المنزل، تاركين الأميركي فاقد الوعي وموثَقاً بحصان شارلوك، أخبر شارلوك شقيقه بأحداث الليلة منذ مغادرتهم المنزل، وأضافت فرجينيا بعض التفاصيل التي أغفلها. وعندما تحدّث عن القتال الذي دار بينه وبين الأميركي، شعر بيد فرجينيا على ذراعه بدافع القلق. لقد جفل مايكروفت من مدى دُنوّ شارلوك من الموت في عدة مناسبات.

«إن أفضل طريقة للتحرك غير واضحة». قال مايكروفت أخيراً عندما استقرّوا جميعاً على الكراسي مع كؤوس من الشراب أمامهم. «فإلى أن يستيقظ سجينك، يبدو أننا استغللنا كل معلومة لدينا. الوقت والموارد ليست بجانبنا».

قال غروي بهدوء: «يمكنني إيقاظه، وإجراء حديث هادئ معه عندئذٍ، حديث متحضّر مثلاً».

«الاستجواب بالقوة ليس مقبولاً». قال مايكروفت بطريقة تحذيرية. «قد يكون الرجل مجرماً في بلدَين على الأقل، ولكنه يملك حق تلقّي معاملة حضارية حتى يُدان بجريمة. وفي ذلك الحين أيضاً، لا يمكن معاملته بقسوة بأمر من أي شخص في السلطة. إذ نظراً إلى كون بريطانيا وأميركا من البلدان الأقدم عهداً والأكثر تحضّراً، يتوجب عليهما أن يكونا مثالاً يُحتذى لبقية العالم. وإذا تصرّفنا بطريقة بربرية، فسنفقد عندئذٍ كل حق بمنع الآخرين من التصرف ببربرية، وسينزلق العالم إلى الفوضى».

«حتى إن كان التهذيب سيؤدي إلى تعرّض أحدهم للخطر أو للموت! أيُفترض بنا حماية المُذنب من الأذى في هذه الحالة أيضاً؟». سأل غروي.

«حتى في هذه الحالة علينا إيلاء الأخلاق أهمية كبيرة؛ أيّاً يكن السبب الذي قد يدفعنا للتهوّر في وديان الشرّ».

«لديّ فكرة». قال شارلوك مفاجئاً نفسه. فقد كان هناك شيء ما يتقلّب في ذهنه كقطعة رُخام على صينية من الصَّفيح، ولكنه لم يكتشف بعد كل المعاني الضمنية لذلك.

قال مايكروفت: «إذا كان الأمر سيحول دون قيام السيد غروي بسحب أظافر سجيننا بواسطة زرَديّة [7] ، فأنا موافق».

«ذلك الرجل _ الأميركي _ قفز من عربة الخيل لإيقافنا عندما بدا

له أننا قد نمنع العربة من إيصالهم إلى أحواض السفن والانتقال إلى خارج بريطانيا».

«صحيح». زمجر غروي.

«انطلاقاً مما قاله لي، كان مستعداً لإرسال برقية إلى الآخرين لإبلاغهم بنجاحه أو فشله».

«الأمر مقبول». قال مايكروفت.

تابع شارلوك: «وإذا لم يرسل برقية، ولم يكن هناك شخص بانتظارهم عندما يبلغون نهاية الرحلة، فسيفترضون أننا تغلّبنا عليه. وسيفترضون أننا جعلناه غير قادر على إرسال البرقية، وأننا لا نزال نطاردهم. وفي هذه الحالة، يتمثل أفضل خيار لهم بقتل ماتي لأنه لم يَعُد مفيداً لهم كرهينة».

«أوه لا!». همست فرجينيا.

«إذاً، من أي مكان أراد إرسال البرقية؟». تابع شارلوك. «أعني، لا يبدو الأمر كما لو أن الآخرين سينزلون في فندق إلى أن يصل، فقد كانوا متوجهين إلى السفينة مباشَرةً كما أعلم».

فنظر غروي ومايكروفت أحدهما إلى الآخر.

«للفتى وجهة نظر سليمة». قال غروي بعد لحظات قليلة. «فهم سيكونون بحاجة إلى طريقة ما لإرسال برقية وتلقّيها. ربما هناك مكانٌ متفَق عليه قرب السفينة؛ كمركز بريد محلّي أو ما شابه، حيث يتم استلام أية رسالة توجَّه».

«كان عليهم الاتفاق في شأنه في الثواني الأخيرة قبل قفزه من عربة الخَيل. إذاً ما هي فرص تذكّره إياه في تلك الأجواء الضاغطة...».

«ما لم يقم أحد الآخرين بتدوين المعلومات له». أنهى مايكروفت جملة شارلوك وأردف: «يا شارلوك، لديك عقل ممتاز على هاتين الكتفَين. علينا البحث في جيوب ذلك الرجل عن عنوان».

رفع غروي نفسه عن الكرسي وقال: «سأذهب». وعندما رمقه مايكروفت بنظرة منبِّهة، أضاف: «لا تقلق. لن أحاول إيقاظه إذا كان فاقد الوعي، وإذا كان مستيقظاً فإن كل ما سأقوم به هو طرح سؤال مهذب عليه قبل التنقيب في جيوبه». ورفع حاجبه بطريقة استفسارية. «أعتبر أن السرقة مقبولة حتى لو كان الاستجواب تحت الضغط غير مقبول، أليس كذلك؟».

«سيكون الأمر استثناء في هذه الحالة». قال مايكروفت بهدوء.

وحين خرج أميوس غروي لتفتيش غيلفيلان، لاحظ شارلوك مراقبة

فرجينيا لوالدها أثناء مغادرته وعلى وجهها تعابير مضطربة. أراد أن يسألها عن الأمر، ولكن مايكروفت أومأ له بيده.

«شارلوك...» قال بهدوء، ومن ثم تردد قبل أن يتابع: «شارلوك، أعتقد أنني أُخفق في مهمتي المتمثلة بالاعتناء بك بشكل ملائم. وأنا آسف».

فحدّق شارلوك في وجه أخيه، محاولاً معرفة ما إذا كان جدّيّاً أم لا، ثم سأله: «ماذا تعني؟».

«عَهِد والدنا بك إليّ. وهو لم يتوقّع مني ضمان مواصلة تعليمك فحسب، بل إبقاءك سعيداً وسالماً أيضاً. ولكن، منذ مغادرته إلى الهند مع فَوجه، وضعتُك في عُهدة أنسباء لم يسبق لك أن التقيتهم، ووقفوا متفرّجين عندما تورّطتَ في المخططات الجنونية لفرنسي مجنون تتملّكه أوهام العظمة، وحاول بطريقة غريبة أن يُعيد إلى أميركا الرجل الذي قتل رئيسه السابق. وفي الأشهر القليلة الماضية، قضيتَ المزيد من الوقت ناظراً في عين الموت أكثر مما فعل معظم الناس في حياتهم. لقد ضُربت، وخُطفت، وجُلدت، وجُررت، وأُطلقت النار عليك، وأُحرقت، وطُعنت تقريباً، ناهيك عن إرغامك على تخطّي الصعاب في العاصمة لندن الخطرة من دون أي إشراف؛ في بلد أجنبي، وفي أمواج بحر المانش العنيفة في الليل. لو كنت أعلم بكل ما سيحدث لك، لَما...»

وصمت بعد أن جاشت في صدره الانفعالات والأحاسيس، وأدار رأسه، فاعتقد شارلوك أنه رأى لمعانَ دموعٍ في عينَيه. عندها، مدّ شارلوك يده بتردد ووضعها على كتف مايكروفت العريضة.

«مايكروفت... طالما كنتَ الفرد الأكثر رسوخاً في حياتي. طالما جئتُ إليك طلَباً للنُّصح، وكنتَ على الدوام سخيّاً بوقتك. لم تحملني قط على الشعور بأنني أضايقك؛ حتى عندما تكون لديك أمور أكثر أهمية لتقوم بها».

حاول مايكروفت قول شيء ما، ولكن شارلوك واصل الكلام:

«لم نكن يوماً الشقيقَين اللذَين يتسلقان الأشجار معاً في الحديقة. فأنت لم تكن تملك الهمّة للقيام بذلك مطلقاً، وأنا لم أعِ قطّ حقيقة الأمر. غير أنه لا أهمية لذلك؛ فأنت الشخص الذي قصدته على الدوام طلَباً للإرشاد، ولم تخذلني مطلقاً. وأشك في أن يتبدل الأمر. أنت من أريد أن أكون مثله عندما أكبر؛ أريد أن أكون مثلك ناجحاً، ومهماً، ومتّكلاً على نفسي. أنت لم تخذلني قطّ، ولن تفعل، كن واثقاً من هذا».

فنظر إليه مايكروفت وابتسم قائلاً: «عندما تكبر، أعتقد أنك ستشق

طريقاً لنفسك في العالم لا يمكن لأي شخص آخر شقه. يمكنني توقع زمن سآتي فيه إليك طلَباً للمساعدة والنُّصح، وليس العكس. ولكن، بالرغم من كل ما قلتَه، فقد وقفتُ متفرّجاً عندما كنتَ في خطر».

هزّ شارلوك رأسه. «أعتقد أن الخطر سيكون موجوداً على الدوام حيثما ذهبت. يمكنك تجاهله، أو يمكنك لفّ نفسك ببطانيات كي لا تتعرض للأذى، أو يمكنك السير في اتجاهه والتجرّؤ على مواجهةِ أسوأ ما يُضمره لك. إذا اخترتَ الاحتمال الأول فسيأخذك الخطر على حين غَرّة. وإذا اخترتَ الاحتمال الثاني فستقضي كل وقتك مقمَّطاً في الظلام، وتاركاً العالم يمر أمامك. إن الطريقة المنطقية الوحيدة للتحرك هي التوجه مباشَرةً نحو الخطر. فكلما اعتدتَ الأمر، تمكنتَ من التعاطي مع ذلك بشكل أفضل».

فابتسم مايكروفت، وتمكن شارلوك في لحظة من الزمن من أن يرى_ تحت ثنايا الدُّهن الذي يغلّف جسم شقيقه_ الفتى الذي كان عليه ذات يوم. قال مايكروفت برِفق: «أنا أجمع معلومات، أما أنت فقد اكتسبتَ حِكمة. سيأتي يوم يعرف فيه كل من في العالم باسمك».

قال شارلوك محاولاً التخفيف من صعوبة هذه اللحظات: «وعلاوةً على ذلك، حصلتُ مؤخراً على فرصتي في الحياة. ففي ما مضى، إن قال لي أحدهم إنني سأتعلم امتطاء الخيل، والمشاركة في مباراة ملاكمة، والإبحار عبر بحر المانش، والقيام بمبارزة في نهاية الإجازة الصيفية كنت سأضحك. وأنا أراهن أن معظم ما قام به الفتيان الآخرون الذين كانوا معي في المدرسة هو إطلاق طائرة ورقية، والتنزه في المَرج. وحتى الآن، لا يزال هناك جزء مني يعتقد أنني سأستيقظ وأجد أن كل ذلك مجرد حُلم».

كان مايكروفت لا يزال يحدق عبر الغرفة إلى حيث لا تزال فرجينيا تقف مراقبة الباب، ومنتظرةً عودة والدها، وقال: «وأفترض أن هناك عوامل تعويضية أخرى».

«ماذا تعني؟». سأل شارلوك شاعراً فجأةً بعدم الارتياح.

«أعني مفاتن العِشرة». واستغرق مايكروفت في التفكير فجأةً، قبل أن يتابع: «أنا... رجل... عازب، ولا أتحمّل الحمقى، وأفضّل قضاء وقتي بمفردي مع كتاب وقنينة شراب. لذا، لا تقتدِ بي في كل شيء. وإذا دخلتْ حياتَك صداقةٌ _ أو أجرؤ على القول مودّة _ فتقبّلها بحماسة».

انهارت معنويات شارلوك فجأةً عندما ذكّرته كلمات مايكروفت بماثيو أرنت الموجود في مكان ما بين أيدي خاطفين، فقال بكآبة: «لا أمانع مواجهة الخطر، ولكنني لا أريد أن يتأثر أصدقائي بسبب ذلك».

«لقد اتخذوا خياراتهم على غرارك». أشار مايكروفت. «ويمكنهم ذكر الحجج نفسها. فهم ليسوا دُمى، ولا يمكنك إبقاؤهم سالمين؛ مثلما أنا غير قادر على إبقائك سالماً كما يبدو. وإذا أرادوا أن يكونوا معك فسيكونون معك لأنهم يتقبّلون المخاطرة». ورفع حاجبه. «بالتأكيد، لا بد من أن يكون ماثيو الشاب قد اكتشف الآن أن التواجد معك ليس آمناً أو مُمِلّاً».

«سنُعيده، أليس كذلك يا مايكروفت؟».

«لن أسمح لقلبي بتحرير شيك مصرفي لا تسمح لي الحياة بصرفه». قال مايكروفت بلطف، ثم تابع: «لا يمكنني توقع المستقبل بالتأكيد، ولكن يمكنني استخدام معرفتي وخبرتي للقول إن هناك إمكانية كبيرة في عودة ماتي إلينا سليماً ومُعافىً. أما الأحداث الأخرى التي قد تقع على امتداد الطريق فتلك مسألة أخرى».

في تلك الأثناء، فُتح الباب ودخل أميوس غروي الغرفة وهو يحمل قطعة ورق متغضّنة.

«عثرت على هذه في جَيب السجين. يبدو أنها شيفرة من نوع ما. لست واثقاً مما تعنيه».

«هل كان واعياً؟». سأل مايكروفت.

«إما أن يكون فاقد الوعي أو ممثلاً جيداً. ولكنني ألقيت نظرة سريعة على ملابسه. إن تفصيل القماش ولُصاقات التعريف الداخلية على ملابسه أميركية بصفة رئيسة».

«لِننظرْ إلى الورقة، فربما تعطينا إلماعة إلى المكان الذي كان يتعين عليه توجيه رسالته إليه».

فتح غروي الورقة على الطاولة، فتحلّق مايكروفت وشارلوك حوله، في حين بقيت فرجينيا في الخلف مبتسمةً وسعيدة بعودة والدها.

كتبت على الورقة مجموعات من الحروف والأعداد المدوَّنة بسرعة بخط اليد. قرأ شارلوك عشر مجموعات تحتوي كل منها على خمسة حروف، أو حروف وأرقام:

«ماذا تعني؟». سأل شارلوك.

«يبدو أنها شيفرة استبدال بسيطة». أجاب غروي. «كانت شيفرات الاستبدال تُستخدم كثيراً أثناء الحرب بين الولايات؛ للحؤول دون وقوع الرسائل في الأيدي غير المناسبة. الفكرة بسيطة؛ فعلى سبيل المثال، بدلاً من

الحرف « a » تكتب حرفاً آخر مثل « z » _ وتلفظ زي _ وبدلاً من الحرف « b » يمكنك كتابة الحرف « y »... وما دمتَ والشخص الذي توجّه إليه الرسالة تعرفان بأي حرف يُستبدل كل من الأحرف المعنية _ مفتاح اللُّغز_ فمن الممكن تشفير الرسالة وحلّ شيفرتها بأمان».

«ولكننا لا نعرف مفتاح اللُّغز، أليس كذلك؟». قال شارلوك.

«صحيح. لو كانت لدينا رسالة أطول لَتمكنّا ربما من اكتشاف المفتاح عبر تحليل نمط التكرار، ولكنها للأسف ليست طويلة «.

«تحليل نمط التكرار!».

تنهّد مايكروفت قائلاً: «الوقت غير مناسب لحصة تعليمية». ولكن غروي أجاب بأية حال.

« منذ سنوات، اكتشف رجل بارع أن بعض الحروف في الرسائل المكتوبة بالإنكليزية تتكرر أكثر من سواها. فالحرف إي مثلاً يُستخدم أكثر من غيره، يليه الحرف تي، ومن ثم الأحرف أيه، وأو، وأن. والحرفان كيو وزد هما الأقل استخداماً، وهذا أمر مثير للدهشة. لذا، إذا كان لديك نص طويل استُبدلت فيه الحروف بأخرى، فابحثْ عن الحرف الأكثر استخداماً في النص. فربما يكون الحرف إي. والحرف الأكثر استخداماً في النص هو تي على الأرجح. إنها عملية استبدال. وبقليل من الحظ، يمكنك اكتشاف ما يكفي من الحروف في الرسالة لمعرفة محتواها». ونظر إلى الرسالة على الورقة أمامهم وتابع: «أما هذه فلست واثقاً منها. إذ ليس لدينا ما يكفي من الحروف للقيام بتحليلٍ لنمط التكرار، ولكنني أتساءل عما إذا كان لديهم متّسع من الوقت لإجراء عملية التحليل أو تشفير رسالة. أعتقد أن ما اعتمدوه هنا أكثر بساطة».

«أكثر بساطة! كيف؟». سأل شارلوك.

«عشر مجموعات تحتوي كل منها على خمسة حروف. يحملني ذلك على التفكير في شبكة مربَّعات، أو جدول».

ودوّن غروي الحروف بسرعة تحت المجموعات الأصلية، ولكن بترتيب أكبر:

ثم قال مفكراً: «الآن، هناك طريقتان يمكن للمرء استخدامهما لكتابة شبكة مربَّعات مكوَّنة من خمسة سطور وعشرة أعمدة؛ بهذه الطريقة، أو بالطريقة المعاكسة».

وبسرعة، كتب شبكة مربَّعات أخرى، واضعاً هذه المرة المجموعات بشكل عمودي:

« **مركز بريد ساوثمبتون** ». قرأ شارلوك حابساً أنفاسه، « **رصيف أس أس غريت إيسترن، 09.45، الثلاثاء** . لا بد أن ما ذُكر فيها هو المكان حيث تُوجَّه الرسالة، وحيث تغادر السفينة، ووقت المغادرة».

«ليست شيفرة معقدة بصفة خاصة». قال غروي متأملاً، «ولكنها أفضل ما أمكنهم القيام به ربما في عربة خَيل مسرعة». وألقى نظرة سريعة على مايكروفت ثم تابع: «أظن أن كلَينا نعرف الخطوة التالية، أليس كذلك؟».

فأومأ مايكروفت برأسه مجيباً: «سأنطلق».

تنقّلت نظرات شارلوك بين أخيه وأستاذه، ثم سأل: «ما هي الخطوة التالية؟».

حدّق الرجلان إلى بعضهما بعضاً، وكان مايكروفت هو من أجاب.

«لقد حجزوا لأنفسهم على متن سفينة ستغادر ساوثمبتون غداً عند التاسعة وخمس وأربعين دقيقة. وسيصلون إلى وجهتهم في حين أننا نتعاطى مع الأمور هنا. وإلى أن نوقظ الشرطة، ستكون السفينة قد أبحرت في هذه الأثناء».

«إذاً، لقد أفلتوا من العقوبة». قال شارلوك.

فردّ مايكروفت: «ليس بالضرورة. هناك سفن تبحر إلى أميركا كل يوم، ومعظم السفن تنقل ركّاباً، ولكن مهمتها الرئيسة هي حمل الرسائل

والطرود البريدية. وهذا ما تجني منه النقود. وإذا تمكنّا من شراء تذاكر للسفر على متن سفينة ستغادر غداً أو بعد غد إلى الوجهة نفسها، فبإمكاننا عندئذٍ الوصول إلى هناك بعدهم بفترة وجيزة، لا بل ربما سنصل قبلهم. فقد تكون سفينتنا أخفّ وزناً، أو أكثر قوة. وهم لم يختاروا سفينتهم واضعين نُصب أعينهم أنهم سيطارَدون، بل أرادوا الخروج من البلد في أسرع وقت ممكن».

«إذا تمكنّا؟». سأل شارلوك.

أجاب مايكروفت: «سيتعيّن على السيد غروي الذهاب لأنه مرتبط بمهام قضائية في بلده الأم، وباستطاعته طلب مساعدة الشرطة المحلية. ومن الواضح أنه سيصطحب ابنته معه لأنه لن يدَعها هنا بمفردها. أما أنا فسأبقى لأنني بحاجة إلى الحرص على إبلاغ الحكومة البريطانية عن تطورات الأحداث، وتوفير أي دعم دبلوماسي طويل الأمد قد يحتاج إليه السيد غروي».

«ألا يمكنه فحسب إرسال برقية لوكالة بينكرتون، طالباً اعتراض غريت إيسترن عندما تصل؟».

فهز مايكروفت رأسه، وفكاه الناتئان يهتزان أثناء قيامه بذلك وقال: «أنت تنسى أننا لا نملك أوصافاً واضحة للرجال؛ بالتأكيد ليس ما يكفي لضمان اعتقالهم. فباستثناء جون ويلكس بوث، لا يمكن لأحد سواك أن يعرفهم».

«وماذا عني؟». سأل شارلوك غير قادر على التنفس تقريباً.

«أنت الوحيد بيننا الذي رأى الرجال الآخرين». قال مايكروفت بلطف. «ولكن، لا يمكنني أن أطلب منك القيام بأمر قد يشكل خطراً عليك يا شارلوك. حتى إن ضميري لا يسمح لي بطلب ذلك منك. يمكنني فقط الإشارة إلى أن السيد غروي لا يستطيع القبض على الرجال إذا لم يتمكن من العثور عليهم».

«أتريد مني أن أذهب إلى أميركا؟». همس شارلوك.

قال مايكروفت: «يمكنني إخبار العم شِرينفورد والعمة آنا بأنني تدبّرتُ لك رحلة تعليمية ربما تدوم شهراً تقريباً. سيعارضان الأمر بالطبع، ولكن بإمكاني إقناعهما كما أعتقد».

قال شارلوك مفكراً في السيدة إغلانتين والقوة الغريبة التي تمارسها كما يبدو في منزل عمه: «في الواقع، أعتقد أنك ستجد سهولة أكبر مما تعتقد في إقناعهما بالسماح لي بالابتعاد لفترة قصيرة من الزمن».

الفصل السابع

كانت أحواض السفن في ساوثمبتون مكتظة بالرجال والنساء والأطفال المستعجلين الذين يرتدون ملابس الأحد. وكان بعضهم يجري كالنمل في اتجاه أعلى الجسور المتحركة التي تربط بين جانب الرصيف وسطوح السفن، فيما ينزل البعض الآخر على الجسور المتحركة من سفن أخرى ويحملقون حولهم، فتجحظ عيونهم لدى رؤيتهم البلد الجديد، في حين يُلقي الباقون تحية الوداع على أصدقائهم وأنسبائهم، أو يرحّبون بقادمين جدد بأذرع مفتوحة. ويشقّ حمّالون يرتدون ملابس موحّدة طريقهم داخل الحشد وحوله، دافعين أكواماً من حقائب السفر المكدَّسة بشكل غير مستقر على عربات صغيرة، بينما ينقل عمّال الأرصفة الذين يرتدون ملابس للعمل ويضعون مناديل كبيرة ملوَّنة على رؤوسهم البضائعَ من منصات كبيرة وإليها. وتعلو كل ذلك رافعات خشبية تنقل منصات كبيرة مغطاة بشباك من جانب الحَوض إلى سطوح السفن، أو من السطوح إلى جانب الحَوض، إضافةً إلى الجوانب الخشبية أو الحديدية للسفن الأشبه بجروفٍ، والصواري والمداخن الناهضة كغابة من الأنحاء كافة.

وحيثما نظر شارلوك رأى دليلاً على مئة جريمة تُرتكَب: سرقة نقود من الجيوب، وممارسة ألعاب البطاقة الثابتة، وقَطع الشّباكِ التي تحيط برِزمٍ من البضائع ليكون بالإمكان أخذ سِلع صغيرة منها، وأطفال يتم تفريقهم عن ذويهم لسبب لا يعرفه أحد، بالإضافة إلى قادمين جدد يدفعون مقدَّماً لقاء نقلهم إلى نُزل وفنادق غير موجودة حقاً ولا تشبه الأوصافُ المقدَّمة المساكنَ بأي شيء.

إنها الطبيعة البشرية بأفضل وأسوأ حال.

كانت الساعات الأربع والعشرون السابقة هي الأكثر انهماكاً ربما في حياة شارلوك. فبعد الاجتماع في منزل أميوس غروي الريفي، والقرار غير المتوقع بالذهاب إلى أميركا _ القرار الذي كان شارلوك لا يزال غير قادر على تصديقه _ عاد ومايكروفت عزبة آل هولمز، مارَّين بفارنهام لإرسال برقية موضوعة بعناية إلى مركز البريد في ساوثمبتون دوكس، مقنعَين إيف وبيرل بنجاح غيلفيلان في إيقافهم. ولدى وصولهما إلى عزبة آل هولمز، دخل مايكروفت المكتبة للتحدث إلى شِرينفورد هولمز، في حين توجه شارلوك إلى غرفة نومه لتوضيب مقتنياته اليسيرة في الصندوق القديم الذي كان مُلكاً لوالده. لقد نام شارلوك بشكل سيّئ، منزعجاً من ذكريات القتال الذي

خاضه مع غيلفيلان وآلام جراحه، ومن تحمّسه بسبب كونه على وشك مغادرة البلد إلى أميركا! لقد شاب الفطور بعض التوتر مع عدم ثقة شِرينفورد والعمة آنا مما يقولانه له، وابتسام السيدة إغلانتين ببرودة من ورائهما. بعد ذلك، دخل شارلوك عربة الخَيل مع مايكروفت، مراقباً عملية رفع صندوقه وربطه بمؤخر العربة، ثم انطلقا بعد ذلك في رحلة طويلة إلى ساوثمبتون.

في الطريق، وجد شارلوك نفسه يفكر في كل الأمور التي حصلت، وفي الرسالة المشفَّرة التي عثر عليها أميوس غروي في جيب غيلفيلان فاقد الوعي. لم يسبق له أن فكر في الشيفرات من قبل، ولكنّ هناك أمراً ما بشأن جمعها بطريقة دقيقة، وبشأن العمليات المنطقية التي يمكن استخدامها لحلّها والتي تروق لعقله المنهجي. ووجد نفسه يتخيّل كل أنواع الشيفرات؛ بدءاً بإعادة الترتيب كتلك الشيفرة التي قاموا بحلها في اليوم السابق، ومروراً باستبدالات أكثر تعقيداً حيث الرموز تحلّ مكان الحروف، ووصولاً إلى ترتيبات أكثر تشابكاً تتبدّل فيها الاستبدالات وفقاً لشيفرة مختلفة، حيث يُستبدل على سبيل المثال الحرف أيه الذي يظهر للمرة الأولى بحرف ما، وبحرف آخر عندما يظهر في المرة التالية، وهكذا دواليك... استناداً إلى خَوارزمية ضمنية. في تلك الحالة، من المفيد أن يكون هناك تحليل للتكرار من النوع الذي أَوجزه أميوس غروي. كيف يمكن حلّ ذلك النوع من الشيفرة؟ تساءل شارلوك. يتطلب عالم الشيفرات والرموز بحثاً إضافياً بالتأكيد.

في النهاية، وصلا إلى ساوثمبتون، وكان أميوس وفرجينيا غروي بانتظارهما، وقد لفّ غروي بحذر ضمادة حول جبينه مخبَّأة تقريباً بحافة قبّعته، فحزر شارلوك أنهما انطلقا من المنزل على صهوة حصانَيهما، ومن ثم تدبّرا أمر إيداعهما في إسطبل أثناء غيابهما.

قال مايكروفت مسلِّماً أميوس غروي رزمة ورق: «لديّ تذاكركم ومستندات السفر الخاصة بكم. لقد حُجزت لكم أماكن على متن أس أس سكوتيا. ها هي هناك. إنها تخصّ كونارد لاين، وهي سفينة بريطانية ممتازة. والبطاقات للدرجة الأولى بالطبع. فقد توقعتُ أنك لن تتحمّل الدرجة الثالثة القاسية؛ لاسيّما وأن ابنتك وشقيقي في عُهدتك».

نظر شارلوك إلى حيث أشار مايكروفت، فرأى سفينة ضخمة بدت بطول حقل رُكْبي. كانت هناك عجَلة دَفع ضخمة في منتصف المسافة على أحد جانبي السفينة، بالإضافة إلى عجَلة مماثلة على الجانب الآخر؛ كما هو

مُفترَض. وبالإضافة إلى عجَلتَي الدفع، هناك صاريتان بأشرعة ملفوفة. لذا، افترض شارلوك أن عجَلتَي الدفع تعملان بواسطة محركات بخارية موجودة داخل هيكل السفينة الضخم_ إذ كانت هناك مِدخنتان منبثقتان من السطح ترسلان البخار على الأرجح إلى الفضاء _ وتُستخدم الأشرعة عندما تكون هناك ريح تملأها، في حين تدفع عجَلتا الدفع العاملتان بالبخار السفينة عندما تخمد الريح.

حلّل عقله المنطقي الفكرة؛ فإذا كانت عجَلتا الدفع تعملان بواسطة محركات بخارية، إذاً يتعيّن تسيير المحركات البخارية بواسطة الفحم المحترق، مما يعني أنه يجب أن تكون هناك احتياطيات من الفحم مخزَّنة على متن السفينة بما أنه يستحيل الحصول على المزيد من الفحم في وسط المحيط الأطلسي. وهذا يعني وزناً إضافياً، والحاجة إلى فحم إضافي لنقل الفحم. ولكن، كيف يعرف المرء كمية الفحم المطلوبة للرحلة عندما يتعيّن عليه أن يضيف لكل طنّ إضافي المزيد من الفحم لنقل ذلك الطنّ، عِلماً منه أنه لدى استهلاك ذلك الطن تتضاءل أكثر فأكثر الكمية المطلوبة؟ يتعيّن إجراء حساب رياضيّ معقَّد ليس في متناوله، وقد ذكّره الأمر بشكل غريب بالمثال الذي ضربه له أميوس غروي منذ بضعة أسابيع عن التفاوت بين أعداد الثعالب والأرانب مع الوقت. هل كل شيء في العالم يعتمد على المعادلات في نهاية المطاف؟

«أنا ممتنّ لمساعدتك يا سيد هولمز». قال أميوس غروي بحياء. «فأنا لستُ رجلاً ثرياً. لم نتحدث عن مسألة المكافأة المالية».

«لا حاجة لذلك». ولوّح مايكروفت بيده، مُحرَجاً كما يبدو من مناقشة مسألة المال. «لقد دفعت الحكومة البريطانية ثمن هذه التذاكر. وخلال الأسبوع القادم تقريباً، سيكون لي حديث مع سفيركم، وسأقترح عليه المساعدة في دفع التكلفة على أساس أننا نساعد بلدكم في سياسته الداخلية. ولكن في الوقت الحاضر، كُن واثقاً من أنك لن تُترك مفتقراً إلى المال لدى وصولك إلى نيويورك. أفترض أن باستطاعتك الوصول إلى اعتمادات مالية هناك، أليس كذلك؟».

فأومأ أميوس غروي برأسه. « مع ذلك، أنا ممتنّ يا سيد هولمز».

ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى فرجينيا التي تقف إلى جانب أميوس غروي وهي تبدو عصبية المِزاج، ووجهها أبيض.

«هل أنتِ بخير؟». سألها شارلوك متوجّهاً إليها أثناء مواصلة شقيقه ووالدها الكلام.

فأومأت برأسها قائلة: «لا أريد التحدث عن الأمر».

«ظننتُ أنك ستُسَرّين بالعودة إلى الوطن!».

وألقت عليه نظرة سريعة تستطيع اختراق الزجاج، ثم سألته: «أي جزء من لا أريد التحدث عن الأمر لم تفهمه؟».

فرفع شارلوك يده مهدِّئاً إياها، وتراجع إلى الوراء كما يتصرف ربما مع حيوان برّي. وفكر في سره أن فرجينيا تبدو للمرة الأولى منذ عرفها الشخص الأكثر تعقيداً ربما الذي التقاه يوماً.

«هل من جديد عن غريت إيسترن؟». سأل غروي مايكروفت.

«كما تشير الرسالة المشفَّرة، غادرت السفينة حوض السفن هذا الصباح من رصيف قريب من هنا، متوجّهةً إلى نيويورك. لقد تحققتُ من لائحة بأسماء الركاب من دون أن أعثر على أي اسم يعني لنا شيئاً. لقد تخلّف راكب واحد؛ ويمكنني الافتراض أنه السيد غيلفيلان سيّئ الحظ الذي يلقى العناية من شرطة فارنهام الآن. سأنقله إلى شرطة العاصمة في وقت لاحق من اليوم؛ فمن شأن ذلك أن يسهّل عملية الاستجواب التي يخضع لها».

قال غروي: «لا تقسُ كثيراً على الرجل. وتذكّر أنه لم يُدَن بأي تهمة بعد».

رفع مايكروفت حاجبه من دون أن يجيب، ثم التفت إلى شارلوك ووضع يده على كتفه، وأشار باليد الأخرى في اتجاه أس أس سكوتيا شارحاً: «أُطلقت قبل ستة أعوام، بَنَتها كونارد لاين هنا في إنكلترا، وهي تقوم بتشغيلها. يبلغ طولها ثلاثمئة وتسعاً وسبعين قدَماً، وتزن ثلاثة آلاف وتسعمئة طنّ. يدعى ربّانها جادكينز، وهو العامل الذي يحظى بثقة كونارد أكثر من أي عامل آخر. تتّسع لثلاثمئة راكب، إضافةً إلى الشّحنة، وتستهلك مئة وأربعة وستين طناً من الفحم في اليوم. يمكنها القيام بالرحلة من ساوثمبتون إلى نيويورك خلال ثمانية أيام وساعات قليلة. تخيّل ذلك، بعد أسبوع واحد ستكون في القارّة الأميركية. في زمن الروّاد الذين استوطنوا ذلك البلد المَهيب قبل سواهم، كانت الرحلة تدوم أشهراً».

«هل سبق لك أن زرتَ أميركا يا مايكروفت؟». سأل شارلوك.

فاعترت رعشة جسم شقيقه الضخم، وأجاب: «ساوثمبتون أرض أجنبية على حدّ عِلمي. ويمكن لأميركا أن تكون القطب الشمالي أيضاً».

والتفت مايكروفت إلى غروي قائلاً: «ستكون أمتعتكما في طريقها إلى حُجرتَيكما. بعد التفكير، حجزتُ ثلاثة أسرّة في حُجرتَين. إحداهما ستتشاطرها مع شارلوك، أما الثانية فلفرجينيا. ولكنني فهمتُ أنها ستتشاطرها مع

مسافرة أخرى. لم أتمكن من التحقق من اسم تلك المسافرة بما أن القرار يعود كما يبدو لمأمور حسابات السفينة. ولكن، ثِقي في أن أية امرأة تسافر في الدرجة الأولى ستكون مهذبة».

«أنا واثق من أن فرجينيا قادرة على تدبّر أمرها». قال غروي وهو يبدو مُربَكاً.

«هناك أمر آخر». تابع مايكروفت. «لقد اتخذتُ الحِيطة وحجزتُ مقاعد لثلاثتكم في أول عشاء يقدَّم. فقد قال لي أشخاص على دراية بهذه الأمور إن المقاعد التي تحصلون عليها لتناول أول عشاء تحدد مكانتكم الاجتماعية في ما تبقّى من الرحلة. وأفضل المقاعد هي الأقرب إلى الربّان، والأقرب إلى الأبواب في حال الإصابة بدُوار البحر، والأبعد عن المحركات. أعرف أن الرحلة ستدوم ثمانية أيام فقط، ولكن يمكنكم التمتع بأكبر قدْر من الراحة في تلك الفترة». وارتعد ثانيةً. «لا يمكنني القول إنني أحسدكم. ففي هذه الأيام، تكون الرحلة من مسكني إلى مكتبي، ومن مكتبي إلى النادي الذي أقصده كافية لإرهاقي. ولا أستطيع أن أتخيّل أية قوة يمكنها إبعادي عن ذلك الروتين».

فابتسم غروي قائلاً: «قد تتفاجأ يا سيد هولمز بما يُخرجنا عن مداراتنا؛ فربما يكون أبسط الأمور. وأظنّ أنك قد تكتشف مباهج السفر إلى بلاد أجنبية إن سافرت».

«لا سمح الله». قال مايكروفت.

وحين حان وقت الرحيل، مدّ شارلوك يده وقام مايكروفت بالمِثل، وتصافحا برصانة كسيّدَين يلتقيان في الشارع.

«حافظ على سلامتك». قال مايكروفت، ثم تابع: «وقُم بما يطلب منك السيد غروي القيام به. وجودك في هذه الرحلة هام. قد لا نعرف مدى أهميّة ذلك حالياً، ولكنني أذكّرك بأنك الوحيد الذي يمكنه معرفة أولئك الأميركيين المارقين. على الأقل، هم مجرمون ولاجئون سياسيون يُفترض إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم على الجرائم التي ارتكبوها. والأهم من ذلك، هناك مؤامرة تحاك، ويجب وضع حد لها كي لا يتأثر الوضع السياسي الهش في أميركا ويزداد سوءاً. وحبّاً بالله، استمتع بوقتك؛ إذ لا يحظى أشخاص عديدون في مثل سنّك بفرصة السفر إلى الخارج».

ومدّ يده إلى داخل جَيبه، وأخرج كتاباً صغيراً أعطاه لشارلوك قائلاً: «ستكون بحاجة إلى شيء ما لملء وقتك. إنه نسخة عن كتاب الجمهورية، بقلم الفيلسوف الإغريقي أفلاطون. يتخذ الكتاب شكل مجموعة حوارات

مُمَسرَحة بين سقراط_ مرشد أفلاطون_ ومجموعة منوّعة من الأثينيّين الآخرين والأجانب، يناقشون فيها معنى العدالة، ويحاولون معرفة ما إذا كان الإنسان المنصِف أكثر سعادة أم لا من الإنسان الظالم. يستخدم أفلاطون أيضاً الحوارات لاقتراح مجتمعٍ يحكمه ملوك فلاسفة، كما يناقش أدوار الفيلسوف والشاعر في المجتمع. الجمهورية أحد الأعمال الأكثر تأثيراً في الفلسفة والنظرية السياسية، وأوصيك بدراسته».

«هل هو مترجَم؟». سأل شارلوك بطريقة مُريبة.

«بالطبع لا». قال مايكروفت مرتبكاً، ثم تابع: «أعرف مدى سرعتك في القراءة. ولو كان مترجَماً، لَأنهيته بعد ظهر أحد الأيام. أما إذا توجب عليك ترجمته أثناء قراءته، فأنا على ثقة تامة بأن الرحلة ستنقضي قبل أن تُتمّ قراءته. علاوةً على ذلك، تكون الترجمات على الدوام تحت رحمة مهارة المترجم. وإذا أردت قراءة شيء ما وفهمه بالشكل الملائم_ شيء باللغة الأجنبية_ فعليك تعلُّم تلك اللغة». وتردد قليلاً، ثم أردف: «ونظراً إلى معرفتي بحبك للأمور الغريبة والجنائية، أودّ الإشارة إلى أنه وبالرغم من وفاة أفلاطون في سنّ متقدّمة، إلاّ أن مرشده سقراط مات عندما أُرغم من قِبل السلطات الإغريقية على شرب سُمّ. لا أعرف إذا كان ذلك يحمّسك لقراءة الكتاب، ولكن عِلماً مني بولَعك بالتشويق والإثارة، أقدّم لك المعرفة هديّةً لتفعل بها ما تشاء».

«سأراك مجدداً». قال شارلوك وهو يشعر بغصّة خانقة في حَلْقه. لم يكن يعرف إن كان ما قاله عرضاً لواقع ما أم سؤال، ولكن مايكروفت أشاح بنظره للحظات، وتلألأت عيناه وهو يقول:

«شارلوك، لن أحظى بأبناء أبداً _ فأنا معتاد جداً على طُرُقي في الحياة، ولا أتقبّل أبداً إحداث تغيير في حياتي_ ولكن لو حظيتُ يوماً بابن فلن أستطيع أن أحبه أكثر منك. اعتنِ بنفسك. اعتنِ بنفسك جيداً».

بعد ذلك، صعدوا إلى متن السفينة على عَجَل، سالكين جسراً متحركاً طويلاً من الحَوض إلى سطح السفينة. وفي الأعلى، تمّ التحقق من تذاكرهم، وحظوا بمرافقة إلى أسفل سلّم خشبي؛ عابرين ممرّات خالية من النوافذ وصولاً إلى الغرف. توجّهوا أولاً إلى غرفة فرجينيا، حيث كانت أمتعتها بانتظارها، ولم تكن رفيقتها قد وصلت بعد، ومن ثم إلى الغرفة التي سيتشاطرها شارلوك وأميوس غروي. كانت الغرفتان صغيرتَين ومزيَّنتَين بألواح خشبية؛ إذ كانت كل منهما بطول تسع أقدام تقريباً، وتحتوي على سريرَين طبقيَّين على أحد الجوانب، وأريكة مريحة في الجانب المقابل. وفي أحد

الأطراف توجد مِغسلة ومرآة، وفوق الأريكة نافذة مستديرة تُدخل نوراً وهواء. ولكن شارلوك لاحظ بقليل من الاضطراب أنه بالإمكان إغلاق النافذة بإحكام. هل يحدث ذلك أثناء العواصف؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل تهبّ العواصف كثيراً؟ وكيف يحصلون على تهوئة مناسبة إذا دامت العاصفة أكثر من ساعات قليلة!؟

تحقق أميوس غروي من السريرَين الطبقيَّين، ثم قال: «من الأفضل لي اختيار السرير السُفلي، وسيبقى العُلوي لك. فإذا كان البحر هائجاً ووقعت، فأنا أفضّل أن تكون مسافة سقوطي أقصر. وتذكّر، أنا أثقل وزناً منك».

متذكراً الأفكار التي دارت في ذهنه عن النافذة والعواصف المحتمَلة، لاحظ شارلوك أن للسريرَين حَرفاً خشبياً قائماً على امتداد جانب الفراش لمنع الناس_ كما هو مفترض_ من التدحرج أثناء نومهم والوقوع على الأرض، ولكنه تخيّل الناس وهم يهتزون إلى الأمام والوراء في أسرّتهم الطبقيّة عندما تكون الأمواج عاتية.

«لست واثقاً من جودة الفراش». قال غروي ذلك بطريقة تنتقص من قَدْره، ومختبراً رقّته. لقد بدا الفراش لشارلوك أكثر سماكة من فراشه في عزبة آل هولمز، ولكنه لم يقل شيئاً.

وعندما تأكدا من سلامة أمتعتهما، عادا إلى سطح السفينة الرئيس لمراقبة استعدادات المغادرة. كان الجسر المتحرك يُزال عندما وصلا، والحشود متجمّعة على جانب الحَوض، ملوّحةً للأشخاص على متن السفينة. لقد أراد جزء من شارلوك البحث بين الحشد عن وجه مايكروفت، ولكن جزءاً آخر منه كان يعلم أن مايكروفت قد غادر. إذ لم يكن شقيق شارلوك رجلاً عاطفياً، وكان يكره الوداع.

زحفت يد شارلوك إلى جَيب سترته حيث دسّ كتاب الجمهورية لأفلاطون الذي أعطاه مايكروفت إيّاه. كان هدية غير متوقَّعة، واعتزم شارلوك قراءة الكتاب بأكمله؛ حتى لو كان باللغة اليونانية.

كانت محركات السفينة الموجودة في باطنها تدور بأقصى سرعة، ولم يتمكن شارلوك من سماع هديرها فحسب، بل شعر به عبر خشب السطح أيضاً. لقد انتابه إدراك فجائي مخيف بأن ضجيج المحركات البخارية سيكون رفيقهم المتواصل في الأيام الثمانية التالية. كيف سينام؟ كيف سيتمكن من سماع أي شيء يقوله أحدهم له؟ كان عزاؤه الوحيد هو الاعتياد عليه، ولكنه لم يعرف في تلك اللحظة كيف سيكون ذلك ممكناً.

فكّت الحبال التي تربط أس أس سكوتيا بجانب الرصيف عن أوتاد

الرُّسوّ، خافقةً على جانب السفينة كشرائط؛ عِلماً أنها حبال غليظة بسماكة قبضة يد شارلوك.

وشرعت عجَلتا الدفع الضخمتان بالدوران، ماخضتين الماء تحتهم، ودافعتين السفينة تدريجياً إلى الأمام. وحين أُطلقت الصفّارة البخارية، أطلق المحتشدون على الحَوض صيحة ابتهاج؛ كما لو أنه لم يسبق لأحد منهم أن رأى مشهداً مماثلاً. وأُلقي بالقبعات عالياً في الفضاء، فردّ المسافرون المتجمعون على سطح السفينة بالمِثل.

لقد اخترق سهمٌ فجائيّ من الشعور بالذَّنْب والحزن قلب شارلوك. فقد أراد أن يكون ماتي برفقتهم، وأراد أن يكون صديقه سالماً. فيما واصلت مخيّلته عرض صور لما يمكن أن يحدث لصديقه، وتعيّن عليه مواصلة إبعاد تلك الصور عن ذهنه. لا سبب لدى إيف وبيرل لإلحاق الأذى بماتي. فهو بوليصة تأمينهم.

يبقى السؤال الذي يطرح نفسه: هل يفكر إيف وبيرل بشكل منطقي كشارلوك؟

ناظراً حوله لصرف انتباهه عن تلك الأفكار المزعجة، لاحظ شارلوك وجود رجل في الجِوار. كان يقف بمفرده، حاملاً شيئاً ما بدا أنه حقيبة كمان. ولكن، بدلاً من التحديق بالحشد كان ينظر في الاتجاه الآخر؛ إلى البحر. كان نحيلاً، وشعره أسود وأطول مما هو عليه شعر الرجال عادة، وبدت سترته وسرواله كما لو أنهما من مخمل مضلَّع. اعتبر شارلوك أنه في العقد الرابع من العمر. وحين رفع الرجل يده ليقي عينَيه من الشمس، لاحظ شارلوك طول أصابعه ونحولها. نظر الرجل فجأةً إلى شارلوك جانبياً وابتسم، ملامساً جبينه في تحيّة عادية، فلاحظ شارلوك أن عينَيه خضراوان، وكشف اتساعُ بسمته عن مجموعة أسنان ذهبية في الناحية الداخلية لفمه.

«بدايةُ مغامرة». قال الرجل، وبدت في صوته لكنة إرلندية خفيفة.

«ثمانية أيام في عرض البحر من دون القيام بأي شيء سوى السير في الأرجاء وقراءة الكتب». أجابه شارلوك متحمساً ومتشجّعاً للشروعِ بالتحدث إلى شخص غريب عنه كلّياً. «ليست مغامرة بكل معنى الكلمة».

«آه، ولكن فكّر في أميال وأميال من المياه التي تكمن تحتنا أثناء سفرنا. فكّر في حُطام سفن أخرى مبعثَرة في قَعر البحر، وفي المخلوقات الغريبة التي تسبح هناك داخل تلك السفن المحطمة وخارجها وحول عظام البحّارة الغرقى. المغامرة تحيط بنا إذا كنت تعرف أين تنظر». ورفع الحقيبة التي يحملها، ثم تابع: «وإذا فشل كل شيء، فبإمكاني تخصيص

بعض الوقت لعزف موسيقاي على سطح السفينة تحت النجوم، والعزف لحوريات البحر».

«حوريات البحر!؟». سأل شارلوك بطريقة متشككة. «إنها دلافين على الأرجح، أو نوع آخر من المخلوقات البحرية».

«يمكن للمرء أن يحلم». قال الغريب، وأومأ برأسه لشارلوك مودعاً، وأمال قُلُنسوّته، ثم ابتعد واختفى وسط الحشد. تتبّع شارلوك شعره الأسود الطويل لبعض الوقت، ولكنه فقده أخيراً وسط ازدحام الناس.

قال أميوس غروي من ورائه: «إذا كنت تريد التجول والاستكشاف فلا تقلق بشأني. سنبقى على متن هذه السفينة لأسبوع وأكثر، ولا أنوي أبداً رعايتك طوال الوقت. وما دمت لن تسقط عن سطح السفينة، فبإمكانك الذهاب إلى حيث تشاء. سأقصد حُجرة جيني وأعرّف عن نفسي لرفيقتها، وأتأكد من أن المرأة غير ثِملة أو مجنونة، أو كليهما معاً. سنلتقي في حُجرتنا قريباً، ومن ثم نتحقق من أمر العشاء».

جال شارلوك في الناحية الأمامية للسفينة؛ في مقدّمة السفينة كما يدعوها البحارة. ومرّ بمنصة الربّان؛ تلك المنصة المرتفعة حيث يقف الربّان ببِذلة لا عيب فيها وقلنسوة مستدقّة الرأس، بالإضافة إلى مدير الدفّة الذي يوجّه مسار السفينة بواسطة عجَلة ضخمة بحجمِ عجَلة عربة خفيفة تُدفَع باليد وبشكل مشابه لها، كما اعتقد شارلوك. وفي الخلف، كانت هناك حُجرة صغيرة محميّة من الريح والمطر. ولكن منصةَ الربّان عبارة عن سطحٌ مفتوح بغالبيّتها، وعلى أحد جوانبها أداة معدنية غريبة على سارية، تشبه ساعة منبِّهة مع عقربَين فائقَي الطول يتحركان حول ميناء يحتوي على كلمات بدلاً من الساعات والدقائق؛ إلى الأمام، طاقة بخارية كاملة، توقف، أبطئ. لقد تطلّب منه الأمر دقائق قليلة فقط قبل أن يكتشف أن تلك الأداة الغريبة لا بد من أن تكون جهاز اتصال يسمح للربّان بإصدار أوامره للعاملين في غرفة المحرّك في مكان عميق تحت سطح السفينة. ويُطلق العقربان_ أثناء تحرّكهما لتغطية كلمات محدَّدة_ أجراساً مختلفة على الأرجح في غرفة المحرّك حيث يستجيب الوقّادون.

إلى الأمام، وقبل مقدّمة السفينة، يوجد ما يشبه الهُري الطويل، حتى إن رائحة الهُري تنبعث منه. ألقى شارلوك نظرة إلى الداخل عبر إحدى الفتحات القائمة على امتداد الجدار، وتفاجأ برؤية حيوانات هناك موضوعة معاً في مساحة صغيرة. كان المكان مؤلفاً من ثلاث طبقات؛ تحتوي الطبقة السفلية على أبقار وأغنام، والطبقة الوسطى على بط وإِوزّ، والطبقة العليا

على دجاج. وكان كل من تلك الحيوانات يعترض على الذبذبة وريح البحر الباردة التي تعصف بالسفينة. توفّر الحيوانات البَيض والحليب كما هو مفترَض، لا بل اللحم أيضاً مع تخفيض أعدادها تدريجياً. وفي نهاية الرحلة، يكون الهُري_ الأشبه بمنطقةٍ لتخزين الفحم_ فارغاً تقريباً. لم يتوقّع شارلوك وجود حيوانات حيّة على متن السفينة، ولكنه افترض أن الأمر منطقي. إذ لا يمكن توقُّع الاحتفاظ بالطعام طازجاً طوال فترة الرحلة، لا سيما إذا أدت عواصف أو أعطال ميكانيكية إلى تأخير الرحلة. لا بد من أن تكون هناك خُضار وفواكه مخزَّنة أو مزروعة ربما_ كما يفترض_ في مكان آخر، بالإضافة إلى براميل مليئة بمياه الشفَة في مكان ثالث، فضلاً عن عدة مئات من قناني الشراب لأجل ركاب الدرجة الأولى.

ومض شيء ما في طرف مجال رؤيته، فأدار رأسه بسرعة. لقد توارى شكل بشري قاتم داخل ظلِّ مركب إنقاذ. تقدّم شارلوك خطوتَين إلى الأمام، ولكن الشكل البشري اختفى، فهز رأسه. إنه أحد الركاب على الأرجح.

متقدّماً خطوات إضافية إلى الأمام، راقب شارلوك لبعض الوقت الشاطئ إلى جانبهم الأيمن. لا شك في أن السفينة ستلازم الشاطئ أثناء توجهها إلى الغرب حول كورنوال، ومن ثم ستندفع نحو شاطئ إيرلندا. وبعد مرورها بذلك المكان، ستتوجّه إلى داخل البحر المفتوح عابرةً المايلات البالغة تقريباً ثلاثة آلاف في المحيط الذي يقع بين ذلك الشاطئ وميناء نيويورك حيث سيحطّون الرِّحال.

تفاجأ شارلوك بمدى ثبات السفينة. إذ لم يكن هناك تقريباً أي تمايل من جهة إلى أخرى. ربما ستختلف الأمور في المحيط الأطلسي، ولكن حجم السفينة ووزنها يحميانها_ كما يبدو_ من الأمواج الصغيرة نسبياً هنا على امتداد الشاطئ الإنكليزي. لم يتمكن شارلوك من تمالك نفسه، وتذكّر المركب الصغير الذي كان وماتي قد أبحرا على مَتنه من حصن البارون موبرتس النابوليوني القائم قُبالة الساحل على الشاطئ قرب بورتسماوث. كانت تلك الرحلة قاسية، ولم يكن يرغب في اختبار أي شيء مماثل لها مجدداً.

وفجأةً، شعر بوحدة كبيرة. إنكلترا، بكل ما تعنيه له_ منزله، عائلته، لا بل مدرسته أيضاً _ تبتعد ببطء، وكل ما ينتظره مجرد مفاجآت؛ عالم جديد، ومجموعة جديدة من الناس والعادات... والخطر. لم يكن يعرف ما الذي يريده الرجال الذين يحتفظون بجون ويلكس بوث، ولكن من الواضح أن لديهم خطة، وهم مستعدّون للقتل بهدف إبقائها سرّيّة. وهو مجرد فتى يتورط في مكائد خارج حدود عالمه.

وماتي؟ ماذا عن ماتي؟ لقد شك شارلوك في أن يكون صديقه مرتاحاً بقدر ما سيكون ثلاثتهم مرتاحين هنا على متن أس أس سكوتيا. فربما يكون ماتي مقيَّداً، أو على الأقل موضوعاً في حُجرة في مكان ما. وربما توصّل آسروه إلى اتفاق معه، فبما أنهم جميعاً على متن السفينة وهو لا يستطيع الفرار، فقد يسمحون له ربما بالتنقل بحرّيّة إذا وعدهم بعدم التسبب بمتاعب. ولكن، قد يعاند ماتي، وربما يكون قد رفض العرض؛ هذا إذا كان لا يزال حيّاً يُرزَق.

لقد استنتج أميوس غروي ومايكروفت أنه كذلك، ولكن شارلوك يعي أن الاستنتاجات مجرّدُ تخمينات داخل بحر من الأوهام المرتكزة على وقائع قليلة معروفة. فإذا كانت الوقائع خاطئة، أو إذا لم يُخمّن المرء بشكل صحيح، فستكون النتيجة النهائية غير دقيقة بشكل عشوائي. ربما مات ماتي؛ إذ ربما قرر الأميركيون التخلص من عبء أسير حيّ طوال الرحلة، فقتلوه، ورموه على قارعة طريق العودة إلى إنكلترا. ربما كانت الرسالة مجرد خدعة؛ محاولة عشوائية لمنع أميوس غروي من التدخل.

عاد شارلوك أدراجه على امتداد الدرابزين الممتد على سطح السفينة وهو يشعر بالاكتئاب. لقد تعيّن عليه في إحدى المراحل سؤال أحد المُضيفين عن الوجهات؛ رجل نحيل يرتدي بِذلة رسمية لا عيب فيها، وتحت قَلَنسوته يظهر شعر أشقر قصير. بعد اكتشافه المكان، مرّ بجانب مجموعات من المسافرين المتحمّسين، والمِدخنتَين المعدنيّتَين والصاريَين الضخمَين اللذَين يشبهان جِذع شجرة، والشكل الطويل المنخفض للقاعة العامة المشتركة الخاصة بالدرجة الأولى؛ بنوافذها المُشرِفة على سطح السفينة، وصولاً إلى مقدّمة السفينة. كان الأثر الأبيض الناجم عن مُخور السفينة عباب الماء يزحف وراءهم كما لو أنه ذيل، فيما طيور البحر تتبعهم غاطسةً بين الحين والآخر لالتقاط أسماك مضطربة فقدتِ القدرة على معرفة الاتجاه.

في مؤخّر السفينة، كان هناك درج ضيّق يؤدي إلى أعماقها. وكان هناك أشخاص بملابس عادية يتسكعون في أعلى الدرج، مدخِّنين ومُلقين نظرات سريعة إلى الأمام على الركاب المرتدين ملابس أفضل. فحزِر شارلوك أنهم ركاب الدرجة الثالثة المحشورون في ظروف غير صحية وحجيرات ضيّقة تحت سطح السفينة، والذين ينامون على أراجيح شبكية غير مريحة أو على المقاعد، ولكنهم يدفعون مبلغاً أقل بكثير ثمناً لتذاكرهم. يبدو أنهم أشخاص يتطلعون إلى بدء حياة جديدة في أميركا، وليسوا مسافرين لأجل العمل أو المتعة كما هو حال ركاب الدرجة الأولى والثانية.

وشعر بحضور شخص ووقوفه بجانبه. وقبل أن يستدير، عرف أنها فرجينيا.

«كيف وجدتِ حُجرتكِ؟».

فأجابت: «أفضل مما كانت عليه حال حُجرتي في طريقي إلى إنكلترا. سيخبرك والدي بأن الطعام والمسكن كانا أفضل، ولكن لا تدعْه يخدعك. لم نكن مسافرَين في الدرجة الثالثة، ولكننا لم نكن في الدرجة الأولى أيضاً. ونظراً إلى كونها سفينة أميركية وليست بريطانية فليس هناك فَرق يُذكَر».

«ماذا عن رفيقتك في الغرفة؟».

«إنها أرملة متقدّمة في السن، في طريقها للانضمام إلى ابنها الذي انتقل إلى نيويورك قبل خمس سنوات. لديها خادمة في منطقة الخدَم، وتخطط للشروع بقراءة الكتاب المقدس الآن وإنهائه عندما نصل إلى نيويورك. لذا قلت لها حظاً سعيداً، وغادرت الغرفة».

«هل تريدين القيام بنزهة في أنحاء السفينة؟». سأل بعصبية مِزاج.

«لِمَ لا؟ ربما بِتْنا مُلمَّين بالمكان. فبالرغم من كل شيء، سنقضي الأيام الثمانية التالية هنا».

جالا على امتداد الجانب الآخر للسفينة، المقابل للجانب الذي كان شارلوك قد جابه سابقاً. وعندما وصلا إلى قاعة الدرجة الأولى، أومأ شارلوك لفرجينيا لتتوقف، وقال لها:

«أريد إلقاء نظرة على المكان في الداخل فحسب».

فُتح الباب إلى الخارج، وكان نابضه قاسياً للحؤول دون قيام الريح بفتحه باستمرار؛ كما هو مُفترَض. ففتحه شارلوك وألقى نظرة على المكان في الداخل. كانت القاعة فارغة؛ باستثناء وجود مُضيفَين يرتديان ملابس بيضاء ويضعان أدوات مائدة فضيّة على الطاولة الطويلة والوحيدة التي تهيمن على القاعة. وحول الطاولة، كان هناك ستّون كرسيّاً تقريباً؛ يساوي عددها_ كما هو مُفترَض_ عدد المسافرين في الدرجة الأولى. ألقى المُضيفان نظرة سريعة عليه، ثم أومآ برأسَيهما وتابعا عملهما.

كانت القاعة مزيَّنة بألواح خشبية قاتمة اللون، وبمرايا مثبَّتة في أرجائها لتعزيز الوهم باتساعها. وهناك جداريات فنّية على الألواح الخشبية حيث لا توجد مرايا. فيما تتدلى مصابيح زيت من الألواح على دِعامات قويّة البُنية.

«إذاً، سنتناول كلنا الطعام هنا؟».

فأومأت فرجينيا برأسها مجيبة: «كلنا معاً. الأمر مماثل لما حصل على

السفينة التي قدمنا على متنها».

«سادة وسيدات مع صناعيين ومديري فِرق مسرحية. أسلوب ديموقراطي جداً. لا مجال لإفلات النُّخبة وتجنبهم عامة الناس».

«لا تُقدَّم خدمات في الحجرات». وافقته فرجينيا الرأي. «يأكل الناس هنا أو لا يأكلون أبداً».

وشرع أحد المُضيفَين بوضع بطاقات كتبت عليها أسماء المسافرين في الأماكن المخصصة لكل فرد إلى المائدة، فتساءل شارلوك عن المكان الذي وضعتهم فيه رَشوة مايكروفت. إنهم الآن في عرض البحر، وكل الرهانات متوقفة. وبالرغم من المال المدفوع، ربما تكون مقاعدهم في الطرف البعيد للطاولة؛ بعيداً عن الربّان والأبواب، وفوق المحركات، ولن يتمكنوا من القيام بأي شيء حيال ذلك باستثناء التذمّر. لقد افترض شارلوك أنهم تحت رحمة مأمور حسابات السفينة؛ وهو رجل أثبت أنه يقبل الرشوة.

عاد شارلوك إلى الوراء، وأفلت الباب، وتركه يتأرجح. تحرك شيء ما عند زاوية عينه، فألقى نظرة جانبية سريعة إلى المكان حيث تنتهي قاعة الدرجة الأولى في ممرّ يفصل بينها وبين المِدخنة المعدنية الأقرب. لم يعرفه؛ أهو بحّار أو راكب؟ لم يكن بإمكانه التأكد. فالشيء الوحيد الذي رآه هو الشمس التي تلمع على شيء ما أزرق اللون حول مِعصم الشكل البشري أثناء انسحابه إلى داخل الظلال. أهو طَرَف كُمٍّ قميص أزرق؟ ربما، لم يكن واثقاً.

ركض شارلوك بسرعة إلى آخر القاعة، وألقى نظرة سريعة وراء الزاوية، ولكنه وجد الممرّ فارغاً. وفي منتصف الممر، كانت هناك فُتحة تؤدي إلى أعماق السفينة. أيّاً يكن الشخص الذي كان يراقبهما، فمن الواضح أنه ذهب. ولكن شارلوك علِم أن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد. فهذه هي المرة الثانية التي يرى فيها شخصاً يراقبه من الظلال. هناك شخص ما على متن هذه السفينة مهتمّ بهم، وذلك يعني أمراً واحداً.

للأميركيين الذين اختطفوا ماتي شخص ما على السفينة.

الفصل الثامن

اعتبر شارلوك أن الروتين اليومي للرحلة إلى نيويورك قد أصبح واضحاً في الساعات الثماني عشرة الأولى. وبالرغم من ضخامة حجم السفينة، كانت المناطق حيث يستطيع الركاب السير محدَّدة نوعاً ما. فعندما يعبر المرء سطح السفينة، ويتناول وجبة، ويتحقق من غرفة التدخين والمكتبة، ويُجري أحاديث قليلة مع ركّاب آخرين عن استقرار حالة الطقس، تُستنفَد كل الخيارات. وبين الوجبات، يقضي معظم الناس أوقاتهم - كما يبدو - إما على سطح السفينة بمفردهم؛ قارئين كتباً وهم جالسون على كراسٍ مُريحة، أو في مجموعات صغيرة مجتمعة حول الطاولات في غرفة التدخين، أو ممارسين لعبة البريدج أو الوِسْت. وعندما تغيب الشمس، يجوب المُضيفون أنحاء السفينة، مُشعلين مصابيح الزيت بأدنى مستوى ممكن، فيتوجه كل المسافرين إلى حُجراتهم للنوم.

كان شارلوك قد قضى الساعات القليلة الأولى وهو يراقب بلده الأم أثناء ابتعاد السفينة عنه تدريجياً حتى غدا نقطة قاتمة في الأفُق. لقد افتقد إليه في اللحظة التي اختفت فيها تلك النقطة تماماً. لا بد أن يكون قد طرَف عينَيه، أو أشاح بنظره لمشاهدة أمر آخر. ولكن إنكلترا كانت هناك في لحظة من الزمن، ثم اختفت وأصبحت السفينة بمفردها في محيط غير متناهٍ في اللحظة التالية، متوجّهةً نحو غروب الشمس، والشيء الوحيد الذي يشير إلى تحرّكها هو الزبد الأبيض الممتد وراءهم.

انضمّ وأميوس غروي وفرجينيا إلى بقيّة الركّاب على العشاء. ولكن، فيما كان أميوس غروي يتحدث بسهولة إلى كل من يحيط به، وجد شارلوك أن لا شيء لديه يقوله. فتناول طعامه بصمت وراقب الجميع، متسائلاً عن هويّاتهم، والأماكن التي قدموا منها، وتلك التي يقصدونها. لقد سبق لأميوس غروي أن علّمه بعض الطرائق لمعرفة مهنة المرء_ بملاحظة البُقَع على الأكمام على سبيل المثال، وأشكال الاهتراء على السُّترات، وبُقَع الجِلد القاسية على الأيدي _ وكان واثقاً تماماً من أن أحد الأشخاص مُحاسِب، وأن آخرَين مروّضا جياد.

كان الربّان تشارلز هنري إيفانز جادكينز رجلاً طويل القامة، ذا سالفين أبيضين قصيرين جداً ومثيرين للإعجاب يزيّنان خدَّيه. وكانت بِذلته السوداء خالية من البُقَع، ومكويّة بشكل جيد، ومزيَّنة بجَديلة ذهبية لمّاعة. أما وقفته فمنتصبة وعسكرية. وكانت السيدات المرتديات أفضل ملابسهنّ لأجل

المناسبة يستلطفنه وهو يخبرهن عدة قصص غريبة عن فترة عمله لصالح كونارد لاين. وكانت القصص التي تثير إعجاب جمهوره أكثر من سواها هي تلك التي تتناول مخلوقات كالحيتان والحبّار الضخم التي تُرى بعيداً أحياناً، وأيضاً تلك التي تتناول عواصف شديدة تظهر أحياناً في الأُفُق كجدران سوداء، وتقذف السفن على الأمواج لدرجة بُدُوّ سطح السفينة أحياناً عمودياً كواجهة جُرف صخري. يروي جادكينز هذه القصص بموهبةِ رجلِ استعراض؛ آسراً انتباه جمهوره بكلماته، ومُعطياً الانطباع بأن السفر في البحر نشاط خطير لا ينجو منه إلا سعيد الحظ. ولكن شارلوك اعتبر أنه يلعب دوره كما ينبغي، ويوفّر شكلاً من أشكال الترفيه يُضفي رَونقاً على بقيّة الرحلة. وبالرغم من كل شيء، إذا أخبرهم أن السفر في البحر مُمِلّاً بقدْر السير في حديقة عامة فأيُّ قصص سيروونها لأصدقائهم عندما ينزلون إلى البَرّ؟

لقد لفتت قصة واحدة بصفة خاصة انتباه شارلوك. فقد تحدّث جادكينز عن محاولات متنوعة لمدّ كابل عبر المحيط الأطلسي، من إيرلندا إلى الأرض المكتشَفة حديثاً، بهدف السماح بمرور الاتصالات التلغرافية. وإذا تمّ ذلك، فسيصبح بالإمكان نقل المعلومات عبر نَبْضات كهربائية على الفور؛ بدلاً من احتياج الرسالة إلى أكثر من أسبوع لتعبر من بلد إلى آخر في أكياس بريد توضع في عنبر سفينة. لقد فَتنتْ فكرة الاتصالات التلغرافية شارلوك _ فقد أدرك بعد ما حدث في منزل أميوس غروي الريفي أنه يتعيّن استبدال أحرف الرسالة بشيفرات يمكن نقلها بسهولة بواسطة نَبْضات كهربائية _ بنَبْضاتها الطويلة والقصيرة ربما، أو بإجراءٍ بسيط عامل ومُطفَأ. ولكن فكرة مدّ كابل مسافة ثلاثة آلاف مِيل، من ساحل إلى آخر، وفي قعر البحر، ومن دون أن ينقطع بسبب الشدّ، جعلت عقل شارلوك يرتبك. هل هناك ما لا يمكن لعقول البشر إتمامه عندما ينكبّون على أداء مهمة ما؟ تتمثل الطريقة الأصلية_ وفقاً لجادكينز_ بانطلاق سفينتَين إلى وسط المحيط الأطلسي، ومدّهما كبلاهما في اتجاهَين مختلفَين إلى أن يصطدما بالأرض؛ ولكن هذا الأمر واجه مشاكل فورية عندما حاول الطاقمان جَدْل الكابلين وربطهما معاً وسط عاصفة. وجرت المحاولات التالية مع انطلاق سفينتَين من إيرلندا إلى الأرض المكتشَفة حديثاً، مادّتَين الكابلين أثناء إبحارهما؛ ولكن غالباً ما كان الكابلان ينقطعان ويتعيّن سحبهما ليتمكن الطاقمان من إعادة وصل الأطراف المقطوعة ومواصلة العمل.

قال جادكينز ببطء وبصوت منخفض: «أذكر أنه في إحدى المرات، عندما سُحب كابل مقطوع من أعماق المحيط السحيقة، كان هناك مخلوق

متمسك به!». وألقى نظرة سريعة على أرجاء الطاولة بعينَين برّاقتَين تحت حاجبَين كثَّين، فيما تعلقت أنظار الركّاب به. «مخلوق شرير مشابه لأبي مِقصّ [8] بحري، إذا صدّقتم الأمر. إنه أبيض اللون، ولكن بطول قدمَين، ومع مجموعة من أربع عشرة رِجلاً ذات مخالب متشبّثة بالكابل بقوة ولا تُفلته. كان لا يزال حيّاً عندما سحبوا الكابل إلى سطح السفينة، ولكنه لم يلبث أن مات بعد إخراجه من موطنه الطبيعي وسط ظُلمة قعر المحيط».

فأطلقت امرأة صرخة غير متعمَّدة.

تابع جادكينز: «فهمتُ من الرجال الذين كانوا هناك أن مذاق ذاك المخلوق كان أشبه بمَذاق كَركَند بعد طهوه».

واستسلم جمهوره لضَحك يعبّر عن الارتياح. التقى نظر شارلوك نظر أميوس غروي الذي كان يبتسم أيضاً.

«سبق لي أن سمعتُ قصصاً مماثلة». تمتم غروي بصوت عالٍ بما يكفي ليسمع شارلوك. «تُدعى هذه المخلوقات إيزوبودوس. وهي تشبه القريدس، ولكن الظروف في قعر المحيط تسمح لها بالنموّ لتبلغ حجماً كبيراً».

كان المُضيف الذي يخدم في الجهة حيث يجلس شارلوك_ قرب الربّان، كما وعد مايكروفت _ رجلاً نحيلاً ذا شعر أشقر قصير، وهو الذي ساعد شارلوك في معرفة الاتجاهات في وقت سابق. وقد أومأ لشارلوك برأسه أثناء مدّه يده لوضع طبق حَساء أمام الرجل الجالس في الناحية المقابلة.

لم يكن هناك كَركَند، وهذه نعمة على الأرجح.

بعد العشاء، توجّه شارلوك إلى السرير تاركاً أميوس غروي في قاعة الطعام. فحين سيخلد غروي إلى النوم بأية حال سيكون شارلوك نائماً على سريره الطبَقي. وعندما استيقظ شارلوك واستعدّ لتناول الفطور، كان غروي قد غادر الحُجرة. يستطيع غروي العيش رغم حصوله على قسط قليل من النوم كما يبدو.

كان طعام الفطور ممتازاً؛ بالرغم من طهوه في البحر في مطبخ سفينة ضيّق. فلكل وجبة ميزة مختلفة، وانتظار رؤية ما يصل في الطبق أثناء الفطور، أو الغداء، أو العشاء إحدى النواحي الأبرز لليوم. كان كل شيء مُعَدّ طازجاً. وبالطبع، لم تكن هناك مستنقعات دماء على السطح، أو ثُغاءات مثيرة للشفقة مع اصطحاب الحيوانات إلى مصيرها المُحتم_ إذ يصعب تخزين أي شيء لمدة طويلة من الزمن على متن السفينة_ وبالرغم من تراجع أعداد الحيوانات على السطح في مقدّمة السفينة أثناء الرحلة،

فلا دلالة واضحة على ذبحها. ومن الواضح أن لأفراد طاقم السفينة روتينهم الخاص الذي يتّبعونه منذ سنوات.

كانت السماء صافية وزرقاء في اليوم الأول ذاك، والأمواج صغيرة مقارنةً مع حجم السفينة؛ لدرجة اصطدامها بجوانبها من دون أن تقذفها أو تجعلها تميل. سبق لشارلوك أن قرأ قصصاً عن عواصف في البحر، وسمع راكبَين يخيفان الآخرين بسرد قصصٍ تتناول عبورات سابقة مُريعة عبر المحيط الأطلسي؛ حيث تتقاذف الأمواج السفينة قبل أن تصدمها بقوة، جارفةً الحيوانات الموجودة على متنها. ولكن المحيط كان هادئاً حتى الآن، لدرجة قيام بعض الأشخاص بممارسة لعبة الكُرات [9] في منطقة خالية على السطح.

كانت لدى ركّاب الدرجة الثالثة منطقتهم الخاصة المسيَّجة على السطح للسير وغسل ملابسهم. وكانت تقع في أعلى الدرج المؤدي إلى المناطق المُظلمة في السفينة؛ حيث علِّقت أراجيحهم الشبكية. وكانت الرائحة القادمة أحياناً من هناك مزيجاً من روائح الأجساد التي تُدمع العيون. وهناك حيث لا نسيم ولا يمكن لأحد أن يرى السماء والأُفُق، يكون دُوار البحر رفيقاً دائماً؛ كما هو مُفترَض. وعندما يصعدون إلى السطح، يقومون بمراقبة ركّاب الدرجة الأولى وفي عيونهم ضغينة واضحة، أو يحدّقون بالسطح بكآبة وسَأم. وكلما مرّ شارلوك بجانبهم شكر الله لأن مايكروفت دفع ثمن تذاكر سفرهم في الدرجة الأولى. فهو لم يكن واثقاً من قدرته على تحمّل الوضع في الدرجة الثالثة، ومن كيفية تمكّن أيّ شخص من تحمّل ذلك.

كانت عجَلتا الدفع الضخمتان على كل جانب من السفينة في حركة متواصلة، مستمدّتين طاقتهما من المحركات البخارية التي يمكن الشعور بهديرها كلما لامس أحد ما سطحاً خشبياً. فهاتان العجَلتان تدفعان مياه البحر في الاتجاه المعاكس لوجهة السفينة أثناء دورانهما، فتنطلق إلى الأمام. كان الربّان قد أمر بفضّ الأشرعة لمدة قصيرة بعد تواري ساوثمبتون عن الأنظار وراء الأُفُق، ولكن كيفية تدلّيهما أوحت لشارلوك بعدم وجود نسيم كافٍ لتحريك السفينة بسرعة كبيرة.

لم يرَ بعد الفطور في ذلك اليوم أميوس غروي وفرجينيا كثيراً، وقد فاجأه الأمر. إذ كانت تبدو مُتعَبة، ورافقها والدها إلى حُجرتها، وقضى وقته مطمئنّاً على حالها تارةً، ومُطيلاً التفكير في الحُجرة التي يتشاطرها وشارلوك طَوراً. فهناك ما يضايقها. عائداً بالذاكرة إلى الوراء، حاول شارلوك أن يتذكّر ما إذا كانت فرجينيا قد ذكرت أي شيء عن الرحلة من أميركا إلى إنكلترا

التي قامت بها برفقة والدها، غير مسافرَين في الدرجة الأولى أو في الدرجة الثالثة. لقد انتابه شعور بأنها قالت أمراً هاماً عندما التقيا بادئ ذي بدء، ولكنه لم يتمكن من تذكّره.

وفي مكان ما في مؤخّر السفينة، سمع شارلوك عزف موسيقى. فاستدار محدّقاً بالأمواج، ومحاولاً تتبّع مصدر الموسيقى. طفت الموسيقى فوق رأسه برشاقة النوارس التي تتبع السفينة وتتعلّق في الهواء من دون تحريك أجنحتها تقريباً. لقد بدا له الصوت أشبه بعزف كمان يصدر موسيقى عَذبة تندفع صعوداً قبل أن تتوقف عند النوتة العليا ومن ثم تهوي ثانيةً.

مغادراً مكانه عند الدرابزين، عاد شارلوك أدراجه في اتجاه مؤخّر السفينة، باحثاً عن مصدر الموسيقى. هناك القليل من التسلية القيّمة على متن السفينة؛ ويُفترض به التحقق من أي شيء يضع حداً لرتابة اليوم وتقديره عالياً.

بعد المرور بالقاعة التي تشغل طابقاً وحيداً وطويلاً، وجد رجلاً واقفاً في منطقة فارغة من سطح السفينة وهو يعزف على الكمان. إنه الرجل الذي رآه في اليوم السابق أثناء مغادرتهم ساوثمبتون؛ الرجل طويل الشعر وأخضر العينَين. كان لا يزال مرتدياً السترة والسروال المخمليَّين نفسيهما؛ عِلماً أنه بدّل قميصه كما يبدو. وكان الكمان مضغوطاً على عُنُقه، ورأسه مُمالاً، وذَقنه يثبّت القسم الرئيس من الآلة الموسيقية أثناء قيامه بتلمّس عُنُقها بأصابع يده اليسرى، وتحريك قوس الكمان على الأوتار جيئةً وذهاباً بيده اليمنى. كانت عيناه مُغمضتَين جزئياً، وعلى وجهه أَمارات تركيز شديد. لم يسبق لشارلوك أن سمع مقطوعة موسيقية كهذه من قبل؛ إنها عاصفة رومنسية مضطربة، وهي غير منظَّمة ودقيقة كمقطوعات باخ وموزار التي اعتاد سماعها من حين لآخر في حفلات العزف في مدرسة دبدين للفتيان.

كان عدة ركّاب آخرين متحلّقين حول الرجل، ومُصغين إليه، وعلى وجوههم ابتسامات لاهية. راقبه شارلوك، وأصغى أثناء اندفاع موسيقى عازف الكمان صعوداً إلى الذّروة، ومن ثم توقّفها. لقد أبقى الكمان تحت ذقنه للحظات؛ مُغمِضاً عينَيه وعلى وجهه ابتسامة، ثم أنزله بعد ذلك وفتح عينَيه، فصفّق له الحشد، فانحنى. كانت حقيبة كمانه على سطح السفينة أمامه كما لاحظ شارلوك، فرمى بعض الركّاب نقوداً معدنية فيها قبل أن يبتعدوا.

بعد لحظات قليلة، بقي عازف الكمان وشارلوك بمفردهما. فانحنى عازف الكمان ليلتقط النقود المعدنية من الحقيبة، ومن ثم ألقى نظرة

سريعة على شارلوك.

«هل استمتعتَ بالعزف يا صديقي؟».

«أجل. ولو كان لديّ بعض المال لأعطيتك إيّاه».

«لا حاجة لذلك». وقوّم وقفته تاركاً الكمان وقوسه في الحقيبة. «يتمِّم المال أجرة سفري، ويساعدني على دفع نفقاتي، ويوفّر لي إمكانية تناول الشراب من حين لآخر، ولكنني لا أحاول كَسْب رِزقي من العزف. ليس هنا على متن السفينة بأية حال. ولكن، يجب عليّ التمرّن، وشريكي في الغرفة لا يقدّر الفن كما يبدو؛ باستثناء البولكا [10] الألمانية».

«ما نوع المقطوعة الموسيقية التي عزفتها؟». سأل شارلوك.

«إنها كونشيرتو على الكمان وَضعها مؤخراً مؤلف موسيقي ألماني يدعى ماكس بروخ. التقيته في كوبلنز العام الماضي، وقد أعطاني نسخة عن المدوَّنة الموسيقية. ومذاك الحين، وأنا أحاول عزفها بالشكل الصحيح. أعتقد أنها ستكون ذات يوم جزءاً من مخزون الألحان لكل عازف كمان كلاسيكي».

«بدت مدهشة».

«لقد استوحى بعض الأفكار من أعمال فليكس مندلسون، ولكنه أضفى عليها بَريقاً معيَّناً خاصاً به».

«هل أنت موسيقي محترف؟».

فأطلق العازف ابتسامة عريضة طبيعية كشفت عن أسنان بيضاء قوية، وقال: «أحياناً. يمكنني القيام بمهن عدة، ولكنني أعود إلى الكمان باستمرار كما يبدو. لقد عزفت في أوركسترات في قاعات للحفلات الموسيقية، كما عزفت مقطوعات رباعية وترية في قاعات احتساء الشاي الخاصة بالطبقة الاجتماعية العليا. كما جلت في الشوارع، ورافقت مغنّين في قاعات موسيقية أثناء تطاير كؤوس الشراب فوق رأسي وتحطّمها على المسرح. بالمناسبة، أدعى ستون، راف ستون».

«وأنا شارلوك هولمز». وتقدّم منه شارلوك ومد يده، فصافحه راف ستون للحظات قليلة. كانت يد ستون ثابتة وقوية. «ألهذا السبب أنت ذاهب إلى أميركا؟». تابع شارلوك. «أتذهب للعزف على الكمان؟».

أجاب ستون: «الفرص تتضاءل في إنكلترا. كنت آمل في أن يكون العالم الجديد مفيداً لي إلى حد ما، ولا سيما بعد الحرب بين الولايات». ونظر إلى جسم شارلوك من الأعلى إلى الأسفل، ثم تابع: «لديك قامة عازف كمان جيد، ووقفتك مستقيمة وأصابعك طويلة. هل تعزف؟».

فهز شارلوك رأسه مجيباً: «أنا لا أعزف على أية آلة موسيقية».

«يُفترض بك ذلك. فكل الفتيات يُحببنَ عازف الموسيقى». وأمال رأسه إلى جانب واحد كما لو أن الكمان لا يزال هناك، ثم سأله: «هل تُجيد قراءة النوتات الموسيقية؟».

فأومأ شارلوك برأسه قائلاً: «تعلّمتها في المدرسة. كان لدينا كورس، وتعيّن علينا الغناء كل صباح».

«هل ترغب في تعلّم العزف على الكمان؟».

«أنا؟! أتعلّم العزف على الكمان؟ هل أنت جدّي؟».

وأومأ ستون برأسه. «لدينا أسبوع قبل أن نرسو، وسيمر ذلك الوقت ببطء فظيع إذا لم نعثر على طريقة للترفيه عن أنفسنا. عندما أصل إلى نيويورك سأبحث عن وظيفة كمدرّسٍ للعزف على الكمان. وسيكون الأمر مساعداً إذا تمكنت من القول إنني علّمت أحدهم العزف على الكمان. في الوقت الحاضر، لديّ بعض الأفكار الجيدة حول كيفية القيام بذلك، ولكنني لم أطبّقها أبداً. إذاً، بمَ تجيب؟ هل أنت راغب في مساعدتي؟».

فكّر شارلوك في الأمر للحظات. لم يكن يلعب الوِست أو البريدج، والبديل الوحيد هو ترجمة كتاب الجمهورية لأفلاطون الذي أعطاه إيّاه مايكروفت. هذا الأمر يبدو أكثر إثارة للاهتمام بالتأكيد، لذا قال: «لا يمكنني الدفع. لا مال لديّ».

«لن أتقاضى منك المال، فأنت ستقدّم لي صنيعاً».

«ماذا يمكنك أن تعلّمني في أسبوع؟».

فكر ستون مليّاً بالأمر، ثم أجاب: «يمكننا البدء بالوقفة؛ طريقة وقوفك وطريقة حملك للكمان. عندما أشعر بالرِّضى عن إجادتك هذَين الأمرَين، يمكننا الانتقال إلى ممارسة تقنيّات اليد اليمنى المتنوعة بالشكل الصحيح: détaché , legato ,collé , martelé , staccato , و sautillé . وعندما أشعر بالرِّضى عن ذلك، يمكننا الانتقال إلى تقنيات اليد اليسرى: خفض الإصبع ورفعها، نقل الإصبع و vibrato . ومن ثم، أخشى أنه يحين موعد التدرّب، والتدرّب، والتدرّب... على السلّم الموسيقي والنغمات المتتابعة حتى تؤلمك أطراف أصابعك».

اعترف شارلوك: «قلتُ إنني أُجيد قراءة الموسيقى، ولكنني لا أُجيد ضبط نوتة. وقد قال مدرّب الكورس إن أُذُني غير موسيقية».

قال ستون: «لا أهمية لذلك. فقد لا تكون قادراً على الغناء، ولكنني أضمن أن باستطاعتي جعلك تعزف نَغَماً في نهاية الأسبوع، لدرجة قيام الناس برَمْي نقود معدنية لك مقابل ذلك؛ حتى لو كانت الموسيقى التي

ستعزفها بولكا ألمانية ليس إلا. ما رأيك؟».

أطلق شارلوك ابتسامة عريضة. وفجأةً، بدت الرحلة أكثر إثارة للاهتمام مما كان متوقَّعاً. «يبدو الأمر جيداً. متى نبدأ؟».

قال ستون: «سنبدأ الآن، ونستمر حتى وقت الغداء. الآن، التقط الكمان، ولِنرَ مدى جودة وضعيّتك».

في الساعات الثلاث التالية الممتدة من نهاية الفطور وحتى منتصف الفترة التي تفصلهما عن الغداء، تعلّم شارلوك كيفية الوقوف بشكل ملائم، وكيفية حمل الكمان وقَوسه، حتى إنه عزف نوتات قليلة بدت أشبه بصوت هرّ يتم خنقه، ولكن راف ("نادِني راف». كان قد قال عندما ناداه شارلوك يا سيد ستون. «عندما تقول يا سيد ستون يجعلني ذلك أبدو أشبه بمدير مصرف»). قال له إن لا أهمية لذلك. فهدف الدورة الصباحية_ كما أشار_ ليس تعلُّم العزف المثالي على الكمان، بل كيفية العزف. «أريدك أن تكون مسترخياً، ومستعداً في الوقت نفسه. أريد أن تعرف ذراعاك وأصابعك وكتفاك كل الوضعيات مع الكمان. أريد أن يبدو الكمان امتداداً لجسدك عندما ننتهي».

في نهاية الوقت، شعر شارلوك بألمٍ في أماكن من جسده لم يكن يعتقد أنها تحتوي على عضلات، وتشنّج عُنُقه، وخدِرت أصابعه حيث كانت تضغط على الأوتار [11] . فاعترض قائلاً: «كنت واقفاً في مكان واحد، فلماذا أشعر بأنني خضتُ سباقاً!؟».

أجاب راف: «لا يشمل التدريب بالضرورة التحرك فقط، إذ يتعلق الأمر بتوتر العضلات واسترخائها. أنت لا ترى موسيقيين بدينين في غالب الأحيان لأن عضلاتهم تتحرك باستمرار؛ بالرغم من جلوسهم أو وقوفهم في مكان واحد». وتوقف، وظهرت تجاعيد على وجهه بسبب التفكير، ثم قال أخيراً: «باستثناء العازفين على آلات النَّقر الموسيقية؛ فهم يسمنون».

«ماذا عن المرحلة التالية؟».

أجاب راف: «في المرحلة التالية، علينا تناول الغداء».

أثناء إعادة راف حقيبة كمانه إلى حُجرته، ذهب شارلوك للبحث عن أميوس غروي. كان قد خرج من عُزلته، ولكن لم يكن هناك أي أثر لفرجينيا. وأثناء جلوس الجميع إلى الطاولة المشتركة، عرّف شارلوك غروي براف ستون.

«يُسعدني التعرّف بك يا سيدي». قال غروي مصافحاً راف. «أنت موسيقي كما أرى؛ عازف كمان».

«هل سمعتَني؟». سأل راف مبتسماً.

«لا، ولكن يوجد على كتفك غبار حديث العهد. ووفقاً لخبرتي، إن وجود غبار على سترة الرجل يعني أمراً من ثلاثة أمور: إما أن يكون مدرّساً، أو يلعب البلياردو، أو يعزف على الكمان. ولكن، لا وجود لأية طاولة بلياردو على متن السفينة وفقاً لمعلوماتي، ولا عِلم لي بوجود أطفال على متن هذه السفينة بما يكفي لإعداد صف دراسي لهم».

تحقق شارلوك من سترته. وبالفعل، كانت هناك طبقة رقيقة من الغبار على كتفه، ففرك بعضه بين إبهامه وسبّابته، وكان كهرمانيّ اللون ودَبِقاً.

«هذا ليس طبشوراً، ما هذا؟».

«كولوفون». شرح راف.

«إنه نوع من أنواع الراتينج». قاطع غروي. «وهو يُعرف لدى الموسيقيين بالراتينج القلفونية. يُجمع عن أشجار الصنوبر، ويُغلى بعد ذلك، ويصفّى قبل أن يُحوَّل إلى قُرص يشبه الصابونة. ويطلي عازفو الكمان أقواسهم به. والالتصاق الذي يتسبب به الراتينج بين الأوتار وقوس الكمان هو ما يجعل الأوتار تتذبذب. وبالطبع، يجفّ الراتينج ويصبح غباراً يستقرّ على الكتف بما أنها العضو الأكثر قرباً إلى الآلة الموسيقية». وألقى نظرة سريعة على سترة شارلوك، ثم تجهّم وجهه. «كنتَ تعزف على الكمان أيضاً. لا، كنتَ تتعلّم العزف على الكمان».

«كان راف _ السيد ستون _ يعلّمني».

«أنت لا تمانع يا سيد غروي، أليس كذلك؟». سأل راف. «لقد عرضتُ عليه مساعدة كلَينا على قضاء الوقت».

زمجر غروي: «لا أُولي الموسيقى أبداً اهتماماً كبيراً. واللحن الوحيد الذي أعرفه هو نشيدكم الوطني، ويعود سبب ذلك إلى وقوف مواطنيكم عندما يُعزَف». وألقى نظرة سريعة على شارلوك من تحت حاجبَين كثَّين. «كنت أعتزم متابعة دراستنا أثناء وجودنا على متن السفينة، ولكن فرجينيا لا تتكيّف جيداً مع الرحلة». وهزّ رأسه. «لا أعرف حقاً إن كنت قد ذكرت الأمر سابقاً، ولكن والدتها _ زوجتي _ تُوفّيت أثناء الرحلة الأخيرة عبر الأطلسي التي قمنا بها من نيويورك إلى ليفربول. وتلك الذكرى تُرخي بثقلها على عقلها، وعلى عقلي». وتنهّد. «الذاكرة أمر غريب. إذ يمكن للمرء أن يتجاهل بعض الذكرياتِ وينساها، ولكنّ أبسط الأمور قد تعيدها إلى الواجهة ثانيةً. في العادة، إن الروائح والأصوات هي التي تُعيد الذِّكريات إلى

الذِّهن أكثر من سواها. لم تتكلم جيني عن والدتها منذ مدة، ولكن رائحة المحيط والسفينة أعادت إليها الذِّكريات بقوة».

«آسف». قال شارلوك. لقد بدا ما قاله غير ملائم، ولكنه لم يستطع التفكير في شيء آخر يقوله.

تابع غروي: «تحدث أمور سيئة للناس. إنها الحقيقة الوحيدة المسلَّم بها بالنسبة إلى البشر». وتنهّد. «سأعتمد عليك لتقضي وقتاً في ترجمة ذلك الكتاب الذي أعطاك إيّاه شقيقك، وسأحاول قضاء ساعة أو ساعتَين في اليوم معك للتحدث عمّا يمكن لعينَيك أو أُذُنَيك أن تقوله لك أثناء وجودك هنا على هذه السفينة؛ ولكن فرص التفكير الملائم ضئيلة. أما ما تبقى من الوقت فملك لك، استعمله كما تشاء».

تابع الجميع تناول الطعام بصمت غير مريح. وحالما أنهوا، استأذن شارلوك للانصراف. فقد شعر بأنه خيّب أمل أميوس غروي بطريقة ما. لذا، عاد مباشرةً إلى دروس العزف على الكمان؛ غير راغبٍ في تفاقم هذه الخيبة. لقد اعتبر شارلوك أن عازف الكمان قد فهم ما يدور في خُلده؛ بسبب قيامه بالإيماء برأسه قليلاً.

لقد قضى ساعة على كرسيّ على سطح السفينة، قارئاً جمهورية أفلاطون الموضوع بلغة يونانية صعبة. كانت عملية الترجمة من اليونانية إلى الإنكليزية في رأسه عملاً شاقّاً جداً، لدرجة أنه كاد لا يفهم معنى ما يقرأه. تمكّن من ترجمة الكلمات على نحو صحيح، ولكنه كان يفقد صلة الكلمات ببعضها في نهاية الجملة، ويعجز عن اكتشاف المعنى.

وفي إحدى المراحل، رفع نظره أثناء صراعه مع فعل مُتَعَدٍّ بالغ الصعوبة، ورأى مُضيفاً ببِذلة رسمية بيضاء واقفاً بجانبه وهو يحمل صينية. إنه الرجل نفسه الذي ساعده في الوُجهات، وخدم مائدة العشاء في الليلة السابقة.

«هل يمكنني إحضار أي شيء لك يا سيدي؟». سأل المضيف.

«ألديك قاموس للّغة اليونانية؟».

لم يتبدل وجه المضيف الأسمر، وقال: «أخشى أنني لا أستطيع مساعدتك بهذا الأمر يا سيدي. في الواقع، لدينا مكتبة على متن السفينة، ولكنني لا أعتقد أنها تحتوي على قاموس للّغة اليونانية على رفوفها؛ ولا سيما على قاموس للّغة اليونانية القديمة، وهذا ما أنت بحاجة إليه كما أعتقد».

«هل تعرف كل الكتب الموجودة في المكتبة؟». سأل شارلوك.

أجاب المضيف: «أعمل على متن هذه السفينة منذ إطلاقها. لذا، لا أعرف كل كتاب في المكتبة فحسب، بل كل كوكتيل على قائمة الطعام، وكل لوح خشبيّ على سطح السفينة، وكل بِرشام [12] في هيكل السفينة، أليس كذلك؟». وأومأ برأسه. «أدعى غريفنز يا سيدي. إذا كنت بحاجة إلى أي شيء، فليس عليك سوى أن تطلب».

جُذبت نظرة شارلوك المحدِّقة في اتجاه اليد التي تحمل الصينية؛ فقد كانت تحمل وشماً يمتد من المِعصم في اتجاه الأعلى، حيث يختفي داخل ظُلمة كُمّ الرجل. لقد بدا الوشم لشارلوك أشبه بنَقشٍ لحراشف بالغة الصِّغر زرقاء اللون ومرقَّطة بلون ذهبي يسطع تحت أشعة الشمس.

إنه اللون نفسه الذي رآه شارلوك على مِعصم الشكل البشري الذي كان يراقبه من الظلال في اليوم السابق. أهي مصادفة أم لا؟

لاحظ غريفنز اتجاه نظرة شارلوك المحدّقة فسأله: «هل هناك خطب ما يا سيدي؟».

«آسف». وفكّر شارلوك بسرعة. من الواضح أنه رأى أمراً غريباً، ولكن عليه إخفاء زلّته. «كنت أنظر إلى... وشمك ليس إلا. لدى شقيقي... وشم مماثل». واعتذر من مايكروفت في ذهنه بسرعة؛ لأنه آخر شخص في العالم يتوقع منه شارلوك أن يحمل وشماً، باستثناء العمة آنا ربما.

شرح غريفنز: «لقد رُسم لي في هونغ كونغ؛ قبل الانضمام إلى سكوتيا».

«إنه جميل».

«الرجل الذي رسمه لي صينيّ قصير القامة، ومجعّد البشرة، يُقيم في الأزقة الخلفية لساحة السوق في كولون. ولكنه ذائع الصيت بين البحّارة في مختلف أنحاء العالم. أُقسم إن أحداً لا يُجيد رسم مثل هذا الوشم في أي مكان من العالم. وهو يستخدم ألواناً لا يمكن لشخص سواه مزجها. كلما رأيتُ وشماً رسمه لبحّار آخر، أو إذا رأى بحّار آخر وشمي، يومئ كل منا برأسه للآخر؛ مُدركَين أننا مررنا بذلك الصيني القصير نفسه. الأمر أشبه بالانتماء إلى نادٍ واحد، أليس كذلك؟».

سأل شارلوك: «لماذا يحمل العديد من البحّارة أوشاماً؟ فوفقاً لمعلوماتي، كل عضو في هذا الطاقم يحمل وشماً من نوع ما، وكل منها مختلف عن الآخر».

ألقى غريفنز نظرة سريعة على البحر وأجاب: «هذا ليس موضوعاً نميل إلى التحدث عنه يا سيدي؛ ولا سيما مع الركّاب. سامحني على

فظاظتي، ولكن إذا غرقت السفينة، فقد يتطلب الأمر بعض الوقت لنقل جثث البحّارة إلى الشاطئ؛ إذا افترضنا نقلها. وهناك حالات لم يتم فيها التعرّف إلى الجثث حتى من أقرب المقرَّبين. إذ إن المياه المالحة، والطقس القاسي، والأسماك في الأعماق كلها تلعب دوراً في تشويه الجثث؛ إذا فهمتَ ما أعنيه. لكن الأوشام تدوم لمدة أطول. لذلك، هكذا بدأ الأمر؛ كوسيلة تعرّف. تمنحنا الأوشام بعض الراحة؛ عِلماً منا بأننا متى فارقنا الحياة فستحظى عائلاتنا على الأقل بالفرصة لدفننا بشكل لائق».

«أوه». أومأ شارلوك برأسه. «ما تقوله منطقي كما أفترض. شكراً».

فأومأ غريفنز برأسه قائلاً: «في خدمتك يا سيدي. هل ستبقى هنا لبعض الوقت؟».

«وهل هناك مكان آخر لأذهب إليه؟».

« إذاً، سأتحقق مما إذا كنت بحاجة إلى شيء ما في وقت لاحق».

وابتعد باحثاً عن ركّاب آخرين ليخدمهم، ولكنه ترك شارلوك غارقاً في أفكاره. إذا كان الرجلَ الذي راقبه من الظلال _ إذا كان يراقَب من الظلال، وهو افتراض بحد ذاته يستند إلى جرّ أقدام وحركة_ إذاً، لماذا يبدو مهتماً بما إذا كان شارلوك سيبقى على سطح السفينة أم لا؟ هل يريد أن يبحث في حُجرة شارلوك عن إلماعة ما تشير إلى ما يعرفه شارلوك؟ أم إنه يعتزم اللحاق بأميوس غروي وفرجينيا؟ أيّاً تكن الإجابة، لم يكن بإمكان شارلوك البقاء في مكانه. لذا، نهض على الفور، وعبَر سطح السفينة، ونزل الدرَج إلى الممرّ حيث تقع حُجرته.

كان باب حُجرته مفتوحاً قليلاً. هل هو المضيف يبحث فيها، أم إن أميوس غروي في الداخل؟

دنا شارلوك من الباب محاولاً النظر عبر الفتحة الضيّقة ليرى ما يحدث في الداخل. فإذا كان غريفنز في الغرفة فسيذهب إذاً لإحضار أميوس غروي وإطلاعه على ما يجري.

ولكن شيئاً ما دفعه بقوة، فسقط إلى الأمام، ودخل الحُجرة متعثّراً. دفعة أخرى ووقع أرضاً، وتمكن من تجنّب الاصطدام بحافة السرير الطبقي بأن برم رأسه وتحرك بشكل لولبي. وشعر بوجهه يحتك بالسجادة أثناء وقوعه عليها، فاستدار ناظراً إلى مدخل الباب.

أغلق غريفنز الباب وراءه، وأصبحت عيناه الزرقاوان باهتتا اللون باردتَين وقاسيتَين ببرودة الرُّخام وقساوته.

«تعتقد أنك ذكي، أليس كذلك؟». قال غريفنز بحدّة، فيما التقط

شارلوك أنفاسه أثناء انتقال المضيف المفاجئ من تأدية الخدمات إلى الغضب. «لقد سحقتُ رجالاً أفضل منك إلى نصفَين. أتعتقد أنني لم أُدرك أنك ستتبعني إلى هنا لتتحقق مما إذا كنت أفتش حُجرتك؟ لقد انتبهت إلى تحققك من وشمي، وأدركتُ من عينَيك معرفتَك أنه الوشم الذي رأيتَه يوم أمس عندما كنت أراقبكم أنتم الثلاثة. لذلك، جعلتُك تظن أنني سأفتّش حُجرتك، واستدرجتُك إلى هنا».

«لأي هدف؟». سأل شارلوك وهو يجد صعوبة في التقاط أنفاسه؛ فيما كان ممدَّداً على الأرض بشكل ملتوٍ.

«لإنزالك من السفينة. أنت، ومن ثم الآخرَين».

«لإنزالنا من هذه السفينة!؟». تطلّب الأمر ثانية واحدة أو ثانيتَين ليدرك عقل شارلوك ما يحصل. «أتعني... رمينا من السفينة إلى المحيط الأطلسي؟ ولكنهم سيلاحظون غيابنا!!».

«أجل. حتى إن الرّبان قد يستدير ويعود أدراجه بحثاً عنكم، ولكن ذلك لن يُجدي نفعاً. إذ لن تبقوا على قَيد الحياة في تلك المياه لمدة تزيد عن نصف ساعة».

كان عقل شارلوك يفكر بسرعة، محاولاً معرفة كيفية حدوث هذا الأمر. «أنت لستَ جزءاً من المكيدة. لا يمكن أن تكون كذلك. إذ لم يكن الرجال الذين كنا نتعقّبهم يعرفون السفينة التي سنُبحر على متنها، وإذا كنا سنُبحر على متن سفينة أم لا».

«كل ما أعرفه هو أنهم دفعوا لي لمراقبة ثلاثة ركّاب؛ رجل ضخم البنية يعتمر قبّعة بيضاء وصغيرين، وبرفقة رجل آخر ربما، رجل سمين. ثلث المال مسبقاً، والثلثان المتبقيان إذا قرأوا تقريراً في الصحف يتحدث عن اختفاء ثلاثة ركّاب أو أربعة عن متن سفينة».

«ولكن، كيف عرفوا أننا سنُبحر على متن هذه السفينة؟». سأل شارلوك، ومن ثم أدرك الأمر. «لقد دفعوا لشخص ما على متن كل سفينة، أليس كذلك؟».

وأومأ غريفنز برأسه. «كل سفينة مغادرة في الأيام القليلة التالية بأية حال. أعتقد ذلك. وقد عثروا على معظمنا في المكان نفسه؛ في مقهى يتسكع فيه مضيفو السفن بين رحلة وأخرى».

«ولكن، كم كلّفهم ذلك؟».

فهز غريفنز كتفَيه مجيباً: «هذه ليست مشكلتي ما داموا سيدفعون لي مالاً كافياً عندما أصل إلى نيويورك. لم يكونوا مفتقرين إلى المال كما

يبدو». ومدّ يده وأمسك شعر شارلوك، وتابع: «قالوا إنهم سيدفعون لي مبلغاً إضافياً إذا حملتُك على إخباري بما تعرفه عن مخططهم. يمكنك القيام بذلك بالطريقة السهلة؛ من دون ألم، وعندها سأقدّم لك صنيعاً وأحرص على أن تكون فاقد الوعي عندما أرميك من السفينة. أو يمكنك القيام بذلك بالطريقة الصعبة، وفي هذه الحالة سأجد نفسي مضطراً لبتر أصابعك بقاطع سيجار، الواحدة تِلوَ الأخرى، حتى تخبرني، ومن ثم سأرميك عن متن السفينة فاقد الوعي أيضاً».

هدّد شارلوك: «سأصرخ، وسيسمع الناس صراخي».

قال غريفنز: «ألم أخبرك؟ بدأتُ عملي كتاجر للوازم السفن، وصانع أشرعة، قبل أن أصبح مضيفاً. لن تنسى أصابعك أبداً ملمس إبرة حديدية تخترق القماش. سأقطب شفتَيك معاً وأُطبقهما بخيط سميك أيها الفتى؛ لمجرد متعة النظر فحسب إلى عينَيك المذعورتَين عندما أرمي بك عن متن السفينة». وصمت قليلاً ثم تابع: «الآن، أَجب عن السؤال. كم تعرف عن مخططات أولئك الأميركيين؟».

وانحنى إلى الأمام، وأمسك جيداً بشعر شارلوك، فبدا الوشم الأزرق على مِعصمه متوهّجاً في ظُلمة الحُجرة.

عندها، انهال شارلوك على غريفنز ضرباً بقدمه؛ مستهدفاً منطقة أعضائه التناسلية. فانحنى المضيف الأمام كثيراً، آنّاً من الألم.

حينها، وقف شارلوك على قدمَيه، وأمسك غريفنز من كتفه، وسحبه إلى الأمام، فوقع الرجل، وتلمّس شارلوك طريقه للمرور بجانبه وعبور الباب.

أمسكت يد المضيف بكاحل شارلوك، وسحبه بقوة جارّاً إياه إلى داخل الغرفة. فاستدار شارلوك، وانهال عليه ضرباً بقدمه الحرة، مُصيباً وجهه؛ فوق عينه مباشرة، فأفلت شارلوك لاعناً، ووقع على ظهره.

كان شارلوك يعلم أنه يتعيّن عليه الفرار، ومن ثم الوصول إلى أميوس غروي. لذا، اندفع في اتجاه الباب وفتحه، فدخل الضوءُ المنبثق من مصابيح الزيت المعلَّقة على جدار الممرّ إلى الغرفة كما لو أنه ضباب. عندها، خرج شارلوك دافعاً الباب ومُغلِقاً إيّاه وراءه، وركض عبر الممر. وبعد قليل، سمع صوتَ اصطدام باب الحُجرة بالجدار الداخلي أثناء قيام غريفنز بفتحه، ووقْعَ خطى مكتوماً مع قيام المضيف بتعقّبه. انتهى الممر في ملتقى طرق، فذهب شارلوك يساراً؛ متوجهاً إلى الدرج المؤدي إلى سطح السفينة وإلى الأمان. ولكن، لا بد أن يكون قد سلك الطريق الخطأ لأنه لم يرَ الدرج، وقادته الممرات إلى مكان أعمق وأعمق داخل أحشاء السفينة.

مواجِهاً خيار سلوك بيت درَج يؤدي إلى الأسفل أو العودة أدراجه، اختار النزول. لم يَعُد موجوداً في منطقة الركّاب بالتأكيد: الجدران مصنوعة من خشب غير مُتقَن الصنع، ولا ألواح تزيين، ومصابيح الزيت الصفراء غير منتظمة الاشتعال، وهناك خشب عارٍ فقط تحت قدمَيه، وليس سجاداً طريّاً.

من مكان ما وراءه، سمع شارلوك وَقع خطى. كان غريفنز لا يزال في إثره، لذا واصل التحرك.

بات صوت محركات السفينة أقرب الآن؛ كما لو أنه صوتٌ مكتوم لقلبٍ ميكانيكي ضخم، وأصبح الجوّ أكثر حرارة بشكل ملحوظ. كان شارلوك يتصبب عرقاً بسبب المطاردة من جهة، وبسبب البخار في الجوّ من جهة ثانية.

وحين انعطف عند إحدى الزوايا، وجد باباً كبيراً مُغلَقاً أمامه. ألقى نظرة سريعة من فوق كتفه، ولكن لم تكن العودة مسألة مطروحة؛ وكل ما يمكنه القيام به هو مواصلة التقدم.

ففتح الباب وعبره؛ إلى الجحيم.

الفصل التاسع

لقد صدمته الحرارة في وجهه وكادت توقعه أرضاً. بدا الأمر أشبه بالمرور أمام بابِ مَخبَز مفتوح، وشعر شارلوك بتغضّن شعره القصير على عُنُقه، وسيلان العرَق على وجهه وعُنُقه. كان الهواء بحد ذاته مشبعاً ببخار الماء وشديد الحرارة؛ لدرجة أنه واجه صعوبة في التقاط أنفاسه.

وفُتح المدخلُ على شرفة حديدية تُطلّ على مكانٍ كهفيّ مليء بالآلات: مكابِس، وعجَلات، ومحاور عجَلات تتحرك كلها في اتجاهات مختلفة وبسرعات مختلفة؛ جَنباً إلى جَنْب، إلى الأعلى والأسفل، بشكل مستدير. إنها غرفة محرك سكوتيا الذي يزوّد عَجَلتي الدفع الضخمتين على جانبي السفينة بالطاقة. وعرف شارلوك بوجود غرفةِ مِرجلٍ منفصلة في مكان قريب؛ حيث يجرف البحّارة الفحم إلى داخل مَوقد ضخم لحرقه وإنتاج الحرارة التي تحوّل الماء في المِرجَل إلى بخار، وتدفعه عبر شبكة من الأنابيب إلى هذه الغرفة، حيث تحوّل المكابِس والعَجَلات ضغط البخار إلى حركة دائرية تُنقل إلى عجَلتي الدفع عبر محاور العجَلتين. إذا كانت الحرارة شديدة جداً هنا في الداخل، فسيكون العمل في غرفة المِرجل إذاً أسوأ من العمل داخل بركان. كيف يستطيع الرجال تحمّل الأمر؟!

كان الضجيج مُصِمّاً للآذان؛ فهو مزيج من القعقعة، والهسهسة، والأصوات المكتومة؛ مما جعل شارلوك يشعر بألم في رأسه. لقد تمكن من الشعور بالذبذبة حين وضع يده على إطار الباب، وكذلك في الهواء نفسه. لقد بدا الأمر أشبه بالتعرض للكمات على الصدر تكراراً. سيكون من المستحيل تقريباً إجراء أي نوع من الأحاديث في ظروف مماثلة، وسيتوجب على الرجال العاملين هنا التواصل بواسطة لغة الإشارة؛ والتعرض للصَّمَم خطر يهدّدهم بالتأكيد.

كان هناك ضوء ينبعث من مصابيح زيت قذِرة مدلّاة من الجدران في أماكن منوَّعة، ومن مصبَّعات حديدية في السقف تُدخل القليل من النور من العالم الفوقيّ، ولكن سرعان ما يتلاشى النور بسرعة في الجوّ المُثقَل بالدخان والغبار والبخار. لذا، أينما جال شارلوك ببصره رأى بقعاً كبيرة من الظلال السوداء. وكان الهواء يدخل أيضاً عبر المصبَّعات على صورة نسيم معتدل البرودة مرحَّب به من قِبَل أي شخص واقف تحتها. فيما يدور غبار الفحم وبخار الماء في الجوّ في دوّامة؛ وكأنهما أشباح مضطربة وغير واثقة من الطريق التي يتعيّن عليها سلوكه.

نظر شارلوك حوله بسرعة؛ محاولاً اكتشاف الطريق التي يمكنه سلوكها. وبدا له كما لو أن غرفة المحرك تشغل عدة مستويات داخل مركز السفينة. فالمماشي مثبَّتة بالجدران، وتعبر من جانب إلى آخر على مستويات متنوّعة. فيما السلالم الحديدية تؤدي إلى ممرات، وتعبر دعامات حديدية ضخمة الغرفة، مانحةً إيّاها بعض المتانة، وموفّرةً مكاناً لتثبيت مختلف الأنابيب والعجَلات. يبدو كل شيء مصمَّماً بطريقة تتيح لرجل مزوَّد بمفتاح ربط بلوغ أي أنبوب، وأي مِكبَس، وأي محور عجَلة؛ في حال حدوث عطل ما.

وتنتهي بعض الأنابيب الأصغر حجماً في آلات لقياس الضغط؛ وهي أدوات كبيرة بحجم يدَي شارلوك المكوَّرتَين معاً، وتحتوي على أقراص مدرَّجة تشير إلى ضغط البخار في الأنابيب. ويمكن للمهندسين_ كما هو مفترَض_ التحقق من الضغط، ومعرفة ما إذا كان محرك السفينة بحاجة إلى المزيد من الفحم، وإذا كان الضغط يرتفع بسرعة كبيرة ويجب تنفيسه. ولأنابيب أخرى عجَلات معدنية كبيرة موصولة بها تَفتح صِمامات على الأرجح أو تُقفلها، مُدخلةً البخار إلى أنابيب مختلفة بمعدلات متفاوتة.

ناظراً إلى الأعلى، تمكن شارلوك من رؤية وعاءَي ضغط كبيرَين في السقف يؤدّي إليهما العديد من الأنابيب. لقد بدا الأمر كما لو أنهما يفتحان على مستوى سطح السفينة، وتطلّب منه الأمر لحظات قليلة ليكتشف أنهما ربما يؤدّيان إلى مِدخنتَي سكوتي؛ موفّرَين وسيلةَ خروج للبخار الذي أدّى عمله.

كان كل شيء مصنوعاً من معدن سميك أسود وحارٍّ لدى لمسه، وكل شيء مثبَّتاً ببراشيم بحجم إبهام شارلوك. أما الآلات فكانت تتمايل وسط ضباب الحرارة الناجمة عن الفحم المحترق، فيتماوج الهواء ويجعل معرفة المسافات أمراً صعباً.

وحملت الرائحة المنتشرة في غرفة المحرك شارلوك على الشعور بوَخز غير مريح في أنفه. إنها رائحة كبريتية بصفة رئيسة، وأشبه برائحة بَيض متعفِّن. ولكنّ هناك رائحة قَطرانية أيضاً، وشيئاً آخر ذكّر شارلوك بمَذاق الدم في فمه، وهو على الأرجح حديد ساخن.

فجأة، خرج شكل بشري من الظلال، فجفل شارلوك متوقعاً أن يكون غريفنز، ولكنه لم يكن سوى فرد آخر من الطاقم، مهندس. كان عارياً حتى الخصر، ومفتول العضلات، وبشرته مخطَّطة بالعرَق حيث لم يجعلها الفحم سوداء، فبدا وجهه وجسده مغطّيَين بمجموعات من الخطوط العريضة

السوداء والبيضاء؛ كما لو أنها الخطوط التي تظهر على الحمار الوحشي الذي سبق لشارلوك أن رآه في كتب عن أفريقيا في مكتبة والده. وكان سرواله المصنوع من قماش قطني مُشبَع بالعرَق، ويحمل رَفشاً على كتفه. يوحي سلوكه برمّته _ طريقة سيره، وتعابير وجهه؛ كل شيء _ بإصابته بألم في العظام. راقبه شارلوك أثناء مروره أمام المحرك الهادر واختفائه وراء باب آخر من دون رفع نظره؛ متوجّهاً ربما نحو أُرجوحة شبكية في أعماق السفينة المظلمة.

مُدركاً أن غريفنز وراءه على بُعد لحظات فقط، اندفع شارلوك على امتداد الشرفة الحديدية حتى وصل إلى سلّم يؤدّي إلى الأعلى والأسفل. أي طريق يسلك؟ الاتجاه إلى الأعلى قد يأخذه نحو سطح السفينة، ولكنه قد لا يخرج إلى السطح. لم يسبق له بالتأكيد أن رأى مهندسين أو وقّادين على السطح. ربما يحظَّر عليهم الظهور علناً؛ لقد حُكم عليهم بقضاء الرحلة بأكملها في الظلمة تحت السطح. إذاً، يبقى أمامه خيار التوجه إلى الأسفل، وعليه أن يأمل بوجود طرق أخرى تتيح له الخروج من غرفة المحرك.

نزل شارلوك السلّم الحديدي بمشقة، وبأسرع طريقة ممكنة، واحترقت أصابعه بسبب الدرَجات الحارّة. وانتقلت ذبذبة المحركات عبر يدَيه حتى أنه شعر بألم في أسنانه. لقد جعلته الحرارة وقلة الهواء الذي يمكن تنشّقه يشعر بالوَهَن، وقد انزلقت يداه المتعرّقتان عن الدرَجات مرتَين وكاد يقع. وفي النهاية، وصل إلى القعر، فوضع جبينه على إحدى درجات السلّم ممتنّاً، قبل أن يدفع بنفسه إلى الأمام ويتقدم.

سمع شارلوك صوت باب يفتح بقوة في الأعلى، وتمكّن من سماع صوت اصطدامه بالجدار، ثم ساد الصمت للحظات، قبل أن تُحدث قدمان تنتعلان حذاء صليلاً لدى وطئهما على المصبَّعة المعدنية.

انسلّ شارلوك إلى داخل ممرّ قائم بين جزءَين كبيرَين من المحرك؛ كُتلتين غير منتظمتين من حديد أسود مزخرَف بأنابيب. ولمست كتفه أحد الأنابيب فجَفل؛ إذ كان حارّاً لدرجة الغليان.

انتهى الممرّ عند صفيحة معدنية مقوَّسة مكسوّة ببراشيم؛ إنها جزء من وعاءِ ضغطٍ من نوع ما حسبما يبدو. إنه طريق مسدود، ولا يوجد مَخرج.

لقد حجبته الظلال، فحاول التخفي عن الأنظار والتزام الهدوء قدر الإمكان.

سمع وَقع خطى على السلّم، ثم ساد الصمت بعد ذلك مع بلوغ

القادم الجديد الأرض.

صاح غريفنز: «أيها الفتى، لِنتحدثْ عن الأمر. كانت بدايتنا سيّئة، وقد بالغت في رد فعلي. اخرُج إلى الضوء، أنت فتى صالح، ويمكننا تبادل أطراف الحديث كصديقَين قديمَين. سنضحك على كل ما جرى ذات يوم، أعِدك بذلك».

لم يثق شارلوك بكلمات الرجل، ولم يثق بنبرة صوته. وإذا خرج فهو سيُقتل حتماً.

تابع غريفنز: «حسناً، حسناً إذاً». كان من الصعب سماعه وسط القعقعة والأصوات المكتومة للآلات. «أنت خائف. أفهم ذلك، فأنت تعتقد أنني سأُلحق بك الأذى. حسناً، لِنتحدث عن المال. لقد دُفع لي المال لرميك من السفينة، هذا ما تعرفه حتى الآن. ولكنني رجل عمليّ، رجل أعمال إذا كنتَ تصدّق هذا. وأنا واثق من أنه باستطاعة الأميركي ضخم البنية عرض مبلغ أكبر من المبلغ الذي دفعه لي الرجال الذين استخدموني. لِنصعدْ معاً لرؤيته، وللتوصل إلى حل للأمر كرجال. يمكنه تحرير شيك مصرفي لي، وسأنسى أمر ثلاثتكم. كيف يبدو لك هذا الاقتراح؟».

لقد بدا الأمر خُدعة، ولكن شارلوك لم يكن غبيّاً ليقول لا، بل لزم الصمت.

وفي مكان ما قريب، فُتح صمام وأطلق خطاً من البخار بهسهسة مُصِمّة للآذان.

«أيها الفتى، أما زالت هناك؟». وبدا الصوت أكثر قُرباً هذه المرة؛ كما لو أن غريفنز قد تحرك. إنه يبحث عن شارلوك، غير مكتفٍ بإمكانية قيام كلماته المطَمْئنة بإقناع شارلوك بالخروج من مخبئه. «أعرف أننا بدأنا بشكل خاطئ، ولكنني أريد التعويض عليك. اخرج وتكلّم معي».

أدرك شارلوك أن ظهره يضغط على أنبوب، أو على جزء من المحرك يصدر البخار. فقد كانت الحرارة تنتشر عبر سترته وقميصه مُقرِّحةً ظهره. لذا، تقدّم إلى الأمام ببطء؛ إذ ينبغي له الابتعاد قبل أن يتعرّض لحرق كبير؛ وظهر قسم من جسده في رُقعة الضوء. فجأة، اصطدمت قدمه بجزء من الأنبوب، فرنّ الصوت في أنحاء غرفة المحرك كالجرس.

«إذاً، أنت هنا». لقد بدا غريفنز كما لو أنه على بُعد خطوات قليلة منه. «حسناً، إنها البداية بأية حال».

ووقع ظل على امتداد فُتحة الممرّ حيث يختبئ شارلوك. وفي الضوء الرمادي المتسلل عبر المصبَّعات في الأعلى، تمكن شارلوك من رؤية الصورة

الظلية لرأس غريفنز وكتفَيه. كان يحمل بيده شيئاً ما مرفوعاً فوق رأسه، وبدا مستعدّاً للانقضاض. لقد بدا ما يحمله أشبه بمِفتاح ربط؛ مِفتاح كبير وثقيل جداً.

خطر ببال شارلوك أنه لن يتوجب على غريفنز الشعور بالقلق بشأن كيفية إخراج جثته إلى السطح ورميها عن متن السفينة. فهو موجود في الأسفل في أعماق السفينة، وكل ما يتعيّن عليه القيام به هو رشوة الوقّادين بقليل من الشِّلنات للإشاحة بأنظارهم، وبعد ذلك سيتحوَّل شارلوك إلى ذرّات رمل وغبار.

«اخرج، اخرج أينما كنت». صاح غريفنز، وحجب جسمه الضخم كل الضوء الداخل إلى الممر، وبدا كما لو أنه يتحسس مكان وجود شارلوك. إذ بدلاً من متابعة السير، انعطف إلى داخل الممر.

أخفض شارلوك رأسه محاولاً البقاء في الظلال. فبعد ثوانٍ قليلة سيراه غريفنز، وحينئذٍ سينتهي كل شيء.

لمست يده الأرض الساخنة، وتطلّبه الأمر ثواني قليلة ليدرك أنها انزلقت بجانب المكان حيث يتصل بالأرض الأنبوبُ الذي يلتصق به. حرّك يده في الأرجاء مستكشفاً، فأدرك أن الأنبوب لا يمتد نزولاً إلى الأرض كما يبدو، بل يتقوّس في الأسفل، مُسنَداً إلى دِعامات مثبَّتة بالأرض. ولكن، هناك مكان كافٍ لينزلق شارلوك تحته. وأَمِل في أن يكون هناك مَخرج في الجانب الآخر، وإلا فسيبقى عالقاً كما هو حاله الآن؛ ولكن مع المزيد من الشعور بعدم الراحة.

نزل شارلوك بسرعة على يدَيه وركبتَيه، ومن ثم تمدد ووجهه نحو الأسفل. كانت الأرض حارة على بشرته بشكل غير مريح، وقميصه مبلَّلاً بالعرَق. التصق بالأرض أثناء محاولته الانزلاق تحت الآلة، ثم مدّ يده والتقط إحدى الدِّعامات التي تُسنِدها، آملاً في أن يتمكن من سحب نفسه على امتدادها، ولكن الدِّعامة أحرقت يده فصاح متألماً.

«آه!». واندفع غريفنز إلى وسط الممر، ومِفتاح الربط الذي يحمله يُحدث صليلاً على الأنابيب. «أين أنت أيها الجرو الشَّرِس؟».

استجمع شارلوك شجاعته، ومدّ يده في اتجاه الدّعامة ثانيةً. أحرق المعدن راحة يده، ولكنه تحمّل الألم، وشدّ بقوة مُحدثاً صوت خربَشة بركبتَيه وقدمَيه أثناء جرّه نفسه تحت المحرك بعيداً عن غريفينز. فجأةً، شعر بوجود فسحة من الفراغ فوقه، فوقف على قدمَيه مرتجفاً. وحين حرّك يده، أدرك أنه في جزء مختلف من غرفة المحرك؛ في ممرّ آخر يُبعده عن

غريفنز، جدرانُه مصنوعة من مجموعات أنابيب معلَّقة ببعضها. عندها، عبر الممرّ راكضاً وباحثاً عن سُلّم أو باب.

سمع صوت صليل وراءه، فاستدار ورأى غريفنز واقفاً في الطرف الآخر للممرّ ذي الجدران المعدنية. وقد اصطدم مِفتاح الربط الذي يحمله بالدّعامة المعدنية القائمة.

«حسناً أيها الفتى. نهاية الخط. لقد قطعتَ شَوطاً كبيراً، ولكن حان الوقت لنتوقف. دَع غريفنز العجوز يضع حداً لبؤسك، ما رأيك؟».

راوغ شارلوك وسأله: «هل فات الأوان على تلك الصفقة التي ذكرتَها؟».

فابتسم غريفنز وقال: «لقد فات الأوان كثيراً. يُحزنني القول إنني لا أنكث بوعودي؛ فقد عقدتُ صفقة، وعليّ تنفيذها. لا يمكنني التراجع عن اتفاقيتي الآن، أليس كذلك؟ أي نوع من الرجال سيجعلني ذلك أبدو؟».

«إذاً، ما قلته لي كان مجرد كلمات».

أومأ غريفنز برأسه مصدّقاً على كلام شارلوك: «إنه مجرد كلمات. كان هناك على الدوام احتمال في أن تصدّق ما أقوله وتخرج بملء إرادتك، ولكنني لم أكن واثقاً من ذلك كثيراً».

وشرع بالسير إلى الأمام، ملوّحاً بمفتاح الربط.

عندها، نظر شارلوك حوله باضطراب بَحثاً عن شيء ما يمكنه القتال بواسطته. فالقتال هو خياره الوحيد كما يبدو.

أحدث مفتاح الربط صليلاً بعد اصطدامه بأنبوب حديدي، فتردد الصدى في أنحاء غرفة المحرك.

قال غريفنز بصوت هادئ ومنخفض: «انظر إليّ فحسب أيها الفتى. انظر إلى عينَيَّ، ولا تبحث عن وسيلة للفرار. تقبَّل المحتوم فحسب، أهذا مفهوم؟».

شعر شارلوك بهدوء صوت غريفنز، وبحرارة غرفة المحرك؛ مما أدخله في حالة من الذُّهول، فهز رأسه بشكل مفاجئ. ما كان لِيسمح للمضيف بالسيطرة عليه.

ألقى نظرة سريعة من جانب إلى آخر بطريقة يائسة، فلفت شيء ما نظره، شيء ما مُسنَد إلى السلّم؛ رَفش! لا بد أن أحد الوقّادين قد تركه هناك بعد انتهاء نوبة عمله. كان مِقبضه أسود بسبب غبار الفحم، ومجرفته الحديدية ذائبة جزئياً كما لو أنه دُفع به صُدفة إلى داخل ألسنة اللهب أثناء جرف الفحم. وبسرعة، مدّ شارلوك يده والتقطه، حاملاً إيّاه

على امتداد جسده والمجرفة بجانب وجهه.

«إذاً، لقد ارتفعت معنويات الجرو الشرِس، أليس كذلك؟». وارتسمت ابتسامة عريضة زائفة على وجه غريفنز. «هذا يعني أنه يتعيّن عليّ العمل بجهد أكبر للحصول على مالي».

اندفع غريفنز إلى الأمام، وانهال بِمفتاحِ الربط على شارلوك محاولاً إصابة جانب رأسه، فما كان من شارلوك إلاّ أن أعاد رأسه إلى الوراء، فأصاب مِفتاحُ الربط جانبَ أنبوب حديديّ، وتطايرت شرارات في الغرفة. شعر بها شارلوك وهي تُحرق وجهه، فمرّر يده على شعره للتحقق من عدم اشتعاله.

في تلك الأثناء، زمجر غريفنز، وسحب المفتاح إلى الوراء رافعاً إيّاه فوق رأسه، ثم انهال به على رأس شارلوك.

غير أن شارلوك صدّ الضربة برَفشه، واصطدم مِفتاح الربط بِمحور عجَلة خشبية وأحدث نقراً فيها في منتصفها، وكاد شارلوك يقع على ركبتَيه. لقد بدت الذبذبة المنتقلة من الرَّفش إلى ذراعيه على وشك اقتلاعهما. ولكنه تمكن من التلويح برَفشه مُصيباً عَظم رُكبة غريفنز بالمجرفة الحديدية، فصاح هذا الأخير، وترنّح إلى الوراء فاغراً فاه على شكل الحرف « O » وهو غير مصدِّق.

«أيها المتسوّل الصغير!». لعن غريفنز ملوِّحاً بمفتاح الربط كعصا، واندفع نحو شارلوك مجدداً.

عندها، رفع شارلوك الرَّفش لصدّ ضربة المفتاح، فاصطدمت الأداتان معاً مُحدثتَين صوتاً مدوّياً، وارتد غريفنز إلى الوراء، وطار مفتاح الربط الذي كان يمسكه بعيداً عنه مختفياً في ظلام غرفة المحرك. وفجأةً، أفلتت أصابع شارلوك الواهنة الرَّفش ورمته على الأرض.

كان غريفنز جاثماً جزئياً، وقد أمسك مِعصمه الأيمن بيده اليسرى، وعلى وجهه تكشيرة حيوانية. فاستغل شارلوك الفرصة واستدار راكضاً.

انتهى الممر عند ملتقى طرق آخر يتفرّع منه ممرّان آخران، إلى اليسار واليمين. فسلك شارلوك الممر الأيمن، واندفع راكضاً عبره، ولم يتوقف إلى أن وصل إلى سلّم يؤدي إلى الأعلى. لا أثر لغريفنز. شاعراً بالوَهَن في كتفَيه نتيجة صدّه ضربة المضيف القوية بمفتاح الربط، تسلّق شارلوك السلّم بصعوبة، وبلغ ممرّاً آخر.

كان الممرّ يمتد بشكل متوازٍ مع محور العجَلة الرئيس الذي يعبر الغرفة خارجاً من فجوة في جدارِ غرفة المحرك، ومسيِّراً إحدى عجَلتي

الدفع. لقد نسي شارلوك الاتجاه المؤدي إلى الأمام، وذلك المؤدي إلى الوراء. ولم يكن واثقاً مما إذا كان محور العَجَلة يُدير عجَلة الدفع هذه أو تلك؛ ربما الاثنتَين معاً. ولكن، لا أهمية لذلك في الواقع. فقد كان محور العَجَلة الذي يُضاهي جسمه في العرض يدور ببطء بجانبه، متلألئاً بسبب الشحم الذي يغطيه. وفي اتجاه وسط غرفة المحرك مجموعة معقَّدة من عجَلات نقل الحركة المُسنَّنة، والمكابس والحَدَبات الموازِنة التي تسيّرها.

منحنياً فوق الحاجز القائم على امتداد الممر، حاول رؤية مكان غريفنز. ولكن حظه كان عاثراً؛ فقد اختفى المضيف.

لم يَلفت العراك انتباه أحد كما يبدو. هل تكون غرفة المحرك مُقفِرة دائماً على هذا النحو؟ أم إن غريفنز رشا الطاقم ليبقى بعيداً أثناء تعامله مع شارلوك؟

أمسك شيء ما بكاحله وسحبه، فوقع على أرض الممرّ، شاعراً بأن هناك من يجرّ ساقه فوق الحافة. عندها، أمسك الحاجز بإحكام لإيقاف عملية سحبه. كان وجه غريفنز مضغوطاً إلى المصبَّعة الحديدية للممرّ، ويده تُمسك بكاحل شارلوك.

«في الواقع، ستجعلني أكسب هذا المال، أليس كذلك؟». هسهس غريفنز، وتابع: «لأجل ما حصل فقط، سأجعل الأميركي وابنته يعانيان. فكّر في ذلك فقط عندما تنزف حتى الموت هنا».

كان جواب شارلوك الوحيد هو الرَّكل بقدمه الأخرى، ممرِّراً عَقِب حذائه تحت ساقه بصعوبة حتى أصاب أصابع غريفنز، فهمهم هذا الأخير من شدة الألم، وأفلت قبضته. عندها، تدحرج شارلوك بعيداً ووقف على قدمَيه.

ظهر وجه غريفنز في أعلى السلّم، وتلاه ما تبقى من جسمه. وكانت أسنانه مكشوفة بسبب تجهّم وجهه والكراهية الواضحة عليه.

هسهس غريفنز قائلاً: «لم يَعُد الأمر متعلقاً بالمال فقط، بل صار شخصياً».

تراجع شارلوك إلى الوراء ببطء، بينما بلغ المضيف أعلى السلّم وسلك الممرّ. كانت كتفاه مُحدَودِبَتين، وأصابعه مكوَّرة على شكل مخالب، وباتت بِذلته الرسمية التي كانت بيضاء ونظيفة في السابق رمادية ومقلَّمة.

شعر شارلوك بشيء صلب يضغط على ظهره، فألقى نظرة سريعة إلى الأسفل ووجد أنه بلغ نهاية الممر. كان مضغوطاً داخل إحدى العجَلات التي تضبط تدفّق البخار عبر الأنابيب، فيما يدور بجانبه مِحور العجَلة

الضخم أسطوانيّ الشكل على مِحمله بشكل غير متناهٍ. كان قد بلغ المنطقة حيث تُحوِّل الحَدَبات الموازِنة الحركةَ الطولية للمكابس إلى حركة دائرية، مشغِّلةً المِحور. وهناك العديد منها، وتبدو كرؤوس جياد معدنية ملطَّخة بالشحم ترتفع وتنخفض في إيقاع معقَّد. وجد شارلوك نفسه في لحظة من الزمن مُعجَباً بالبراعة البَحتة في تشغيل الآلات. كيف يمكن للناس اعتبار تشغيلِ هذه الأشياء أمراً مفروغاً منه فحسب من دون أن يرغبوا في معرفة كيفية تشغيلها؟

لم يكن يتوق إلى تعلّم أي شيء الآن، لا سيّما وأن غريفنز لا يزال يلاحقه مضيِّقاً الخِناق عليه وقد مدّ كلتا يدَيه نحو عنق شارلوك.

«يُفترض بي الحصول على علاوة لأجل هذا الأمر». همس المضيف، فيما أطبقت أصابعه على عنق شارلوك وضغط بإحكام، فشعر شارلوك بعينَيه تنتآن بسبب الضغط، وحاول جاهداً التنفس، ولكن من دون جدوى. فما كان منه إلاّ أن أمسك بمِعصمَي غريفنز بإحكام محاولاً إبعادهما، غير أن عضلات المُضيف كانت قوية كالحديد. عندها، نقل شارلوك قبضته إلى أصابع الرجل؛ إذ ربما سيتمكّن من رفعها عن حَلْقه. كانت رؤيته قد أصبحت مشوَّشة، وبدأت نقاط سوداء تسبح أمام ناظريه جاعلةً وجه غريفنز يبدو مُبهَماً، وشعر بأن صدره يحترق كما لو أنه يعاني سَكَرات الموت.

لوى شارلوك جسده بشكل يائس بما تبقى لديه من قوة، ففقد غريفنز توازنه، ووقع جزئياً على الحاجز القائم على امتداد الممر، ولكن قبضته على عنق شارلوك لم ترتخِ. كانت الحَدْبات تتحرك صعوداً ونزولاً بجانبهما: قِطَع معدنية تُوجّه ضربات للهواء على بُعد بوصات قليلة من وجهَيهما. كانت تعابير غريفنز متوحّشة، وعيناه تقدَحان كراهية سوداء.

سمح شارلوك لجسده بالتراخي متظاهراً بأنه فقد كل طاقة لديه. غافلاً عن حيلته، تركه غريفنز ينهار. ولكن، بدلاً من سقوطه على ركبتَيه، نقل شارلوك يدَيه من أصابع المضيف إلى حزامه الجِلدي. ممسكاً الحزام بإحكام، قوّم شارلوك وقفته ثانيةً؛ دافعاً بقَدْر ما تبقى من قوة في ساقَيه، ورافعاً غريفنز بقَدْرِ ما تساعده ذراعاه، فارتفعت قدما هذا الأخير عن أرض الممر أثناء قيام شارلوك برفعه إلى الأعلى بواسطة حزامه، فانحنى غريفنز جانبياً فوق حافة الحاجز بسبب ثقل جسمه. توقّع شارلوك أن يُفلته للإمساك بالحاجز، ولكنه أبقى قبضته على عنق شارلوك ساحباً إيّاه أيضاً.

فجأة، علق كُمّ غريفنز في إحدى الحَدْبات المتحركة صعوداً ونزولاً، فجذبتْه نحوها، فصاح بخوف وغضب صيحة قصيرة ويائسة، فيما كانت الآلات تسحب جسده في اتجاهها. عندها، أفلت شارلوك حزام الرجل، ورفع ذراعَيه موجّهاً ضربات إلى يدَي المضيف لإبعادهما عن عنقه والسماح له بأخذ نفَس مُنقذٍ لحياته؛ مع ابتعاد جسد المضيف الذي بدأ يلتفّ حول المِحور الدوّار ويقع في قبضة الحَدْبات المتحركة صعوداً ونزولاً.

لم يضعف المحرك بسبب ثقل غريفنز. وحين أفلت المضيف شارلوك أخيراً، تعيّن على هذا الأخير الإشاحة بنظره قبل أن يرى ما حدث لجسد غريفنز أثناء سحبه إلى داخل المعدن الدوّار.

عندها، انحنى شارلوك ويداه على ركبتَيه، محاولاً سحب أكبر قَدْر ممكن من الهواء إلى داخل رئتَيه. لقد اعتقد للحظات أنه سيختنق بسبب حاجة جسده إلى كمية أكسجين أكبر مما يستطيع توفيره له، ولكن نفَسه عاد إلى طبيعته تدريجياً. وعندما لم تَعُد رؤيته مشوَّشة، وتمكن من التنفس بدون أن يؤلمه صدره، قوّم وقفته ونظر حَوله.

لم يرَ أي أثر لغريفنز. لقد بدا الشحم الأسود على المِحور والحَدْبات أكثر احمراراً وإشراقاً من ذي قَبْل؛ هذا كل ما رآه.

في النهاية، نزل شارلوك السلّم، وعبَر غرفة المحرك باحثاً عن مَخرج. لم يكن واثقاً مما إذا كان الباب الذي عثر عليه أخيراً هو الذي دخل منه أو إن كان باباً آخر، ولكنْ لا أهمية لذلك. في الخارج، كان الطقس معتدل البرودة والهواء منعشاً. لقد بدا الأمر كما لو أنه صار في نعيم.

حدّق به الناس مع ظهوره أخيراً على سطح السفينة، ولكنه لم يأبه. أراد العودة إلى حُجرته فحسب، وغسْل السُّخام والشحم عن جسده، وتغيير ملابسه، ووضْع تلك التي كان يرتديها مع الملابس المُعَدّة للغَسل. ربما تمكنت الغاسلات الموجودات على متن السفينة من تنظيفها، وربما لا. في النهاية، كفّ عن المبالاة بهذا الأمر.

كان أميوس غروي في حُجرتهما عندما دفع شارلوك الباب وفتحه. وقال له من دون أن يراه: «أعتقد أن هناك من كان هنا يبحث عن شيء ما». ومن ثم استدار ورأى حالة وجه شارلوك وملابسه فقال: «يا إلهي، ماذا حدث!؟».

أجاب شارلوك بسأم: «كانت المجموعة تتعقّبنا إلى نيويورك، وقد وُزِّع بعض المال في الميناء. ربما يكون هناك رجل واحد على الأقل على متن كل سفينة مغادرة هذا الأسبوع قد وُعِد بتقاضي المال إذا قتلنا نحن الثلاثة».

قال غروي متعجباً: «رجل واحد على الأقل!». ثم صمت قليلاً قبل أن يتابع: «يمكننا القلق في هذا الشأن في وقت لاحق. من كان؟».

«أحد المُضيفين».

«وأين هو الآن؟».

«لِنَقُل إنه سيكون هناك مضيف واحد عند تقديم العشاء». أجاب شارلوك.

وروى لغروي القصة كاملةً أثناء اغتساله وتغييره ملابسه. وكان الرجل ضخم البنية يُصغي بصمت طوال الوقت. وعندما بدأ شارلوك بتكرار كلامه، رفع غروي يده وقال:

«أعتقد أنني فهمت كل القصة. كيف تشعر؟».

«أنا مُتعَب، وعطشان، ومتألّم».

«يمكن فهم ذلك، ولكن كيف تشعر الآن؟».

ألقى عليه شارلوك نظرة سريعة محتاراً، ثم سأله: «ماذا تعني؟».

«أعني أن هناك رجلاً مات، وأنت السبب في موته. لقد رأيتُ أشخاصاً يدخلون دوّامة من الشعور بالذَنْب المُربِك والحزن بعد حدث مماثل».

ففكر شارلوك لدقيقة. أجل، مات رجل، وهو المسؤول عن موته، ولكنها ليست المرة الأولى. فكْليم سفّاحُ البارون موبرتس كاد يغرق عندما وقع من مركب ماثيو أرنت، ولكن ذلك حدث لأن ماتي ضربه على مؤخّر رأسه بصِنّارة المركب المعدنية. والسيد سورد، اليد اليمنى لموبرتس، لسعه النَّحل حتى الموت، ولكن ذلك اعتُبر حادثاً؛ إذ وقع إلى الوراء باتجاه القَفير. وهناك الأشخاص الذين كانوا على الحصن النابوليوني عندما اندلعت فيه ألسنة اللهب؛ ربما احترقوا حتى الموت أو غرقوا عندما قفزوا إلى البحر، ولكن مصائرهم بدت غير مرتبطة بما قام به شارلوك مباشَرةً. هل غروي مُحِق؟ هل هذه الوفاة هي الأولى التي تسبب بها مباشَرةً وبلا لَبْس؟

قال أخيراً: «لستُ ما قد تدعوه إنساناً متديّناً، ولكنني أعتقد أن المجتمع سيكون أفضل حالاً عندما تكون هناك قوانين، وعندما لا يستطيع الناس قتل أشخاص آخرين متى شاءوا. إن اعتقادي هذا جزء مما ناقشه أفلاطون في كتابه الجمهورية الذي أعطاني إياه شقيقي لأقرأه. ولكن المضيف كان يحاول قتلي، ولو لم أتخلص منه لَما كفّ عن محاولته. أنا لم أختَرْ أن أقتله، بل هو الذي اختار القتال، وبالتأكيد ليس أنا».

أومأ غروي برأسه وقال: «الأمر منصف بما فيه الكفاية».

«هل كانت إجابتي صحيحة؟».

«لا وجود لإجابة صحيحة يا بُنَي؛ على الأقل، ليس باعتقادي. إنها مُعضلة؛ ففي المجتمع، يتّبع الأشخاص القوانينَ، ولا يقتلون بعضهم بعضاً متى شاءوا. ولكن، إذا اختار الناس العيش بعيداً عن تلك القوانين، فماذا ستفعل؟ أستدعهم يفلتون بنتائج سلوكهم، أو ستقاتلهم بالأسلحة المماثلة التي يستخدمونها لقتالك؟ إذا اتّبعتَ المسار الأول، فسيسيطرون على المجتمع؛ لأنهم دائمو الاستعداد للقتال بقسوة ودناءة أكبر من قسوتك ودناءتك. وإذا اتّبعت المسار الثاني، فكيف ستمنع نفسك من أن تصبح سيّئاً على غرارهم؟». وهز رأسه. «في النهاية، إن النّصيحة الوحيدة التي يمكنني تقديمها لك هي: إذا وصلتَ إلى مرحلةٍ لا تعود فيها آبهاً بحياة الإنسان، فستكون قد ذهبتَ بعيداً. فما دام الموت يضايقك، وما دمت تفهم أنه ملاذك الأخير وليس الأول، فستكون ربما على الجانب الصحيح من الخط».

«هل تعتقد أن مايكروفت كان يعرف أن أمراً مماثلاً قد يحدث؟». سأل شارلوك. «هل تعتقد أنه أعطاني الكتاب لهذا السبب؟».

أجاب غروي: «لا. ولكن شقيقك رجل حكيم. وأعتقد أنه توقّع منك طرح هذه الأسئلة على نفسك في مرحلة ما، وأراد التأكد من امتلاكك الأدوات التي تساعدك على الإجابة عنها».

الفصل العاشر

نام شارلوك لبعض الوقت؛ عِلماً أن الوقت كان منتصف فترة بعد الظهر. نام نوماً مضطرباً تخللته كوابيس كان ماتي فيها موثَقاً وعاجزاً في الظلام، وهو يبكي متسائلاً عن سبب عدم قدوم أصدقائه لإنقاذه. وعندما استيقظ شارلوك، وجد خدَّيه مبلَّلَين بدموعه، وتطلّب منه الأمر لحظات قليلة ليتذكر أين كان وما حدث.

كانت عضلاته تؤلمه ورئتاه تُحرقانه، وشعر بالألم في مواضع الرّضوض على حَلْقه حيث أمسك به غريفنز بقوة. لقد حاول العثور على أثر ما للخوف في داخله بسبب ما فعله، ولكنه لم يجد ذلك الخوف الشديد. شعر بالأسف بالتأكيد، فقد أسِف لأن الرجل مات، ولكنه هو الذي كان يحاول قتله.

فيما كان مستلقياً ومفكراً في غريفنز لإلهاء نفسه عن القلق حيال ماتي، وجد شارلوك نفسه يفكر في الوشم أزرق اللون الذي كان على مِعصم الرجل؛ ذلك الذي جعل شارلوك يُدرك بادئ ذي بدء أن الرجل يراقبه. فإذا كان قد فكّر يوماً في الأوشام فقد اعتبرها وسيلة تزيينية، ولكن من الواضح أن ما يكمن وراءها أكثر من مجرد التزيين. فعلى ما يبدو، إنها وسيلة تعريف وتحديد هوية. وفي حالته هذه، لقد جعلته يحدد هوية رجل يقوم بمراقبته لصالح الأميركيين الفارّين. وبالاستناد إلى ما قاله المضيف، يمكنكم معرفة راسم الأوشام من أسلوبه؛ كما يمكنكم معرفة لوحةٍ لفرمير أو روبنز، أو ربما لوحاتِ فرنيت في الرَّدهة في عزبة آل هولمز؛ فكر شارلوك. كان تفكيره منشغلاً بإمكانية وجود موسوعةِ أوشامٍ تحدد أماكن رَسْم الأوشام، والفنانين الذين رسموها. أيعقل أن يكون أمر مماثل ممكناً؟

بعد فترة وجيزة، قرر أن الاستلقاء على السرير لن يحقق أي شيء، فنهض وخرج.

كانت الشمس تسطع بقوة على سطح السفينة أس أس سكوتيا، ومن حولها خط الأُفُق المسطَّح. لقد بدا الأمر كما لو أنهم وسط وعاء صيني أزرق مقلوب رأساً على عَقِب. لم يكن هناك ما يشير إلى أنهم يتحركون؛ حتى إن طيور البحر كانت تبدو كما لو أنها معلَّقة في الهواء بلا حراك.

بعد دقائق قليلة، أدرك أنه يسمع عزفاً على الكمان منذ بعض الوقت من دون أن يلاحظ الأمر. أهو راف ستون؟! ربما. إن فرص وجود

عازفَي كمان على متن السفينة ضئيلة نوعاً ما. لذا، اعتقد شارلوك أنه بدأ باكتساب القدرة على الكشف عن بعض عناصر أسلوب ستون؛ كختام الجُمل الموسيقية، وطريقة نضال أصابع يده اليسرى أحياناً مع النغمات المتتابعة المعقَّدة.

ذهب للبحث عن الرجل، وعثر عليه في مكانه المعتاد قرب مقدّمة السفينة. هذه المرة، لم يكن هناك حشد حوله؛ ربما شعروا بالملل.

«كنت قد بدأت أتساءل عما إذا كنت قد قررتَ التخلي عن دروسنا كما يرمي شخصٌ مِنديلاً بالياً». قال ستون مواصلاً العزف.

«كانت فترة بعد الظهر... حافلة بالنسبة إليّ». أجاب شارلوك. «ولكنني هنا الآن».

«إذاً، لِنبدأْ». وأوقف راف العزف وأنزل كمانه. «ألديك أية أسئلة قبل أن نرى مقدار ما تتذكره في ما يتعلق بوقفتك».

فكر شارلوك للحظات، ثم سأله: «ما هي مقطوعتك الموسيقية المفضَّلة؟ أهي مقطوعة بروخ التي كنتَ تعزفها هذا الصباح؟».

ففكر راف للحظات، ثم أجاب أخيراً: «لا. لديّ ولَع شديد بأعمال هنريك فينيافسكي. فقد وضع عدة كونشيرتوات على الكمان؛ أفضلها لديّ هي الثانية. ومن ثم هناك السوناتا سيئة السُّمعة على الكمان لجوزيبي تارتيني. إنها اختبار حقيقي لمهارة عازف الكمان».

«سيئة السُّمعة!؟». تساءل شارلوك.

«إنها تُعرف بسوناتا النغمات الترجيعية للشرير. ادّعى تارتيني أنه رأى الشرير في حُلمه وهو يعزف على الكمان. وعندما استيقظ، وضع المقطوعة الموسيقية التي كان الشرير يعزفها في حلمه، وهي أقرب ما حصل عليه. إنها صعبة جداً؛ لدرجة قول بعض النقاد إن تارتيني قام ببيع نفسه للشرير لِقاء اكتسابه مهارة عزفها».

«هذا هُراء».

«إنه كذلك بالطبع. ولكن قصة كهذه تساهم في ازدياد عدد الجمهور الذي سيُقبِل بكثافة للاستماع إلى معزوفة موسيقية إذا اعتقد أن هناك أمراً غامضاً أو غير مألوف يتعلق بالموسيقى التي ستعزف». وقدّم الكمان لشارلوك.

«الآن، لِنرَ كم تعلّمتَ».

طوال ما تبقى من فترة بعد الظهر، حمل شارلوك الكمان تحت نظرات راف ستون الناقدة، وحاول استخدام قوس الكمان بطرائق مختلفة؛

طريقة تِلوَ الأخرى، لاستخراج نوتات من الآلة الموسيقية من دون القلق من ماهية النوتة التي يعزفها. ففي هذه المرحلة، أراد منه راف إجادة التقنية فقط. لقد استهلّ عزفه بحَنْي الوتر ببساطة في إيماءات طويلة، وسلِسة، ومنسابة _ كما وصفها راف _ مُمسكاً عُنُق الآلة بيده اليسرى بدلاً من الضغط على أي وتر. لقد تطلّب القيام بذلك بحد ذاته ساعات؛ إلى أن اقتنع راف أخيراً بأدائه؛ على وتر واحد أولاً، ومن ثم على الأوتار الأخرى، باذلاً قُصارى جهده للحصول على نَغمة سويّة للنوتة مهما كانت طويلة.

وعلى هذه الحال مضت بقية الرحلة. فبعد الفطور ينضمّ شارلوك إلى راف ستون على سطح السفينة لمدة ساعتَين، ومن ثم ينتقلان إلى القاعة لتناول الغداء، وبعد ذلك يقضيان ساعتَين أُخريَين في التمرن، يعود إثرهما شارلوك إلى حُجرته ليستريح ويقرأ المزيد من الجمهورية لأفلاطون، ثم يمضي ساعتَين إضافيّتَين مع راف ستون؛ إلى أن يحين موعد العشاء. بعد ذلك، يقضي شارلوك عادة بعض الوقت مع أميوس غروي في المكتبة قبل التوجه إلى السرير. ولكن غروي كان يقضي معظم وقته مهتماً بفرجينيا من دون أن يجد الوقت الكافي لمتابعة تعليم شارلوك؛ إذ كان يخصص له القليل من الوقت لتقديم المعلومات المساعِدة أو الأمثلة. وكان شارلوك قد لاحظ سابقاً أن طريقة أميوس غروي المفضَّلة في التعليم هي الاستناد إلى شيء ما رآه أو عثر عليه، ومن ثم استخدامه كأساس للدرس. وفي وسط المحيط، ومن دون أي أرض مرئية، لم تكن لديه ولو فرصة صغيرة قيّمة للقيام بأمر آخر.

لم ير شارلوك فرجينيا إلا نادراً أثناء الرحلة برمّتها. فقد لازمت حُجرتها، غير راغبة في الخروج إلى سطح السفينة لمكالمة أي شخص. لقد رآها شارلوك مرة واحدة أو مرتَين، وكانت بشرتها شاحبة جداً وشبه شفافة مقارنةً بلون شعرها الأحمر؛ لدرجة شعوره بالقلق من عدم نجاتها من الرحلة، ولكن أميوس غروي قال له إنها ستكون بخير. فهي حالياً تعيش تجربة الرحلة الأصلية السابقة من نيويورك إلى ليفربول التي شهدت وفاة والدتها. قال له غروي ذات ليلة في المكتبة: «إنه اضطراب ذِهني تفاقَم بسبب رتابة الرحلة وافتقادها إلى ساندیا كثيراً. جيني فتاة تحب أن تكون في العراء؛ كما يمكن أن تكون قد أدركتَ. وهي تكره الإقفال على نفسها في أي مكان. متى نزلنا إلى البرّ، فستعود إلى طبيعتها».

كان الطقس مستقراً على نحو مفاجئ أثناء الرحلة بكاملها. وباستثناء

يوم واحد كانت السماء فيه مكفهرّة وتساقطت فيه الأمطار بغزارة، فتعيّن على راف ستون وشارلوك خلاله الانسحاب إلى حُجرة شارلوك للتمرّن، كانت السماء زرقاء والبحر هادئاً دائماً، أو بدت الأمواج صغيرة مقارنةً مع حجم سكوتيا التي تمكنت من شقّ طريقها عبرها.

في اليوم الرابع، شعر الجميع ببعض الحماسة عندما أعلن الربّان أنهم رأوا سفينة أخرى. فتناوب الركّاب على النظر إلى البُقعة البعيدة في الأُفُق عبر تِلِسكوب. وكان أميوس غروي قد استخدم هذا التلسكوب بالفعل لأجل البدء في أحد الدروس؛ طالباً من شارلوك احتساب احتمال أن تكون سفينتان على خط رؤية إحداها للأخرى، نظراً إلى اتساع المحيط وعدد السفن الصغير نسبياً. ولكن شارلوك كان يُدرك أن معظم السفن تميل لعبور الممرّ الضيّق نفسه؛ بالرغم من ضخامة المحيط الأطلسي وطول المسافة بين ساوثمبتون ونيويورك. وهناك عشرات، لا بل مئات السفن المُبحرة في آن واحد. واستناداً إلى هذه المعرفة، كانت الفرصة كبيرة جداً في الواقع.

لاحظ شارلوك وأميوس تبادلاً في الأضواء الوامضة بين السفينتَين مع حلول الليل. فقد شاهد شارلوك أفراد طاقم سفينة سكوتيا وهم يوجّهون رسالتهم مستخدمين فانوساً مزوَّداً بمِغلاق في الناحية الأمامية يمكن فتحه وإغلاقه. وكان قلقاً جزئياً بشأن الرسائل السرّية التي قد يتبادلها المتآمرون على متن السفينتَين، والتي قد تتناوله وأميوس وفرجينيا غروي. ولكن هذا الشك يعني أن معظم أفراد الطاقم لهم علاقة بالمؤامرة؛ وهذا أمر غير محتمَل. علاوةً على ذلك، لم تحدث أية محاولات أخرى لتفتيش حُجرته أو الاعتداء على ثلاثتهم قبل ظهور السفينة الأخرى وبعد ظهورها على حد سواء. لقد بدا الأمر كما لو أن غريفنز هو الشخص الوحيد على متن سكوتيا الذي جنده أعداؤهم.

تسبب اختفاء المضيف بقدر قليل من الفزع لدى أفراد الطاقم، وبقدر أقل من ذلك لدى الركّاب. ولم يحاول الربّان العودة بالسفينة للبحث عنه في المحيط تحسّباً لوقوعه عن متن السفينة. وافترض شارلوك أنه تم العثور على قُصاصات ملابس غريفنز بين الآلات في غرفة المحرك، فاستنتج الربّان وقوعه أثناء ثمالته.

مع مرور الوقت، تعلّم شارلوك الطرق الرئيسة للعزف على الكمان _ legato, collé , martelé , staccato, spiccato و sautillé _ وكان قد بدأ باستخدام أصابع يده اليسرى للضغط على الأوتار الأربعة بطرائق متنوعة لتشكيل نوتات ونغمات متناسقة. لم يكن قد عزف بعد سوى نوتات طويلة

ومتواصلة. وكان راف ستون متحمساً لتعزيز تقنيته ومقدرته قبل السماح له بالشروع في عزف الموسيقى، ولكن شارلوك قدّر أسلوب عمل راف حق قدره. فالأمر منطقي ومفهوم.

«ماذا سيحدث عندما ننزل إلى البرّ؟». سأل شارلوك ذات يوم، في مرحلة متقدّمة من الرحلة، أثناء استراحة خلال الدرس.

«ما سيحدث هو أنني سأجوب عالماً جديداً ومتلألئاً من الفرص، ساعياً إلى تثبيت نفسي كمدرّس موسيقى أولاً، ومن ثم العثور على أوركسترا مريحة _ إذا حالفني الحظ _ تدفع لي أَجراً لِقاء عزفي معها. وأنت، من جهة أخرى، ستنضمّ إلى السيد غروي الجدير بالثقة والاحترام وابنته الغائبة على نحو مُبهَم، وستقوم بما قدمتَ إلى نيويورك لأجله».

في اليوم الخامس من الرحلة، وأثناء فترة استراحته بعد تمرّنه المتتابع تقريباً على العزف على الكمان، قضى شارلوك بعض الوقت في مقدّمة السفينة، منحنياً على الدرابزين ومحدّقاً بخط الأُفُق الأزرق البعيد في الأمام.

لم يكن بمفرده، بل كان هناك أيضاً ركّاب آخرون في مقدّمة السفينة يراقبون الريح والأمواج والسُّحُب. ربما كانوا ينتظرون رؤية اليابسة، ولكن الوقت كان لا يزال مبكّراً للقيام بذلك. وربما ألهبت قصص الربّان عن العواصف الشديدة والمخلوقات البحرية هائلة الأحجام مخيّلاتِهم فباتوا يترقّبون رؤية شيء ما خارج عن المألوف للمرة الأولى. ولكن، وفقاً لتقدير شارلوك، سيرون على الأرجح جبلاً جليدياً منجرفاً.

لفت رجل واحد انتباه شارلوك. فقد كان يرتدي معطفاً يقيه الريح الباردة، ولحيته سوداء ومتجعّدة عند طرفي شاربه اللذين شُمِّعا ليلتفّا إلى الأعلى. وبدلاً من تحديقه بالمحيط في الأمام، كان يُدير له ظهره ويدوّن بسرعة سطوراً بقلم رصاص على دفتر مدوَّنات.

في الواقع، أثناء مراقبته إياه، أدرك شارلوك أن الرجل لا يدوّن بسرعة سطوراً، بل يضع رسماً تقريبياً لشيء ما. عندها، غيّر شارلوك مكانه، محاولاً رؤية ما يرسمه الرجل، ولكن كل ما تمكن من رؤيته على ورقة دفتر المدوَّنات شيء ما يشبه سيجاراً ضخماً. لقد بدا مكوَّناً من أقسام تفصل بينها جدران داخلية، أو حواجز.

«أنت مهتم برسمي، أليس كذلك؟». سأله الرجل، مُلقياً نظرة سريعة عليه. كانت لصوته لكنة قوية، لكنة ألمانية؛ فكر شارلوك في سره.

«آسف». قال شارلوك، واحمرّ وجهه خجلاً. «كنت أتساءل فقط عن سبب عدم نظرك إلى الأمام على غرار الجميع».

أجاب الرجل: «أنا أنظر إلى الأمام، إلى زمنٍ بعيد قادم لن تُجرى فيه الرحلات المماثلة لرحلاتنا على متن سفن معرَّضة للعواصف والأمواج، بل على متن منطاد».

«منطاد!». كرّر شارلوك متعجباً، وأومأ في اتجاه الرسم التقريبي على دفتر المدوَّنات. «أهذا هو المنطاد؟».

فحدّق الرجل إلى شارلوك بطريقة انتقادية وأجاب: «أعتقد أنه من غير المحتمَل أن تصبح جاسوساً صناعياً أو عسكرياً. فأنت صغير في السن، ويُنبئني وجهك بأنك منفتح العقل ومثقَّفٌ وثاقبُ النظر، وهذا ما لم أعهده لدى الجواسيس». وضحك؛ عِلماً أن الصوت الذي صدر عنه كان نخيراً أكثر من كونه ضحكاً. «تعرّضتُ... للانتقاد... في بلدي بسبب أفكاري. آمل أن تكون الأمور مختلفة في أميركا».

«أدعى شارلوك هولمز». ومدّ شارلوك يده اليمنى ليصافح الرجل، وتابع: «يُسعدني لقاؤك».

«وأنا فرديناند أدولف هينريك أوغست غراف فون زيبلين». قال الرجل منحنياً بصلابة، ومن ثم مدّ يده لمصافحة شارلوك وتابع: «في بلدي، أُعرف بالكونت زيبلين. يمكنك أن تناديني كونت فحسب». وأدار دفتر مدوّناته ليتمكن شارلوك من رؤيته جيداً. «الآن، أخبرني، هل يمكنك تصوُّر منطاد عملاق مصنوع من الحرير، ومَطليّ بالوَرنيش، ومقوّى بأطواق من نوع ما، أي ما يشبه سفينة هوائية صلبة إذا شئت، مليئة بغاز أخفّ من الهواء، وتطير عبر المحيط على ارتفاع يمكّنك من رؤية السُّحُب تحتك، وليس الأمواج؟».

«أيّ غاز ستسخدم؟». سأل شارلوك.

فأومأ الكونت برأسه مجيباً: «سؤال ممتاز. اعتاد الفرنسيون استخدام هواء حارّ لأجل مناطيد أصغر حجماً؛ عِلماً أنني لا أعتقد أنه صالح لمناطيد أكبر حجماً، وقد حقق الجيش الأميركي نتائج جيدة بواسطة غاز الكوك المشتقّ من الفحم المحترق. أما أنا فأفضّل الهيدروجين إذا كان بالإمكان تنقيته بما يكفي».

«وكيف تُحرّك المناطيد؟». لقد فُتِن شارلوك بأفكار الرجل الغريبة. «ستطفو المناطيد بالتأكيد، أليس كذلك؟».

«السفينة التي نتواجد فيها الآن لا تطفو فحسب، بل إنها تتحرك. وهي مزوَّدة بمحركات ومجاذيف. وإذا كان باستطاعة المجاذيف تحريك سفينة في الماء، فباستطاعتها إذاً تحريك منطاد في الهواء».

فنظر إليه شارلوك بشكل مُريب. «هل أنت واثق من نجاح ذلك؟».

ابتسم فون زيبلين ببرودة وقال: «لقد أجريتُ دراسة موسَّعة عن الطيران الأخف من الهواء. منذ أربع سنوات، كنت في أميركا أعمل كمراقب لدى جيش الاتحاد الشمالي في حربه ضد الولايات المتحالفة. وأثناء وجودي هناك، صعدت لأول مرة في منطاد استطلاع مربوط بحبل شدّ إلى وتد. والتقيت أيضاً البروفيسور ثادوس لوو، وهو أعظم خبير في العالم على الأرجح في الطيران الأخف من الهواء». كان وجه فون زيبلين الصارم تقريباً يشرق كما يبدو عندما يتكلم عن المناطيد. وقد اتضح لشارلوك أن الموضوع يُشعره بالحماسة. «سبق للبروفيسور لوو أن بنى منطاداً مخصَّصاً للطيران عبر الأطلسي؛ على غرار هذه السفينة تماماً، ودعاه غريت وسترن. يبلغ قطره 103 أقدام، ويمكنه رفع اثنَي عشر طنّاً. قبل الحرب، استخدمه للقيام برحلة جوّية ناجحة من فيلادلفيا إلى نيو جرسي. ولكن محاولته الأولى لعبور المحيط الأطلسي توقفت عندما مزّقت الريح المنطاد». وهز كتفَيه. «وقد عنت بداية الحرب إيقاف خطط البروفيسور لوو. عندها، شكّل مؤسسة منطاد جيش الاتحاد نزولاً عند الرغبة المُلحّة للرئيس لينكولن. الحروب غريبة. فمن جهة، إنها تجرّ المفكرين بعيداً عن متابعة التقدم. ولكنها من جهة أخرى تسرّع الحاجة إلى التقدّم. ولولا الحرب بين الولايات، هل كان الرئيس سيهتم بإمكانيات نجاح المناطيد؟».

«شارلوك!».

كان الصوت أُنثوياً وفتيّاً؛ إنّها فرجينيا. فاستدار شارلوك، ورآها واقفة على مَقرُبة منه قرب قارب النجاة. كانت لا تزال تبدو شاحبة ولكنها مبتسمة.

فقال للكونت: «اعذُرني، عليّ الذهاب».

فانحنى الكونت بصلابة مجدداً وقال له: «بالطبع. للجنس اللطيف الأولوية على كل شيء».

فسأله شارلوك: «هل أنت متزوج؟».

«أنا مشغول جداً ولا أستطيع الزواج». قال فون زيبلين، وأشرق وجهه الصارم عندما ابتسم. «تدعى إيزابيلا فرين فون وُلف، وهي من عائلة ألت- شواننبرغ. إنها المرأة الأكثر جمالاً في العالم». وألقى نظرة سريعة في اتجاه فرجينيا، ومن ثم قال لشارلوك: «عِلماً أنك قد لا تظنّ ذلك؛ كما أعتقد».

فابتسم له شارلوك. لقد أعجبه الكونت الألماني إلى حد ما.

«أراك لاحقاً».

فأجاب الكونت: «إنها سفينة صغيرة، وعددنا على متنها قليل. لذا، إن مصادفة أحدنا للآخر ثانيةً أمر حتميّ».

تاركاً الكونت وراءه، سار شارلوك في اتجاه فرجينيا، وقال لها بارتباك: «كنت أخشى أن تقضي كل الرحلة في حُجرتك».

فأجابت: «وأنا أيضاً. فأنا أكره الإقفال على نفسي في غرفة صغيرة، ولكن لا خيار آخر لدي كما يبدو». واحمرّ وجهها، وغمر اللون فجأةً خدَّيها الشاحبَين، فأشاحت بنظرها. «أعتقد... أعتقد أن والدي قد أخبرك بأن هذه الرحلة ذكّرتني كثيراً بالرحلة الأخيرة التي قمنا بها معاً، عندما توفّيت أمي».

«لقد فعل». أكّد شارلوك.

«ولجعل الأمر أكثر سوءاً، أُصبت بدُوار البحر. لن تصدّق أن شخصاً يمتطي جواداً يمكنه أن يصاب بدُوار البحر، ولكنني كنت كذلك لسوء الحظ».

لم يستطع شارلوك تمالك نفسه فابتسم. فهذه الصراحة التامة هي أحد الأمور التي أحبّها في فرجينيا أكثر من سواها. إذ لن تفكر أية فتاة إنكليزية بمناقشة مسائل المَعِدة والغثيان بهذه الصراحة على الإطلاق.

«كيف تشعرين الآن؟».

«السيدة التي أتشاطر معها الحُجرة أعدّت لي شاياً عشبياً. إنه اليوم الأول الذي أتمكن فيه من تناول الطعام من دون أن أتقيّأ، لذا أعتقد أنه مفيد».

«آسف بشأن والدتك». قال بارتباك. «وآسف لأن هذه الرحلة تذكّرك بها. أعتقد أن مكوثك في إنكلترا يذكّرك بها باستمرار».

«أجل». وصمتت قليلاً قبل أن تتابع: «لا أعرف إذا كانت مريضة عندما صعدت إلى متن السفينة، أم إن كانت قد التقطت شيئاً ما على متنها. ولكنها مرضت بشدة طوال أسبوع، وازدادت نحولاً وشحوباً ومن ثم ماتت». وانزلقت دمعة من عينها، متقطرةً ببطء على خدّها. «لقد رموها في البحر. فقد قال الربّان إنه لا يستطيع الاحتفاظ بجثّتها على متن السفينة لبقيّة الرحلة، لذلك قاموا بلفّها بملاءة من الخَيش، وقالوا بضع كلمات جميلة، ثم أمالوها من فوق جانب السفينة... إن هذا أسوأ ما في الأمر. فأنا لا أستطيع زيارتها لأنه لا يوجد قبر لها». وأومأت براحة يدها المفتوحة في اتجاه المحيط المنبسط وتابعت: «لا يوجد سوى هذا».

لزم شارلوك الصمت للحظات، ومن ثم قال: «والدتي مريضة». لم يكن يعرف أنه سيقول ذلك؛ فقد تدفقت الكلمات من فمه من دون أن يدرك.

«ما بها؟». سألت فرجينيا.

«لن يتكلم أحد عن الأمر». وصمت مجدداً ثم تابع: «أعتقد أنه مرض السلّ».

«السلّ؟!».

«التدرّن الرئوي. إنها شاحبة اللون، ونحيلة، وتشعر بالتعَب طوال الوقت. وأرى أحياناً دماً على مِنديلها عندما تسعل، ولكنني أعرف أن شقيقي ووالدي يحاولان منعي من رؤيتها». لم يتمكن من إيقاف تدفق كلامه كما يبدو بعد أن شرع بذلك. «لذلك، دخلتُ مكتبة والدي، وبحثتُ في أكبر قدر ممكن من الكتب إلى أن عثرت على تلك الأعراض. إنها مصابة بالتدرّن الرئوي، وستموت. لا علاج لهذا الداء. وهو يجعل الناس يَنحُلون تدريجياً، شيئاً فشيئاً».

دنت فرجينيا منه، ووضعت رأسها على كتفه للحظات قبل أن تبتعد. «على الأقل، أُبعدتْ أمي عني بسرعة». قالت محدّقةً به. «لم يسبق لي أن فكرت في ذلك من قبل، ولكنني أعتقد أنها نعمة. إذ إن رؤية صحتها وهي تسوء على مَرّ الأسابيع، والأشهر، والأعوام... لا بد أن تكون رهيبة».

فأشاح شارلوك بنظره بعيداً كي لا تتمكن من رؤية بريق الدموع التي تتلألأ في عينَيه.

همستْ: «هل سنعثر عليه حقاً؟».

«على من؟».

«ماتي».

شعر شارلوك بانحباس أنفاسه في صدره؛ فقد كان يطرح على نفسه السؤال عينه، ولم يتوصل بعد إلى أية إجابة.

قال: «سنعثر عليه، وسيكون بخير. فالرجال الذين اختطفوه لديهم سبب لإبقائه حياً».

فقالت برِفق: «هذه ليست إجابة حقيقية. وأنت تعرف ذلك».

«هل سبق لك أن رأيت السفينة؟». سأل متعمّداً تغيير الموضوع.

«لم أرَ الكثير منها، فقد كنت نائمة معظم الوقت».

«إذاً، دَعيني أرافقك في جولة على أرجائها».

ورافقها في أنحاء السفينة، وأراها كل شيء من مقدّمة السفينة إلى مؤخّرها؛ بما في ذلك الحظيرة حيث يتم الاحتفاظ بالحيوانات التي قلّ

عددها كثيراً بعد خمسة أيام من بدء الرحلة. وفي مقدّمة السفينة، وضعت يدها على ذراعه وقالت:

«قال أبي إنك خضتَ قتالاً. فهل أنت بخير؟».

«اعتدت على ذلك، فأنا أقاتل على الدوام».

«يُفترض بك أن تتعلّم القتال بشكل أفضل».

«هِيه، لقد تدبرت أمري حتى الآن، أليس كذلك؟ لقد نجوتُ».

«ماذا حدث؟ أَخبرني!».

فأخبرها بكل ما حدث مع المضيف غريفنز. وبخلاف حاله عندما روى القصة لأميوس غروي، جاشت عواطفه الآن، واضطر للتوقف مرات قليلة بهدف السيطرة على مشاعره. فإخبار فرجينيا بالقصة جعلها حقيقية أكثر فأكثر بطريقة ما؛ ولم تعد مجرد ذكر لمجموعة من الوقائع.

عندما أنهى، ضغطت على ذراعه قائلة: «هل أنت بخير؟».

«سأكون بخير؛ كما أفترض».

«إنها صدمة، أليس كذلك؟».

فألقى نظرة سريعة إليها مُحتاراً. «ماذا تعنين؟».

«أعني أن تكون مسؤولاً عن موت إنسان، وعالماً أنه كان بالإمكان أن تكون أنت الميت وليس هو».

فهز كتفَيه بارتباك، وأجاب: «أظن ذلك. لا... أعرف فحسب كيف أواجه الأمر. لا أعرف ما هو رد الفعل الملائم».

«أذكر أننا عندما كنا نقيم في ألبوكيرك، اعتاد أبي على العودة من رحلاته، والارتماء على كرسيّه، واحتساء كأس من الشراب. كنا نحاول التكلم معه من دون أن يُجيب. لم أكن أعرف حينذاك ما كان يقوم به، أو أين كان. واكتشفتُ في وقت لاحق أنه كان يتعقّب قاتلاً ما أو خائناً، وأن الأمر لا ينتهي أحياناً بشكل جيد». وصمتت للحظات. «أعتقد أنني أحاول القول إنه عندما يبدأ المرء بعدم الاهتمام بأن يكون لديه رد فعل، فيتعيّن عليه القلق حينذاك؛ لأنه يكفّ عن كونه إنساناً».

وانحنت وقبّلته على خدّه بسرعة؛ لمسة دفء في الهواء البارد. «أنا ذاهبة للاستلقاء لبعض الوقت. سأراك على العشاء على الأرجح».

وابتعدت. كان لا يزال يشعر بدفءِ الأثر الذي تركته شفتاها على خدّه.

كانت الأيام الثلاثة الأخيرة من الرحلة مليئة بالتوقعات، واعترت الركّابَ إثارةٌ غريبة، وكانوا يراهنون على كل شيء؛ بدءاً باليوم والساعة والدقيقة

المحدَّدة لرؤية اليابسة، ووصولاً إلى الاسم الأول للربّان الذي سيصعد إلى متن السفينة ويقودهم إلى داخل ميناء نيويورك. لقد أبقى شارلوك نفسه بمنأى عن ذلك، منكبّاً بحرارة على دروس العزف على الكمان مع راف ستون. لقد تمرّن على أشكال النوتات والنغمات المتناسقة بيده اليسرى حتى تقرّحت أصابعه. وفي اليوم الأخير فقط، سمح له ستون في الواقع بالمزج بين كل ما تعلّمه عن وقفته، واستخدام قوس الكمان، وكيفية إمساك يده اليسرى بعُنُق الكمان؛ وعزف بكل معنى الكلمة.

كان ذلك أحدَ أكثر إنجازاته إثارة للفخر.

قال له راف: «عليك الحصول على كمان؛ كمان جيد غير مصنوع من خشب الصناديق ومجموع بغِراء زهيد الثمن». وعبس في وجه شارلوك، وتابع: «لديك موهبة طبيعية معيَّنة يا صديقي، وأصابعك طويلة ورفيعة ومرنة كمنظّفي الأنابيب. يمكنك الذهاب بعيداً في العزف. لا أقول إن باستطاعتك أن تكون عازف كمان عظيماً في الحفلات الموسيقية_ إذ إنك بحاجة إلى البدء بالدراسة منذ سنّ الخامسة ليحدث ذلك_ ولكنني أعتقد أن باستطاعتك كسب رزقك بالعمل مع جوقة موسيقية مسرحية، إذا واظبتَ على التدرّب بالتأكيد».

وقاطع حديثهما هيجان الركّاب في الناحية الأمامية للسفينة، فقد تمّت رؤية اليابسة!

هرع شارلوك إلى مقدّمة السفينة لينظر. فقد كانت الرحلة طويلة بما يكفي لدرجة أنه نسي كيف يكون السير على سطح لا يتحرك تحت قدمَيه.

كانت أميركا شكلاً قاتماً في الأُفُق؛ لدرجة تحوّلها في غضون عدة ساعات من الإبحار إلى خط شديد الانحدار من التلال والجُروف التي تعلوها أشجار. من الغريب أنها لم تبدُ مختلفة كثيراً عن المنظر الطبيعي لإنكلترا الجنوبية. ولكن هناك شيئاً ما في الهواء؛ أريجاً مميَّزاً لا يمكن تحديده يوحي بأنهم في مكان آخر بالفعل.

انعطفت السفينة وتوجهت نحو نيويورك، وعلى مَيمنتها خط الساحل. وبالرغم من تبقّي عدة ساعات قبل بلوغ الميناء، اندفع بعض الركّاب لتوضيب حقائبهم.

كانت الوجبة الأخيرة على متن السفينة قبل وصولهم أشبه بالاحتفال؛ فقد قدّمت أطباق طعام خاصة وقالب من الحلوى بالإضافة إلى الكثير من الشراب. تناول شارلوك القليل من الطعام، وغادر القاعة حالما أمكنه ذلك

بهدف الحصول على القليل من النوم قبل وصولهم. فقد انتابه شعور بأنه سيكون بحاجة إليه.

وبعد ذلك، شرعوا بدخول ميناء نيويورك. وبالرغم مما كان يعتزم القيام به، وقف شارلوك على سطح السفينة مع الجميع؛ مراقبين الجزر الصغيرة المتنوعة وهي تنزلق بجانبهم. كانت السفينة تتحرك بحذر وحِرص تحت إشراف مرشد السفن؛ البحّار المحلّي الخبير الذي كان قد صعد إلى متن السفينة من مركب صغير تَقَدّم بمحاذاتها.

قال أميوس غروي الذي كان يقف إلى جانب شارلوك: «إنها منطقة معقّدة. فهذا أحد الموانئ الأكثر تعقيداً في العالم. إذ يلتقي هنا المحيط الأطلسي مع نهر هادسن ولونغ آيلند ساوند. أَضف إلى ذلك وجود خمسين جزيرة في الجوار وثلاثين نهراً_ وهذا عدد غير عادي_ فضلاً عن خلجانٍ وسَواقٍ متفرّعة من هادسن وتصبّ هنا. لذا، تحصل على نظام معقَّد من حركات المد والجَزر والتيارات».

«ماذا سنفعل الآن؟». سأل شارلوك.

«أول أمر يتعيّن عليّ القيام به هو الاتصال بالسلطات. فنحن سنكون بحاجة إلى المساعدة في هذا الأمر، وأَدين لها بإطلاعها بأمر عودتي. هناك أشخاص في المدينة يَدينون لي ببعض الخدَمات، وأعتزم أن أطلب منهم المساعدة. وبادئ ذي بدء، ينبغي لنا التحقق مما إذا كان أحدهم يذكر رؤيته ماتي وآسريه. يُفترض أن يكون شقيقك قد أرسل برقية لإبلاغ السلطات بقدومنا؛ لذلك أتوقع أن يكون هناك من ينتظرنا إلى جانب الحوض. بعد ذلك، سنحاول اكتشاف الوقت الذي رست فيه السفينة أس أس غريت إيسترن؛ مُفترضين أنها رست، وإن لم تكن قد رست بعد فسننتظرها. أما إذا كانت هنا، فسنقتفي أثر الرجال الثلاثة؛ أحدهم مريض عقلياً، ويرافقهم فتى. باستطاعتنا العثور عليهم، أنا واثق من ذلك». كان هناك غموض في صوته. وعندما ألقى شارلوك نظرة سريعة على غروي، بدا الأمر كما لو أن وجهه قد نُحت من صخر قاسٍ. «وعندما سنعثر عليهم، سيتمنّون لو أنهم لم يولَدوا قط».

الفصل الحادي عشر

كان النزول إلى البرّ في نيويورك عملية تعمّها الفوضى. فقد حاول الجميع النزول عبر الجسر المتحرك في الوقت نفسه مع أمتعتهم، وبدا أن عدد الركّاب قد تضاعف فجأةً مع صعود كل من كان في الدرجة الثالثة إلى سطح السفينة، طارِفين بأعينهم بسبب ضوء الشمس الساطع. وفي نهاية المطاف، انتهى الأمر بكل الركّاب في مبنى كبير أشبه بمستودع، حيث تشكلت صفوف، وطُلب منهم التقدم في اتجاه صف من الطاولات التي يجلس إليها موظفو دائرة الهجرة ببِذلاتهم الرسمية، متحققين من مستندات الجميع بوجوه جدّية وخالية من حس الفكاهة. سمع شارلوك مئات الأصوات تتكلم في الوقت نفسه بلهجات مختلفة، وإشارات إلى الأماكن المقصودة مثل شيكاغو، وبنسيلفانيا، وبوسطن، وفرجينيا، وبالتيمور.

رأى شارلوك راف ستون يقف في صف مختلف. كان عازف الكمان يحمل حقيبته على كتفه، وتبدو مقتنياته قليلة جداً على مسلك الأمتعة. وحين استدار ورأى شارلوك غمزه، فابتسم له شارلوك.

أما الألماني ـ فرديناند فون زيبلين ـ فكان في صف آخر، ويوحي ظهره المتيبّس وتجهّمه أنه غير معتاد على الانتظار، أو الاختلاط بالناس من طبقة اجتماعية مختلفة لطبقته. لم يكن ينظر حوله مطلقاً، بل كان يحدّق إلى الأمام؛ متمنّياً كما يبدو أن يكون في أي مكان آخر إلا هنا.

رست السفينة في منطقة الميناء الواسعة قرب العديد من السفن الأخرى التي تعود لخطوط نقل بحرية مختلفة. وكان لمعظمها هيكل حديدي أو خشبي مع عجلتَي دَفع ضخمتَين على الجانبَين. ولكن شارلوك لاحظ أن عدداً قليلاً من السفن الخشبية الأصغر حجماً لا يزال يستخدم الأشرعة. وبدت بعض السفن الحديدية الحديثة مزوَّدة بمجموعة نُصول معدنية أو بمحور عجَلة في الخلف.

كان الطقس حاراً وخانقاً، فتذكّر شارلوك غرفة محرّك أس أس سكوتيا؛ ولكن بدون رائحة مياه الصّرف الصحي. حاول التنفس بأقل قَدْر ممكن؛ واقفاً مع فرجينيا وراء أميوس غروي أثناء قيام الأميركي ضخم البنية بالتعاطي مع موظف متجهّم الوجه من دائرة الهجرة، ومن ثم تابعَين إيّاه إلى هواء أميركا الطَّلْق في الخارج.

أميركا! آه، إنه في بلد مختلف! ونظر شارلوك حَوله بانفعال، محاولاً فهرسة الفوارق بين إنكلترا وأميركا. فالسماء هنا زرقاء بالطبع، والناس

يشبهون سكان وطنه الأم، ولكن هناك أمراً مختلفاً لم يتمكن من تحديده. ربما هو تفصيل خياطة الملابس، أو الأسلوب الهندسي للمباني، أو أمر آخر، ولكن أميركا مختلفة عن إنكلترا بالتأكيد.

تمكن غروي من تأمين عربة خيل _ إحدى مئات العربات التي كانت تصطف لنقل الركّاب_ فانطلقوا عبر شوارع نيويورك الترابية والعريضة على نحو مثير للدهشة. كانت معظم المباني مشيَّدة من الخشب أو الحجارة السمراء التي استُخرجت محلياً على الأرجح. وكانت المباني الخشبية مكوَّنة من طابق واحد أو طابقَين، أما ارتفاع المباني الحجرية فكان يصل إلى أربعة طوابق أو خمسة، وللعديد منها طابق سفلي يتمّ الوصول إليه عبر درَجات. وهناك عدد كبير من المباني القريبة من الميناء، كالفنادق، والأنزال، والمطاعم، والمقاهي. ولكن، مع توجّه عربة الخيل إلى داخل المدينة، رأى شارلوك المزيد من المتاجر والمكاتب، إضافةً إلى مبانٍ كبيرة تحتوي على غرف للإيجار؛ حيث يُقيم مئات الأشخاص معاً، ولكن في مجموعاتِ غرف منفصلة. إنه أمر لم يره في إنكلترا إلا في مناطق روكري الخطيرة التابعة للندن ربما.

وعند زاوية كل شارع، كان هناك فتيان يبيعون صحفاً، ملوّحين فوق رؤوسهم بأربع صحف أو ست تحتوي على نصوص صغيرة الحروف، وذاكرين العناوين الأكثر جاذبية بصوت عالٍ؛ كالعثور على جثث من دون أيدٍ، أو سرقات تمّت تحت تهديد السلاح، أو سياسيّين يتقاضون رُشاً. فكل الحياة البشرية تكمن هناك كما يبدو _ حسناً، الوجه الأقبح للحياة البشرية على الأقل _ وكان كل فتى يبيع صحيفة مختلفة: صَن، كرونيكل، إيغل، ستار... أي في ما يشبه موكباً استعراضياً غير متناهٍ من الأسماء.

توقفت عربة الخيل خارج فندق ذي معايير صحية جيدة كما يبدو؛ من تلك الفنادق الأقرب إلى الميناء. إن هناك عامل تصفية على الأرجح، فكر شارلوك في سره؛ إذ ينتهي الأمر بركّاب عنبر الدرجة الثالثة في أنزال متسخة وقَذِرة ورخيصة وقريبة من الماء، في حين ينزل الركّاب الذين يملكون المزيد من المال في المناطق الأكثر نظافة والأعلى كلفة.

«سننزل في فندق جِلابي». قال غروي عندما خرج وساعد فرجينيا في الصعود على الرصيف. «سبق لي أن أقمتُ فيه. إنه مكان لائق. على الأقل، كان كذلك حين كنت هنا سابقاً. تستخدمه وكالة بينكرتون في غالب الأحيان. وهو يقع وراء الزاوية. سندخل ونرى إذا كانت هناك أية غرف متوافرة، ومن ثم سنغادر لتناول العشاء في نيبلوز غاردن؛ وهو أفضل مكان

في المدينة».

أثناء توجّه غروي إلى مكتب الاستقبال لحجز غرف، نظر شارلوك حوله. كان الفندق أكثر حرارة في الداخل، ولكنه مرتَّب، ويوجد سجاد لائق تحت الأقدام، والأشخاص في الرَّدهة مرتدون ملابس فاخرة. وكان معظم الناس يتكلمون بلهجة مماثلة للهجة أميوس وفرجينيا غروي، والأشخاص الذين زاروا هذا البلد. ولكن شارلوك لاحظ مجموعة قليلة من اللغات الأخرى كالفرنسية، والألمانية، والروسية، بالإضافة إلى لغات أخرى لم يفهمها.

عاد غروي إليهما ماشياً الهُوَينا ومبتسماً وقال: «حجزتُ جناحاً لنا. وهو يحتوي على غرفة جلوس بالإضافة إلى ثلاث غرف نوم. عندما نعيد ماتي، سيتوجب عليكما تشارك الغرفة يا شارلوك».

«بالطبع». ازداد أمل شارلوك بفضل طريقة غروي بالقول عندما بدلاً من إذا.

صعدوا الدّرج معاً إلى الطابق الثالث حيث يوجد جناحهم، فلاحظ شارلوك أنه في الطابق الثاني، واستغرب الأمر.

وضّح غروي: «هذه نقطة هامة. إن هذا الأمر أحد الفوارق بين إنكلترا وأميركا. ففي إنكلترا، لديك طابق أرضي، وطابق أول، وطابق ثانٍ، وهكذا دواليك... أما هنا في أميركا، فيعتبر الطابق الأرضي الطابق الأول، ولذلك لدينا فقط طابق أول، وطابق ثانٍ، وهكذا دواليك... ولا يوجد طابق أرضي».

«ماذا يتعيّن عليّ أن أعرف أيضاً؟». سأل شارلوك.

«ما تدعوه رصيفاً، ندعوه هنا ممراً جانبياً. وباستثناء ذلك، كل شيء متماثل. ولكن العملة النقدية المتداولة هنا مختلفة؛ فلدينا دولارات وعشرة سَنتات وسَنتات، وليس جنيهات وشِلِنات وبِنيات. سأعطيكما بعض المال لاحقاً، ولكن لا تبذّراه».

كانت الغرف جيدة. ففي غرفة الجلوس أريكتان وعدة كراسٍ مريحة، بالإضافة إلى طاولة للكتابة، ونافذة تُشرف على الشارع في الخارج. أما غرفة شارلوك فكانت أصغر حجماً، ولكن السرير فيها أكثر ليونة من ذلك الموجود في عزبة آل هولمز. الفندق غير حصري البتة، ولكن من الواضح أنه يُمَدّ بالطعام المناسب لضيوف ذوي مال وتوقعات.

«هل يمكنني الخروج للقيام بنزهة سيراً على الأقدام؟». سأل شارلوك أميوس غروي.

ففكر غروي للحظات ثم أجاب: «أنت فتى ذكي. أتعتقد أن

باستطاعتك إيجاد طريق العودة؟».

«أستطيع ذلك بالتأكيد».

«المدينة قائمة على نظام شبكيّ من المنطقي جداً اتّباعه». ثم عَبر الغرفة باتجاه طاولة الكتابة، والتقط ورقة تمّ تدوين اسم الفندق وعنوانه عليها، وقال: «إذا تهتَ، فاسأل عن فندق جِلابي. العنوان موجود هنا. لا تتورط في أية ألعاب ورق عند زاوية الشارع، ولا تُظهر مالك علناً، ولا تخاطب أحداً بوقاحة. وإذا وجدت نفسك في مكان يدعى فايف بوينتس فاخرُج منه بأسرع ما يمكن. ستعرف أنك في فايف بوينتس بسبب الرائحة؛ فالمكان مليء بمقطرات التربنتين، ومصانع الغِراء، والمسالخ. اتّبع هذه القواعد تَكُن بخير». ونقّب في جَيبه، ثم سلّمه بعض الأوراق النقدية وحفنة من النقود المعدنية، وقال له: «يُفترض بهذا المبلغ أن يشتري لك شيئاً ما تأكله إذا جعتَ، أو دفع أجرة عربة خَيل لتعيدك».

«ماذا ستفعل؟».

«سأحاول اكتشاف متى رست أس أس غريت إيسترن. وإذا لم ترسُ فسأكتشف متى ستصل».

التفت شارلوك إلى فرجينيا ليرى إذا كانت تريد القدوم معه، ولكنها كانت قد انسحبت إلى غرفتها.

فهز غروي رأسه قائلاً: «دَعها بمفردها قليلاً. إذ يُعيد إليها هذا المكان الكثير من الذِّكريات. دَعها تتصالح مع نفسها».

في الخارج، في ضوء الشمس، كانت رائحة مياه الصَّرف الصحي والخُضار المتعفّنة أكثر قوة. جال شارلوك على الرصيف_ الممر الجانبي؛ كما ذكّر نفسه_ مستوعباً المناظر والأصوات في هذه المدينة الجديدة.

مرّ أمام متاجر تحمل لافتات كُتبت عليها عبارة أدوات صغيرة مختلفة، وهي تبيع كما يبدو مستلزمات منزلية من أنواع مختلفة. كما مرّ أمام مقاهٍ تقدّم كل أنواع الأشربة. كانت هناك أزقة تتفرّع من الطريق الرئيس؛ وتفاجأ شارلوك برؤية هررة وكلاب فيها، بالإضافة إلى خنازير برّيّة أيضاً تنقّب في أكوام القُمامة بَحثاً عن شيء ما يؤكل. وهناك أيضاً مطاعم عند كل زاوية تقدّم طعاماً من بلدان مختلفة. لقد صُدم شارلوك بصفة خاصة بعدد المطاعم التي تقدّم المَحار بمختلف الطرائق. فبالإضافة إلى المَحار المَقليّ، يُقدم المحار مسلوقاً ومشويّاً، أو مقدَّماً على ثلج ليس إلا. فالمَحار هو الطعام الأكثر شيوعاً في نيويورك كما يبدو.

وبالإضافة إلى المقاهي والمطاعم والمتاجر، كانت هناك دور عبادة مبنيّة

بحجارة بيضاء؛ وتؤدّي إلى أبوابها الأمامية درَجات بيضاء أيضاً، بالإضافة إلى الأبراج مستدقة الرؤوس، والمستودعات التي تخزّن فيها كل أنواع السلع المنقولة من السفن أو إليها. لقد رأى شارلوك في مجمَّعات سكنية قليلة تنوّعاً أكبر مما رآه في قرى ومدن عدة مجتمعة في إنكلترا.

كان هناك شخص ما يتبعه.

لقد لاحظ الأمر بعد نحو نصف ساعة من التجوال. فقد واصلت قبّعة البولر البنّيّة الظهور في الحشد وراءه، وعرفها من الشريط الأخضر المميِّز الموجود في أعلى القبّعة. جال بنظره على الحشود، متحققاً من وجود قبّعات أخرى مماثلة، ولكن لم تكن هناك سوى قبّعة واحدة منها، وكانت وراءه.

حاول دخولَ أحد المتاجر، وإلقاء نظرة على الأدوات الصغيرة المختلفة المتنوعة المعروضة هناك: من ألواح خشبية للغَسل، وصابون، وملاقط، وما شابه ذلك... وعندما خرج، كان رجل قبّعة البولر البنّية يتسكع عند إحدى الزوايا، قارئاً صحيفة اشتراها من أحد فتيان الشارع كما يبدو. بعد ذلك، حاول شارلوك التواري عن الأنظار داخل زقاق مليء بقُمامة مبعثَرة يؤدّي إلى شارع موازٍ، ولكن رجل قبّعة البولر اكتشف ما ينوي القيام به بطريقة ما، واندفع داخل الزقاق وراءه. وكان شارلوك يرى الرجل وراءه كلما نظر إلى الخلف. لم يتمكن من رؤية وجهه، ولكنه كان ضخم البنية، ويسير وكتفان متمايلتان كما لو أنه نزل للتوّ من سفينة دأبت على التحرك برِفق تحت قدمَيه، ولم يعتَد بعد الشعور بوجود أرض صلبة تحتهما.

تسارعت الأفكار في عقل شارلوك، ولم يعرف ما إذا كان الرجل قد عرفه في الفندق أم رآه في الشارع فحسب وتبعه. فإذا كان قد رآه في الشارع، فإن آخر ما يريد شارلوك القيام به هو استدراجه إلى الفندق حيث أميوس وفرجينيا غروي. لذا، تعيّن عليه التخلّص من مُلاحقه بطريقة ما. لا، قال لنفسه فجأةً، ربما هو بحاجة إلى عكس الوضع، حيث يتبع المُلاحقَ للتحقق من مكان إقامته؛ فربما يكون ماتي مُحتجَزاً هناك أيضاً.

لن يكون الأمر سهلاً.

توارى شارلوك عن الأنظار داخل متجر آخر متعدّد السِّلع يبيع مجموعة جيدة من الملابس: سترات، وقَلَنسوات، وسراويل. متوقعاً بقاء ملاحقه في الخارج لبعض الوقت، التقط شارلوك بسرعة قبّعة مسطَّحة وسترة، ولاحظ بارتياح وجود مَخرج آخر للمتجر؛ مخرج يؤدي إلى شارع جانبيّ. فحمل ما اشتراه إلى المِنضدة، حيث نظر إليه الرجل الذي يقف

هناك من الأعلى إلى الأسفل وقال:

«كما تعلم، ينبغي لصغير مثلك التفكير في شراء مِقلاع. لقد استلمنا مجموعة جديدة منها. هل يهمّك الأمر؟».

«مِقلاع!؟». لقد أربكت الكلمة شارلوك للحظات. هل هذه الكلمة عبارة محليّة ينبغي له معرفتها؟ ومن ثم تذكّر معلومة تعلمها في مدرسة ديبدين. إنه سلاح من نوع ما، ويمكن استخدامه لقذف الحجارة بدقة وقوة.

«كل الفتيان هنا يحملون مقاليع». أضاف الرجل.

«كم يبلغ ثمنه؟». سأل شارلوك.

لم يُضف الثمن الكثير إلى كلفة الملابس، لذلك وافق شارلوك على شرائه. فإذا كان امتلاك مِقلاع يساعده على الاختلاط بالناس، فسيكون الأمر أفضل. وبعد ارتدائه السترة واعتماره القلنسوة، تفحّص المِقلاع أثناء قيام الرجل بلفّ سترته_ تلك التي يعرفها المُلاحق ويبحث عنها_ بورقة بنّية كي يأخذها معه. كان للمِقلاع جِراب صغير من الجِلد يتّسع لحجر صغير، مع سَير جِلديّ من كل جانب. وكان أحد السَّيرَين مصمَّماً لربطه حول المِعصم؛ فيما يُمسك السَّير الآخر كما يبدو، ويُحرّك المِقلاع بشكل دائري ثم يُفلت السير فجأة؛ ممّا يسمح للحجر بالانطلاق في الجوّ.

«ستكون بحاجة إلى بعض الذخيرة». قال الرجل مسلّماً شارلوك الرِّزمة التي تحتوي على سترته القديمة. «سأعطيك كيس كُرات معدنية مجّاناً».

سدّد شارلوك الثمن بواسطة المال الذي أعطاه إيّاه أميوس غروي، ودسّ المِقلاع والكُرات المعدنية في جَيبه، متناولاً سترته الملفوفة بورقة بنية والمربوطة بحبل. ثم سحب مقدّمة القلنسوة الموضوعة على رأسه في اتجاه الأسفل، وغادر المتجر من المخرج الجانبي بمشية سريعة، محاولاً البقاء على مسافة من رجل قبّعة البولر البنّية. وكان عندما يرى زاوية أمامه، يحثّ الخُطى أكثر فأكثر.

منعطفاً وراء الزاوية، صاح لفتى الصحف الأقرب إليه:

«كم يبلغ ثمن كل الصحف؟».

بدا الفتى غير مصدّقٍ حظَّه السعيد، وأجاب: «عشرة سِنتات للنسخة الواحدة. ومعي خمسون نسخة، مما يعني أن ثمنها...». وتوقف ليحسب المجموع ثم قال: «ستة دولارات تماماً».

قدّر شارلوك أن ما يحمله الفتى يفوق الأربعين صحيفة. وحتى إن كانت خمسين فسيكون المجموع خمسة دولارات فقط، لذا قال له:

«سأعطيك خمسة دولارات فقط».

«اتفقنا!». صاح الفتى، وسلّمه كومة الصحف، فأعطاه شارلوك خمسة دولارات. ومع ابتعاد الفتى راكضاً، وملوِّحاً بالمال في وجوه أصدقائه وضاحكاً، شرع شارلوك ببيع الصحف.

«اقرأوا كل شيء عن الأمر!». صاح بأفضل لهجة نيويوركية تمكن من محاكاتها. كان يعلم أن لهجته قد شُوِّهت بسبب إصغائه إلى أميوس غروي وفرجينيا لمدة طويلة من الزمن. ولكن، ما دامت لهجةً غير إنكليزية فلا أهمية كبيرة للأمر على الأرجح. «جريمة مروِّعة في...» وفكر بسرعة ثم تابع: «فايف بوينتس! الشرطة مُربَكة! جرائم إضافية متوقَّعة!».

تحقق فتيان الصحف الآخرون من عناوينهم الرئيسة، متسائلين عن مصدر تلك المعلومة. وكان ثلاثة زبائن قد اشتروا صحفاً منه عندما خرجت قبّعة البولر البنّية من وراء الزاوية.

إنه إيف، الرجل الذي كان في المنزل في غودالمينغ، الرجل ذو الشعر الأشقر القصير الذي كان يحمل مسدساً.

حاول شارلوك تغيير مظهره؛ فأحنى كتفَيه إلى الأسفل، وجعل ظهره يحدودب كما لو أنه مُتعَب ولم يأكل بشكل ملائم منذ مدة. وقد نجح الأمر، إذ مرّت نظرة إيف المحدّقة من فوق شارلوك، متجاهلةً إيّاه كما يتجاهل شخص ما مصباح غاز. وتوقف ممعناً النظر بالشارع أمامه، وباحثاً كما هو يُفترَض عن المكان الذي قصده شارلوك. وعندما عجز عن تحديد مكانه، شتم بصوت هامس. وقف في مكانه للحظات بطريقة غير واثقة، وعلى بُعد ست أقدام تقريباً من الفتى الذي يبحث عنه، ومن ثم استدار فجأةً وابتعد.

رمى شارلوك الصحف عند قدمي الفتى الأقرب إليه وقال: «إليك هذه، بعها».

فقال الفتى مستغرباً: «إنها صحيفة صن، وأنا أبيع كرونيكل فقط».

«وسِّع نطاق عملك». أجاب شارلوك، واندفع وراء إيف.

مشى إيف بخطى سريعة، مطأطئ الرأس ويداه في جَيبَيه. كان يبدو مهموماً، إذ ربما سيغضب مستخدِمه_ أيّاً يكن_ بسبب فقدانه شارلوك. وكان عدم توجهه إلى فندق جِلابي يعني أنه لم يعرف مكان إقامة شارلوك والشخصَين الآخرَين على الأرجح.

كانت الشمس تغيب مُضيئةً قليلاً أعالي المباني، ومُلقيةً نوراً برتقالياً على كل شيء. سطعت الشمس في عينَي شارلوك مباشَرةً، جاعلةً إيّاه ينظر

شزَراً. كان من الصعب اقتفاء أثر إيف. ولا بد أنهما قد مرّا بجانب خمسة مجمّعات سكنية أو أكثر قبل أن يغادر إيف الشارع ويتوجّه إلى داخل نُزُل.

نظر شارلوك حَوله بطريقة غير واثقة؛ إذ لم يكن يعرف ما إذا كان هذا المكان فايف بوينتس أم لا. ولكنه لم يكن يروق للناظر بالتأكيد بقدر المنطقة التي يوجد فيها فندق جِلابي؛ بالرغم من وجود دار عبادة مكسوّة بألواح خشبية متداعية، وذات بُرج متقلقل في آخر الشارع. كانت لا تزال هناك رائحة نتنة، ولكنه لم يكن واثقاً مما إذا كانت رائحة مَقطرات التربنتين والمسالخ أم إنها الرائحة العامة للتعفّن والصَّرف الصحي تطفو فوق نيويورك كضباب غير مرئيّ. لقد بدا المكان خطيراً؛ فالأشخاص المتسكعون في زوايا الشارع لم يعودوا فتيان صحف، بل إنهم رجال يرتدون قمصاناً ممزَّقة وسراويل قذِرة، ويراقبون كل من يمرّ أمامهم بعيون قاسية. في مكان ما، كان هناك رجل يعزف على البوق لحناً حزيناً. كانت نغمات الآلة الموسيقية متنافرة، ولكن هذا التنافر كان متناغماً مع التنافر السائد في المحيط.

كان شارلوك بحاجة إلى الاختلاط أكثر من السابق. لذا، دخل زقاقاً، وفرك قَلنسوَته بالتراب، ومن ثم مزّق أحد كمَّي سترته كي تظهر بطانتها.

يُفترض بهذه الخُدعة أن تكون مناسِبة. فقد بدا أنه ينتمي إلى المكان الآن.

عاد إلى الشارع وهو يعرج قليلاً لتبدو مشيته مختلفة، ثم توجّه إلى النُّزُل. كان الباب مفتوحاً، فألقى نظرة سريعة إلى الداخل.

لم تكن هناك قاعة استقبال كما في جِلابي. فإذا دخل الرَّدهة فسيجد نفسه أمام عدة أبواب ودرج من دون درابزين. لم يكن بإمكانه_ كما يبدو_ التنقل في أرجاء المكان قارعاً الأبواب بَحثاً عن ماتي. لذا، تعيّن عليه التفكير في أمر آخر.

مُلقياً نظرة سريعة حَوله، وجد أن للمبنى المقابل بيت درَج معدنياً في الخارج، مثبَّتاً ببناء من الآجرّ. إنه سُلّم نجاة من نوع ما ربما. وتؤدّي السلالم من طابق إلى آخر، وهي متصلة بشرفات معدنية ضيّقة. وإذا صعدها، فربما سيكون بإمكانه النظر إلى داخل بعض نوافذ النُّزُل؛ إذا كانت الستائر مفتوحة، وإذا كان الزجاج نظيفاً بما يكفي.

كُفّ عن المراوغة! قال لنفسه. عابراً الطريق، انتظر عدم مرور أحد أمامه، ثم صعد سُلّم النجاة بسرعة إلى الطابق الأول؛ أم إنه الطابق الثاني؟ لم يكن واثقاً.

ضغط جسده على مُصبّعة الشرفة المعدنية، وحدّق عبر الطريق. هناك أربع نوافذ من دون أية ستائر، وهذه نعمة. كان في إحدى الغرف رجل لم يعرفه شارلوك يذرع المكان جيئةً وذهاباً. وعبر نافذة أخرى، رأى شارلوك امرأة تحدّق نحو الخارج. كانت مرتديةً قميص نوم، والتقى نظرها نظر شارلوك فابتسمت له بحزن. بينما كانت الغرفتان الأخريان شاغرتين.

صعد السلّم إلى الطابق التالي، فصرف المعدنُ تحته وتمايل. تساءل شارلوك عن المرة الأخيرة التي تمّ فيها التحقق من سلامته، ومن ثم تساءل عما إذا كان قد تم التحقق من سلامته يوماً.

كانت هناك أربع غرف تتشاطر الشرفة التالية.

كانت الغرفتان الأوليان اللتان نظر شارلوك داخلهما مهجورتين.

أما النافذة الثالثة فكانت تُشرف على غرفة يوجد فيها أربعة أشخاص واقفين وهم يحملون كؤوساً قذرة بأيديهم، شارِبين ومتحدّثين. كان أحد الرجال إيف والآخر بيرل؛ الطبيب. ولم يعرف شارلوك الرجلَين الآخرَين.

ولكن الأمر الهامّ كان وقوف ماثيو أرنت قرب النافذة واضعاً مرفقَيه على حافتها، وناظراً إلى الشارع. كانت نظرته المحدّقة تنتقل بفُضول من شخص إلى آخر، ومن شيء إلى شيء. لقد بدا سليماً ومُعافى؛ فلا رضوض، ولا أثر للقشوا على بشرته. وبدا أيضاً مُغذّى؛ أو على الأقل، لم يبدُ نحيلاً وجائعاً، وإنما بدا سئِماً وحزيناً فحسب... إلى أن رأى شارلوك. عندئذٍ، أشرقت عيناه وتغضّن وجهه بابتسامة كبيرة.

فتموّر قلب شارلوك لدى رؤيته ماتي حيّاً وبصحة جيدة كما يبدو. وفجأة، تحرر من الخوف الذي كان يكبته طوال الرحلة، والذي كان يهدد بإعيائه. لذا، طرف عينَيه كابتاً دموع الفرح.

رفع شارلوك إصبعاً إلى شفتَيه مشيراً إلى ماتي بضرورة التزام الصمت، فأومأ الفتى برأسه، ولكنه كان لا يزال مُشرق الوجه. أدرك شارلوك أن الرجال في الغرفة سيشكون بوجود أمر ما إذا رأوا تلك الابتسامة، فوضع شارلوك إصبعيه على زاويتَي فمه وجرّهما نزولاً ليُظهر وجهاً حزيناً مبالَغاً فيه، فعبس ماتي في الطرف المقابل. حاول شارلوك ثانيةً، جاعلاً حاجبَيه ينحدران بحزن أيضاً، فارتفع حاجبا ماتي وصولاً إلى حدّ شعره عندما فهم فجأةً ما يريده منه، وخبت الابتسامة عن وجهه، وعاد فمه إلى شكله الموحي بالحزن الذي رآه شارلوك منذ لحظات، ولكن عينَيه واصلتا الإشراق.

«هل أنت بخير؟». تمتم شارلوك.

فأومأ ماتي برأسه قليلاً.

«هل يعاملونك بشكل جيد؟». تمتم شارلوك ثانيةً.

فتجهّم وجه ماتي كما لو أنه لم يفهم ما قاله له.

«هل... يعاملونك... بشكل... جيد؟». تمتم شارلوك ثانيةً، فاصلاً الكلمات عن بعضها ليسهل على شارلوك فهمها.

فأومأ ماتي برأسه مجدداً ببطء شديد.

«سنُعيدك!». قال له شارلوك.

ففتح ماتي فمه وتكلم، وفهم شارلوك أنه يقول: «أعلم!».

كان الرجال وراء ماتي يُنهون حديثهم كما يبدو، وانتاب شارلوك شعورٌ بأنه لا يملك الكثير من الوقت، فسأله متمتماً: «إلى أين يأخذونك؟».

فتحركت شفتا ماتي، ولكن شارلوك لم يتمكن من فهم ما يحاول قوله، فعبس محاولاً التعبير عن عدم فهمه لما يقول له. عندها، حاول ماتي ثانيةً، ولكن أيّاً تكن الكلمات التي تفوهت بها شفتاه فقد كانت غير مألوفة لشارلوك.

تحركت يد ماتي على إطار النافذة كما لو أنه يكتب شيئاً ما. هل يترك لشارلوك رسالة على التراب والغبار؟ وأشار بعد ذلك إلى خارج النافذة، ومن ثم عبر الشارع في اتجاه دار العبادة القديمة المتداعية التي سبق لشارلوك أن لاحظها، ثم رفع حاجبَيه متسائلاً عما إذا كان شارلوك قد فهم، فهز شارلوك رأسه نافياً. وحاول ماتي مجدداً، كاتباً بشكل إيمائيّ رسالة على إطار النافذة، ومشيراً إلى عتبة النافذة، ومن ثم إلى دار العبادة، وأضاف المزيد من الإيماءات، رافعاً إصبعَين، ومُشيراً إلى شارلوك، ومن ثم إلى نفسه، ورافعاً بعد ذلك ثلاث أصابع وهازّاً كتفَيه كما لو أنه مربَك.

إنه جنون. فأيّاً تكن الرسالة التي يحاول ماتي نقلها، فهي لم تكن مفهومة.

كان شارلوك على وشك أن يُشير إليه مجدداً بأنه لم يفهم عندما عبر أحد الرجال الغرفة، وأمسك بكتف ماتي، جارّاً إيّاه بعيداً عن النافذة. لم ينظر إلى الخارج، لذلك افترض شارلوك أنه أمسك الفتى لأنه يريد منه أن يرافقهم، وليس لأنه رآه وهو يتواصل مع شخص ما في الخارج. فأشاح شارلوك بنظره وحاول التخفّي. وعندما نظر مجدداً، كانت الغرفة فارغة. لقد رحل الرجال مصطحبين ماتي معهم.

اندفع شارلوك على السلّم إلى الأرض، وعبر الطريق بأقصى سرعة في اتجاه النُّزُل. لم يكن واثقاً مما سيفعله، ولكن عليه القيام بشيء ما.

لقد فات الأوان. فبينما كان وماتي يحاولان التواصل، لا بد أن أحد

الرجال نزل لإحضار عربة خيل، في حين أنزل آخَر أمتعتهم إلى الطابق السُّفلي. وأثناء عبور شارلوك الطريق، كانوا يركبون عربة الخيل. تمكن شارلوك من إلقاء نظرة واحدة أخيرة على وجه ماتي الخائف قبل أن يضرب الحوذي الجياد بالسوط فتبتعد العربة.

بحث عن عربة خيل أخرى، ولكن الشارع كان فارغاً من أي شيء عدا الناس، فشعر بسقوط غطاء من اليأس المُظلم عليه.

لا. لا وقت لذلك. عاد في اتجاه الفندق بأقصى سرعة، متتبّعاً الطريق التي كان قد سلكها وحفظها بشكل غير متعمَّد، وعالِماً بوجود ورقة الفندق في جَيبه إذا ضاع. كان عقله يعمل بسرعة بقَدْر ساقَيه، محاولاً اكتشاف معنى رسالة ماتي الأخيرة. من الواضح أنها إلماعة، إجابة عن السؤال الذي طرحه شارلوك. ولكن، ما الذي عناه؟

تشارايدس ربما!؟ هل حاول ماتي تهجئة اسم المكان الذي سيقصده على صورة مقاطع؟ ومع مرور المتاجر، والفنادق، وزوايا الشارع بسرعة أمامه، ومع قلة الهواء الذي يدخل رئتيه ويحرقهما، حاول شارلوك فك رموز الإلماعات؟

كتابة. قلم رصاص؟ قلم حبر؟ كلمات؟ حروف؟

عتبة النافذة. هل كان يعني العتبة نفسها، أو الحجر الذي صُنعت منه؟

وماذا عن دار العبادة؟ ومع وطئ قدمَيه بقوة على الرصيف، وأثناء اندفاعه بجانب مشاة أكثر بطئاً منه، حاول شارلوك أن يتذكر ما يوجد في أعلى دار العبادة. من الواضح أنه بُرج مستدقّ الرأس، وفي أعلى البُرج...

دَوّارة هواء تتحرك لتُظهر اتجاه الريح.

وفجأةً، اكتملت الأُحجية. قلم- عتبة- دَوّارة هواء vane - pen-sill . هناك مكان في أميركا، في الجوار، يدعى بنسيلفانيا. بنسيلفانيا. هل هذا ما كان ماتي يحاول إخباره به؟

ولكن، ماذا عن الرسالة الأخرى؛ الإصبعان المشيرتان إلى نفسه وإلى شارلوك، ومن ثم ظهوره مرتبكاً أثناء رفعه ثلاث أصابع؟ ما معنى ذلك؟

اثنان أي « two »، وقد يعني بها إلى« to ». بنسيلفانيا إلى... أين؟

وحين رأى شارلوك فندق جِلابي، كانت عضلاته تزعق ألَماً، ولكنه واصل الركض بطريقة ما.

ماتي وشارلوك وأمر ثالث، هناك شيء ما مفقود. فرجينيا! لا بد أن تكون فرجينيا. فهذا اسم مكان مثلما هو اسم فتاة!

بنسيلفانيا إلى فرجينيا. لم تكن العبارة تحمل معنى واضحاً لشارلوك، ولكن ربما يكون أميوس غروي قادراً على شرحها.

واندفع إلى داخل الفندق عبر بابه الأمامي، ثم صعد الدّرج بسرعة، وانهار بكل معنى الكلمة عند باب الجناح، وضرب عليه بقبضتَي يدَيه. وحين فُتح الباب وقع نحو الداخل. كانت فرجينيا واقفة فوقه مُجفَلة.

«أين والدك؟». لهث متكلماً بصعوبة.

«لم يَعُد بعد. لا بد أنه لا يزال في وكالة بينكرتون».

«لقد رأيت ماتي. إنهم يأخذونه الآن». لقد تعيّن عليه إخراج الكلمات من فمه بالقوة أثناء لُهاثه. «نقل ماتي رسالة إليّ... بنسيلفانيا إلى فرجينيا. أعتقد أنه كان يحاول إطلاعي على المكان الذي يصطحبونه إليه، ولكنني لم أفهم. هل هم ذاهبون إلى بنسيلفانيا أو فرجينيا؟ أو إلى كلَيهما؟ كلاهما مكانان، أليس كذلك؟».

فهزت فرجينيا رأسها مجيبة: «الأمر بسيط جداً. تسيِّر سكةُ حديد بنسيلفانيا ريلروود قطاراتٍ من محطتها في نيويورك. ولديها خط يتوجّه إلى فرجينيا، وهم يصطحبون ماتي إلى هناك. لا بد أن يكون الأمر كذلك».

«علينا العثور على والدك وإخباره».

فقالت: «لا وقت لدينا لفعل ذلك الآن. فإذا كانوا متوجهين إلى المحطة، إذاً يتعيّن علينا الوصول إلى هناك الآن واعتراض طريقهم، ومحاولة استعادة ماتي. لا يمكننا انتظار عودة أبي. سأترك له رسالة».

وتوجّهت نحو الطاولة بسرعة، وفتحت دُرجاً، وأخرجت منه لفافة أوراق مالية وقالت: «ترك أبي هذه هنا كي لا تُسرَق من جَيبه في الشوارع. ليس السبب أن هناك من سيحاول فعل ذلك، ولكن لأنه حذر على الدوام. بأية حال، قد نحتاج إليها».

ودوّنت بسرعة رسالة قصيرة لوالدها على إحدى الأوراق الموجودة على طاولة الكتابة، ومن ثم نزلا راكضين إلى الطابق السُّفلي، وخرجا من الفندق. كانت هناك عربة خيل تُنزل راكباً عند الفندق، فقفزت فرجينيا إلى داخلها وسحبت شارلوك وراءها، ثم تكلمت مع السائق. لم يتمكن شارلوك من سماع ما قالته، ولكن عربة الخيل انطلقت بسرعة.

«وعدتُه بمضاعفة أُجرته إذا أوصلنا إلى محطة القطارات في غضون عشر دقائق». قالت مُطلقةً ابتسامة عريضة.

تمسّك شارلوك وفرجينيا بإحكام فيما كانت عربة الخيل تُحدث طقطقة أثناء عبورها شوارع نيويورك. نزلت العجلات مرتَين في حُفر، قاذفةً كلاً

منهما نحو الآخر، ولكنهما كانا يبتعدان عن بعضهما بسرعة.

وعندما توقفت عربة الخيل خارج واجهة محطة القطارات الضخمة المزوَّدة بأعمدة، كان شارلوك يشعر بالألم من جراء الرحلة الواثبة. وفيما كانت فرجينيا تنقد السائق أجرته، انطلق مسرعاً إلى داخل المحطة.

كانت المحطة مسرحَ فوضى مراقَبة، مع تحرّك الناس في كل الاتجاهات عبر رَدهة رخامية ضخمة. في الجانب المقابل للرَّدهة، كانت هناك مجموعات قناطر تؤدّي إلى ما افترض شارلوك أنها أرصفة الركّاب، فيما تُعلن اللوحات عن الأماكن التي تقصدها القطارات، والمواقف على امتداد الطريق. كان يتم إنزال بعض اللوحات ورفع أخرى حتى أثناء مراقبته.

ركض شارلوك على امتداد صف القناطر متحققاً من كل اللافتات. وبعد لحظات قليلة، أدرك أن فرجينيا تركض بجانبه.

شيكاغو، ديلاوير، بالتيمور... وخطر ببال شارلوك أثناء ترنّحه بصعوبة أن تكون فرجينيا ولاية، ولكن الأماكن المقصودة والمدونة أسماؤها على اللوحات مدن. ولو كان في إنكلترا لَعلِم أن ساوثمبتون مثلاً موجودة في هامشاير، ولكن هنا، في أميركا، لم يكن يملك أية فكرة عن أية ولايات تحتوي على أية مدن.

نادت فرجينيا: «هناك! ريتشموند... إنها عاصمة فرجينيا. المسار 29. خط بنسيلفانيا».

وتقدّمت شارلوك مروراً بإحدى القناطر. عبس حارس يرتدي بِذلة رسمية زرقاء ويعتمر قلنسوة مستدقة الرأس عندما رأى سترة شارلوك الممزَّقة، وحاول إيقافهما، ولكن فرجينيا ركضت أمامه فحاول الإمساك بذراع شارلوك الذي ما كان منه إلاّ أن دفعه جانباً.

ركضا على امتداد رصيف الركّاب بجانب مقطورات قطار بدت غير متناهية، فيما كان المحرك في الجهة الأمامية غير مرئيّ وراء منحنى. وبخلاف محطات القطارات البريطانية حيث أرصفة الركاب مرتفعة إلى مستوى الأبواب عند طرفَي المقطورات، كانت الأرصفة هنا أكثر انخفاضاً وتؤدّي درَجات إلى كل باب.

أمعن شارلوك النظر في النوافذ أثناء ركضهما، باحثاً عن وجه ماتي، ولكن وجه جون ويلكس بوث المحروق وذا النّدوب هو ما رآه أولاً، فأوقف فرجينيا، ومن ثم عادا إلى الوراء في اتجاه آخر المقطورة.

لهث قائلاً بصعوبة: «لا وقت لدينا».

نظرت فرجينيا إلى القطار في الاتجاهَين. فباستثناء مجموعة صغيرة من

الناس الذين يصعدون إلى متن القطار على مَبعُدة منهما، لم يكن هناك أحد يستطيع مساعدتهما. حتى إن جامع التذاكر الذي كان قد حاول الإمساك بهما اختفى؛ ليُحضر الشرطة ربما.

قالت فرجينيا بعد أن شرعت بصعود الدرَجات: «علينا العثور على حارس على متن القطار، فباستطاعته منع القطار من الانطلاق».

كل ما كان بإمكان شارلوك القيام به هو صعود الدرَجات وراءها. لم يكن واثقاً مما إذا كانت قد فكرت في كل شيء جيداً، ولكن لم تكن لديه أية أفكار أفضل.

وجدا نفسَيهما داخل مقطورة، في وسطها ممرّ بين المقاعد الخشبية المكسوّة بقماش منجَّد.

وفي منتصف المسافة، رأى على بعد مقعدَين مقابلَين له إيف، وبيرل، وجون ويلكس بوث، وماتي؛ وفقاً لشكل مؤخّر رأسه. كان الرجال يتحدثون بانفعال، فأخفض شارلوك رأسه بين مقعدَين قبل أن يروه.

كانت فرجينيا تبحث عن حارس في الأنحاء، وخفق قلب شارلوك في صدره عندما سمع صفّارة في الخارج؛ عاصفة من الصدى الحادّ والعالي.

والأمر التالي الذي حدث هو شروع القطار بالتحرك.

الفصل الثاني عشر

أنبأته فطرته بضرورة الرَكض نحو الباب، والقفز من القطار. لذا، أمسك بذراع فرجينيا وسحبها في اتجاهه، ولكنها قاومت.

همس بصوت منخفض: «علينا النزول! لا تذاكر لدينا، ولا يمكننا أن نترك والدك وراءنا!».

فأجابته: «يمكننا الحصول على تذكرتين من الحارس في القطار، أو إخباره أن أبانا يملك تذكرتينا وهو في مقطورة أخرى. ويمكننا إرسال برقية إلى أبي عندما نتوقف لنُطلعه فيها على مكان وجودنا. الأمر الهام حالياً هو ألاّ نفقد الرجال الذين يحتجزون ماتي. فإذا حصل ذلك سنفقدهم إلى الأبد. علينا أن نلحق بهم إلى أن يستقروا في فندق آخر، أو منزل، أو ما شابه».

«ولكن...» استهلّ شارلوك كلامه، غير أن فرجينيا قاطعته قائلة:

«ثِق بي. هذا بلدي، وأنا أعرف كيف تسير الأمور. وقد سبق لي أن قمت برحلات على متن القطار بمفردي. سنكون بخير».

صمت شارلوك؛ إذ إن الأمر قد انتهى بهما صدفة حيث هما الآن، ولكنْ يتعيّن عليهما الاستفادة قدر الإمكان من الظرف الذي وجدا نفسيهما فيه. والنزول من القطار في هذه المرحلة والعودة إلى الفندق سيهدران كل جهد بذلوه للوصول إلى أميركا.

«حسناً، سنبقى».

«لا خيار آخر لدينا الآن». وأشارت فرجينيا بإصبعها في اتجاه النافذة. في الخارج، كان رصيف الركّاب قد غاب عن الأنظار، فيما القطار ينطلق بسرعة كبيرة؛ عابراً شوارع ترابية واسعة. لقد تمكن من الشعور بطقطقة عجَلات المقطورة وسماعها أثناء مرورها فوق الوصلات على السكة الحديدية كل مئة ياردة تقريباً.

ألقى شارلوك نظرة سريعة على امتداد الممر في اتجاه الرجال الذين يأسرون ماتي وقال: «كلهم مستقرون على مقاعدهم. يُفترض بنا الآن العثور على مقعدين فارغين وتحديد خطوتنا التالية. هل نتبعهم فقط، أم نحاول استعادة ماتي منهم؟».

أجابت فرجينيا: «ذلك يعتمد على ما سيحدث لاحقاً. لماذا تعتقد أنهم توجّهوا إلى القطار بسرعة كبيرة؟».

أقرّ شارلوك: «إنه خطئي؛ فقد رآني أحدهم في الشارع، ولكنني تمكنت

من الاختباء، فعاد إلى الفندق الذي ينزلون فيه، وأطلعهم على ذلك. لا بد أن يكونوا قد قرروا الانتقال حينها. وعندئذٍ، تمكن ماتي من إطلاعي على المكان الذي سيصطحبونه إليه». وصمت متأملاً المكان حوله، ثم تابع: «يوجد مقعدان شاغران هناك. فلنَجلسْ على الأقل».

كان المقعدان في الخلف؛ بعيدين عن مجموعة الرجال الذين يأسرون ماتي. وأثناء جلوسهما، ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى خارج النافذة، وتمكن من رؤية المحرك الذي يدفع القطار. لقد توقّع بسذاجة أن يبدو كتلك المحركات الموجودة في إنكلترا، والتي تدفع القطارات من فارنهام عبر غيلدفورد إلى لندن، ولكن هذا المحرك مختلف. فشكل المِرجل الأساسي الأسطوانيّ مماثل، ولكن المداخن المعدنية الصغيرة الموجودة في القطارات البريطانية استُبدلت بشيء ضخم ذي جوانب شديدة الانحدار، وناتئ من الناحية الأمامية للمِرجل. وهناك شيء ما غير مألوف متصل بالناحية الأمامية للقطار؛ مصبّعة معدنية ناحيتها الأمامية مستدقة الرأس، وقد صُمِّمت كما يبدو لجرف كل ما قد يعترض طريق القطار على سكة الحديد.

«جاموس». قالت فرجينيا بإيجاز متتبعة نظرته المحدّقة.

«ماذا؟».

«جواميس وأبقار. إنها تتجوّل على السكة الحديدية وتبقى هناك أحياناً. وعندها، يتعيّن على القطار الإبطاء من سرعته، وتدفعها تلك الأشياء جانباً».

«أوه». وفكر للحظات. «ما رأيك بإخبار جامع التذاكر؟».

«إخباره بماذا؟».

«بأن ماتي مُختطَف».

«ماذا يمكنه أن يفعل؟». وهزت فرجينيا رأسها، وتحرك شعرها نحاسيّ اللون بشكل دائري حولها. «يكون جامع التذاكر عادة شخصاً مُسِنّاً على وشك التقاعد، ولن يتمكن من القيام بأي شيء».

واندفع القطار مسرعاً، فيما كان شارلوك يتأمل عبر النافذة إفساح المباني والطرقات المجال لأرض مفتوحة ورُقَع أشجار. وجعلت أشعة الشمس البرّاقة النباتات تبدو متوهّجة.

«كم تدوم الرحلة؟».

«إلى ريتشموند؟». وفكرت للحظات. «يوماً، ربما. يعتمد الأمر على ما إذا كان القطار سيتوقف في مكان ما. وربما سيتعيّن علينا تبديل القطار في مكان ما».

«يوماً!؟». هذا البلد كبير، فكر في سره. «ماذا عن الطعام؟».

«قد تكون هناك مقطورةٌ تقدم الطعام في مؤخّر القطار، وإلا فسنجد أشخاصاً يبيعون الطعام في المحطات التي سنتوقف فيها. يتوقف القطار لمدة طويلة بما يكفي لنتمكن من النزول للحصول على وجبة طعام خفيفة؛ حتى إننا قد نتمكن من توجيه برقية إلى أبي؛ إلى الفندق، أو عبر وكالة بينكرتون. ولا سيما إذا كتبناها قبل أن نقوم بأي عمل آخر، وسلّمناها إلى مكتب التلغراف المتوافر في معظم محطات القطارات».

«سيتوجب علينا الحِرص على عدم رؤيتهم لنا». أشار شارلوك.

«سنتدبر الأمر». قالت بشكل مطَمئِن.

ألقى شارلوك نظرة سريعة من فوق كتفه للتحقق من عدم تغيير الرجال أماكنهم. كان أحدهم قادماً في اتجاهه عبر الممر، فاستدار شارلوك بسرعة، آملاً ألا يكون الرجل قد رآه. إنه بيرل، الطبيب الذي يفقد شعره. مرّ بجانبهما، وراقب شارلوك ظهره أثناء ابتعاده عنهما. يتعيّن عليه التنبّه؛ فعندما يعود الرجل أدراجه في الاتجاه الآخر سيكون في مواجهتهما، وسيتعرف إلى شارلوك إذا رآه ثانيةً.

فخطر ببال شارلوك أن الوسيلة الفضلى لإخفاء وجهه هي الاستدارة نحو فرجينيا وتقبيلها لدى عودة بيرل. فبهذه الطريقة، لن يرى بيرل سوى قفا رأسه. استدار نحو فرجينيا، وفتح فمه مستعداً لاقتراح فكرته، فألقت نظرة سريعة عليه بعينِين بنفسجيّتَين تسطعان في أشعة الشمس.

«ماذا؟». سألته.

«كنت أفكر فحسب...» قال بتردد.

«فيم تفكر؟».

يسهل القول _ «قد أكون بحاجة إلى تقبيلك كي لا يُفتضح أمرنا، لذلك لا تتفاجئي إذا قمت بذلك» _ ولكنه لم يتمكن من التفوه بالكلمات لسبب ما. كان وجهها على بُعد بوصات قليلة من وجهه، وكانا قريبَين من بعضهما بما يكفي؛ لدرجة تمكّنه من عدّ النَّمش على وجهها؛ إنهما قريبان بما يكفي لدرجة تمكّنه من الانحناء إلى الأمام وملامسة شفتَيها بشفتَيه.

«لا شيء. لا تقلقي».

فعبستْ. «لا، ماذا هناك؟».

«لا أهمية للأمر حقاً». واستدار مترقباً عودة بيرل. وفكر في أنه إذا رأى الرجل، فسينظر إلى خارج النافذة فحسب أو ما شابه. وأدرك أنه لا يزال يعتمر القلنسوة المسطحة التي كان قد اشتراها من متجر أدوات

صغيرة مختلفة، ويمكنه إنزالها فوق عينَيه والتظاهر بالنوم. سينجح الأمر ربما.

ألقى نظرة سريعة إلى خارج النافذة مجدداً. كانت أعمدة التلغراف تمرّ أمامهم بسرعة، واحداً تِلو الآخر، في موازاة سكة الحديد. فعدّ الثواني التي تفصل بين عمود وآخر: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. وعدّ ثانيةً: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة. كانت المسافة بين الأعمدة متساوية كما تبيّن له. ولو كان يعرف المسافة لَتمكّن من استخدام المدة الفاصلة بين عمود وآخر لاكتشاف مدى سرعة القطار. لن تكون المعلومة أكثر إثارة للاهتمام، ولكنها طريقة لتمضية الوقت.

مرّت بلدة صغيرة أمامهم وغابت حالما ظهرت، وكل ما تمكّن شارلوك من رؤيته منها هو مبانٍ خشبية منخفضة وعربات جياد رباعية الإطارات، والكثير من الأحصنة.

لقد جعلته حركة القطار يشعر بالنُّعاس. إذ كان قد بذل قدراً كبيراً من الطاقة أثناء عودته إلى الفندق راكضاً في وقت سابق من اليوم، وبدأ الآن يشعر بوطأة التوتّر المتواصل. لذا، كان جسده متشوّقاً للراحة.

ربما يكون النعاس قد غلبه لوقت قصير، لأن الأمر التالي الذي وجد نفسه يقوم به هو النظر إلى خارج النافذة؛ إلى منحدر طويل يمتد وصولاً إلى مياه نهر متلألئة. كان القطار يعبر جسراً فوق وادٍ ضيّقٍ وعميق. وانطلاقاً مما تمكن من رؤيته، كان الجسر مصنوعاً من الخشب وبالكاد أعرض من القطار.

شعرت فرجينيا بتوتّره الفجائي فقالت: «لا تقلق، إنه آمن تماماً. فهذه الجسور قائمة منذ سنوات».

بعد قليل، شرع القطار بالإبطاء، فقالت فرجينيا:

«إنه يدخل محطة».

«أم إن هناك جاموساً على السكة؟». أجاب شارلوك، وشرع عقله بفرز الاحتمالات. فببلوغ القطار إحدى المحطات، سيجدان نفسيهما أمام مجموعة كاملة من الخيارات؛ بدءاً بالحصول على لُقمة طعام، ومروراً بتوجيه برقية إلى أميوس غروي، ووصولاً إلى محاولة إنقاذ ماتي. فإذا تمكّنا من إخراجه من القطار بطريقة ما، فبوسعهم انتظار وصول أميوس غروي إلى البلدة، أو العودة على متن قطار آخر؛ على افتراض أن هناك أكثر من رحلة واحدة في اليوم، أو رحلة واحدة في الأسبوع. وخطر بباله أن لا فكرة لديه البتة عن جدول المواعيد في هذا البلد.

قال: «علينا الخروج إلى منصة الركاب إذا تسنّت لنا الفرصة. علينا فصل ماتي عن هؤلاء الرجال».

أبطأ القطار سرعته أكثر فأكثر، وكان يعبر حقلاً ضخماً من نبتات طويلة ذات رؤوس بصلية الشكل. والسياج الوحيد الذي تمكن شارلوك من رؤيته كان يمتد من خط القطار إلى الأُفُق. خرق صوت صفّارة القطار البخارية الهواء فجأةً، وبدا كنَعيب حزين أشبه بصيحة مخلوق خُرافيّ. مرّ القطار أمام عدد قليل من الأَهراءات والمنازل المتباعدة، ومن ثم أمام المزيد من المنازل، وظهرت بعد ذلك بلدة بكاملها مع توقف القطار تدريجياً على امتداد ممشى خشبيّ مرفوع قليلاً عن الأرض.

«لِننزلْ». قال شارلوك مع صياح جامع التذاكر البعيد: «هذه هي بِرسِفِرنس، نيوجرسي. سنتوقّف لمدة عشر دقائق أيتها السيدات والسادة؛ توقُّف لمدة عشر دقائق. هذه هي بِرسِفِرنس».

أمسك شارلوك يد فرجينيا وتوجّها نحو الباب، ففتحه أحدهم من الخارج، وقفز كلاهما إلى الممشى الخشبيّ.

«أَحضري الطعام، فأنت التي تحملين المال. أما أنا فسأتحقق من عدم نزولهم هنا».

كان الممشى الخشبيّ مزدحماً بأشخاص يرتدون ملابس مائلة إلى اللون الرمادي ومصنوعة من قماش الجينز، ومن مخمل مضلَّع، أو من قطن مزخرَف أشبه بقماش صيفيّ موشّى بمربعات ملوَّنة. شقّ شارلوك طريقه عبرهم، ووقف في ظل الجدار. كان بعض الأشخاص يغادرون القطار بشكل نهائي، فيما يغادر آخرون للحظات قليلة، ويصعد البعض إلى متن القطار، ويجوب جامع التذاكر الأرجاء بخطى واسعة، متحققاً من معرفة كل شخص لوجهته.

خرج إيف_ الرجل قويّ البنية ذو الشعر الأشقر القصير_ من القطار مع ماتي. أما بيرل، الطبيب، فكان على الأرجح يعتني بجون ويلكس بوث المجنون جزئياً. بدا ماتي شاحب الوجه، ولكن إيف كان يعامله بشكل معقول كما يبدو؛ فهو لم يدفعه أو يضربه على الأقل، بل اكتفى بوضع يده على كتفه، ودفعه في اتجاه صف من المباني الخشبية الصغيرة، وهي أكبر حجماً بقليل من كوخ حديقة، وقائمة على أحد جانبي السكة الحديدية. إنها حجيرات مراحيض عامة، كما افترض شارلوك. وربما تكون المراحيض عبارة عن حُفَر في الأرض محجوبة عن الأنظار بهدف تأمين الخصوصية.

دفع إيف ماتي إلى داخل إحدى حجيرات المراحيض الخارجية وأغلق الباب. ووقف هناك للحظات، ومن ثم ابتعد وهو متجهّم الوجه، واضعاً يده فوق أنفه. لقد أبعدتْه الرائحة الكريهة كما يبدو.

ركض شارلوك إلى الناحية الخلفية لحجيرات المراحيض الخارجية، وبدأ بعدها ليصل إلى حجيرة المرحاض التي دخلها ماتي؛ باعتقاده. كان الخشب في الناحية الخلفية متعفّناً تقريباً في الأسفل. إن إيف مُحِق؛ فالرائحة مثيرة للغثيان.

«ماتي». همس شارلوك عبر أحد الشقوق في الخشب.

«شارلوك». صاح ماتي. «رأيتك وفرجينيا على متن القطار!».

«هل رأونا؟».

«لا. كانوا سيقولون ذلك إن رأوكما».

«صحيح». واختبر شارلوك متانة الخشب عند قاعدة حجيرة المرحاض الخارجية. «ساعدني على إحداث فجوة».

لقد أزالا معاً قِطعاً من الخشب_ شارلوك يسحب وماتي يدفع_ بما يكفي لإحداث فجوة كبيرة يستطيع ماتي الزحف عبرها. فأمسك شارلوك بيده وسحبه نحو الخارج. وفي غضون لحظات، كان الفَتيان واقفَين معاً.

«هل أنت بخير؟». سأل شارلوك حابساً أنفاسه.

«أنا أفضل حالاً الآن». وتجهّم وجه ماتي. «كنت خائفاً على متن السفينة، ولكنهم عاملوني بشكل جيد، وأطعموني. لقد عرفت أنك ستأتي لأجلي».

«لِنخرج من هنا».

تسللا معاً على امتداد الناحية الخلفية لحجيرات المراحيض الخارجية، وألقى شارلوك نظرة متفحّصة على جانبَي المكان. كان إيف لا يزال واقفاً جانباً منتظراً.

«أين فرجينيا؟». سأل ماتي.

«تُحضر طعاماً».

«ماذا عن السيد غروي؟».

«عاد إلى نيويورك». اعترف شارلوك.

«كيف حدث ذلك؟».

فهز شارلوك رأسه. «حصلت مجموعة كاملة من الظروف المتزامنة. لم يكن ذلك جزءاً من الخطة».

كان إيف يجوب المكان بعيداً، مُمسكاً أنفه. وأثناء إدارته ظهره،

أمسك شارلوك ذراع ماتي بإحكام وقال: «هيا بنا!».

وركضا معاً عبر الأرض المفتوحة في اتجاه المبنى البسيط المكسوّ بألواح خشبية، والذي يحتوي على مكتب التذاكر وغرفة الانتظار. قاد شارلوك ماتي إلى الجانب الآخر؛ ليكون بمنأى عن أنظار إيف تحسّباً لاستدارته. كانت فرجينيا بانتظارهما هناك، فسلّمت شارلوك لفّتَي ورق تحتويان على شيء ما ساخن، ومن ثم عانقت ماتي مطوَّلاً وقالت:

«أنا سعيدة جداً لرؤيتك مجدداً!».

فضغط ماتي على ظهرها، وقال بكلام نابع من القلب: «وأنا أيضاً».

ألقى شارلوك نظرة متفحّصة على المبنى. كان عدد المحتشدين يتضاءل؛ فالأشخاص الذين سيغادرون على متن القطار قد صعدوا، والأشخاص الذين نزلوا منه تفرّقوا. كان لا يزال هناك عدد قليل فقط من الركاب الذين نزلوا لتمديد سيقانهم والحصول على بعض الطعام، بالإضافة إلى الحارس الذي يقف بجانب القطار، ملقياً نظرةً حوله ومتحققاً من ساعة جَيبه. وفي مقدّمة القطار بالقرب من المحرك، كان السائق يُعيد ملء القطار بالماء من خزان قرب السكة الحديدية مرفوعٍ على ركائز.

قال شارلوك: «كل ما يجب علينا القيام به الآن هو الانتظار هنا إلى أن ينطلق القطار، ومن ثم ينبغي لنا أن نستقلّ القطار التالي للعودة إلى نيويورك».

«لن يكون الأمر بهذه السهولة». حذّرت فرجينيا.

«لِمَ لا؟».

وأشارت في اتجاه حجيرات المراحيض الخارجية قائلة: «انظر!».

كان بيرل وإيف واقفَين معاً، ومن الواضح أن إيف يشرح شيئاً ما لبيرل الذي يبدو غاضباً.

قال شارلوك: «لقد أدركا أن ماتي قد رحل. والآن سيبدآن بالبحث عنه».

كان مُحِقاً. فقد افترق بيرل وإيف، واتخذ كل منهما وُجهة مختلفة؛ فعاد بيرل إلى القطار باحثاً تحته ليرى إذا كان هناك من يقف في الجانب الآخر، في حين سار إيف في اتجاههم. لا، في الواقع، كان يسير في اتجاه المحطة، ودخلها ليتحقق من غرفة الانتظار.

قال شارلوك: «بسرعة، في هذا الاتجاه».

وقاد الآخرَين في اتجاه القطار.

«لا يمكننا الصعود إلى متن القطار!». اعترضت فرجينيا.

فأجاب شارلوك: «علينا القيام بذلك. إذ سيتحقق إيف وبيرل من أنحاء المحطة، ومن حجيرات المراحيض الخارجية. وإذا تمكنّا من الصعود إلى متن القطار والنزول من الجانب الآخر، فبإمكاننا أن نحاول الهرب، ومن ثم سنعود عندما يغادر القطار».

وصعد الدرَجات المؤدية إلى القطار، وتبعته فرجينيا وماتي. وقد تمكن من الشعور بترددهما.

انتقل شارلوك بسرعة إلى الجانب الآخر للمَقطورة، وحاول فتح مِقبض الباب... غير أنه كان مُقفَلاً. لذا، أدار المِقبض بقوة أكبر؛ ولكن من دون نتيجة.

كانت فرجينيا تقف عند الباب الآخر، فقالت بصوت عالٍ: «إنهما عائدان!».

عندها، ألقى شارلوك نظرة سريعة على أرجاء المَقطورة، ثم قال بشكل عاجل: «يمكننا الوصول إلى الباب التالي، هيا».

لحسن الحظ، كانوا قد صعدوا إلى متن مَقطورة مختلفة عن تلك التي غادروها. وأثناء اندفاعهم عبر الممر الأوسط بجانب أشخاص يتحققون من أمتعتهم أو يجوبون المكان ليس إلا، لم يروا أيّاً من الرجلين اللذين يحاولون تجنّبهما.

وفي الطرف الأبعد، تحقق شارلوك من الباب المؤدي إلى خارج القطار بعيداً عن المحطة، فوجده غير مُقفَل. ولكن، أثناء فتحه الباب واستعداده للقفز، رأى إيف الأشقر قويّ البنية واقفاً في ذاك الجانب من القطار، غير ناظرٍ في اتجاه شارلوك بل إلى الريف، فأغلق شارلوك الباب بسرعة.

كانت فرجينيا تتحقق من جانب المحطة. «لا يزال الرجل الأصلع هناك. إنه يتحقق من جانبَي القطار».

في الخارج، أطلق الحارس صفّارته صائحاً: «فليصعد الكل إلى متن القطار!».

في تلك الأثناء، كان شارلوك يقلّب الخيارات في عقله؛ ولكنْ لا سبيل للنزول من القطار.

بعد قليل، قال شارلوك بشكل حاسم: «سيتوجب علينا المحاولة مجدداً في المحطة التالية. لقد استعدنا ماتي منهم على الأقل».

انطلقت صفّارة الحارس مجدداً، وبعد لحظات اهتزّ القطار وشرع بالتحرك ببطء في بادئ الأمر، رافعاً سرعته تدريجياً، فألقت فرجينيا نظرة سريعة إلى خارج النافذة وقالت: «عاد الرجل الأصلع إلى متن القطار».

فتحقق شارلوك من الأمر من الناحية الأخرى ثم قال: «وإيف أيضاً».

«إذاً، الجميع عادوا إلى متن القطار». قال ماتي ثم تابع: «رائع! ولم أحظَ بالفرصة لدخول المرحاض».

«على الأقل لدينا طعام». أشارت فرجينيا.

قال شارلوك: «لِنعثر على بعض المقاعد الشاغرة. ومن الأفضل أن تكون على أبعد مسافة ممكنة من أولئك الرجال. في الطرف الآخر من القطار إذا أمكن». واستدار ليتجه إلى مؤخّر القطار، ولكن شيئاً ما في السكون وراءه جعله يستدير.

كان بيرل ورجل آخر لم يعرفه شارلوك واقفَين وراء فرجينيا وماتي، وواضعَين نصلَي سكينين على حَلقَيهما. لا بد أن يكونا قد قدما من المقطورة الأخرى_ من مقدّمة القطار_ من دون أن يلاحظوهما.

ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى الوراء من فوق كتفه، فرأى إيف يجوب ممرّ المقطورة التي كان يخطط لدخولها. ولم يكن يبدو سعيداً.

قال بيرل: «لا تكن غبيّاً أيها الفتى. فإيف غاضب بما فيه الكفاية، لذا لا تجعله أكثر غضباً. فهو يفقد... السيطرة على نفسه أحياناً. وعندئذٍ تحدث أمور سيئة».

ألقى شارلوك نظرات سريعة على كلٍّ من إيف وبيرل، وشعر بضيق في صدره؛ لا سبيل للفرار. ووجد نفسه أمام خيارَين يؤدي كلاهما إلى الوقوع في الأَسر.

لا، فكر في سره. ما الذي يقوله مايكروفت؟ ما الذي يقوله أميوس غروي؟ «عندما تكون أمام خيارَين فقط ولا تحب أيّاً منهما، اتخذ خياراً ثالثاً».

ففتح باب المقطورة وخرج إلى الهواء الطلق.

مرّ أمامه بسرعة المنظر الطبيعي الأخضر الكثيف والمشوَّش لريف نيويورك، فسمع فرجينيا تلهث وراءه، وإيف يلعن. لقد أبقى يدَه اليسرى ممسكةً بإطار الباب، وقدمَه اليسرى مثبّتَة عند نقطة التقاء الإطار بالأرض، وكانت الريح الصافرة تدفعه إلى الوراء وتجعله يتمايل داخل الفسحة بين المقطورتَين. لقد سبق له أن رأى سلّماً هناك في وقت سابق يؤدّي إلى سطح المقطورة، فمدّ يده اليمنى للإمساك به. أطبقت أصابعه على إحدى الدرجات، فمدّ ساقه اليمنى محاولاً الوقوف على السلّم. وبعد مرور دقائق كما بدا له_ ولكنها لم تكن سوى ثانية واحدة أو ثانيتَين_ اصطدمت قدمه بدرَجة. مُرخياً قبضته عن إطار الباب، سحب نفسه إلى السلّم.

أطبقت يد على قدمه اليسرى قبل أن يتمكن من سحبها إلى الأعلى، فركل في اتجاه الأسفل، شاعراً باصطدام عقِب قدمه بوجه أحدهم. وسرعان ما أفلتته القبضة المُحكَمة بشكل مفاجئ، مخلّفةً وراءها ألماً حيث كانت الأصابع تمسك بقدمه بقوة.

وفي غضون لحظة، بات على أعلى القطار.

لقد تعيّن عليه أن يجثم ويُبقي يداً واحدة مُمسكة بالدرابزين المنخفض القائم على امتداد السطح من الأمام إلى الوراء.

رأى أمامه القطار ينعطف. وكان الدخان يندفع من المِدخنة إلى الوراء؛ مما جعل عينَيه تدمعان، وشعر بصعوبة في التنفس.

تردد للحظات؛ فبدلاً من التعرّض للأسر، اتخذ الخيار الآخر الوحيد المتوفر _ الفرار _ ولكن فراره مقيد. فهو لا يزال على القطار _ حرفياً، على سطح القطار _ ولا خطة لديه. فحيثما ذهب سيعثر عليه إيف والرجال الآخرون. سيعثرون عليه ويقتلونه ربما؛ إذ لا يمكنه الفرار والقفز عن سطح القطار إلى نهر ملائم أو ما شابه. عليه إنقاذ فرجينيا وماتي.

لقد شعر باليأس يخيم فوقه كموجة سوداء، ولكنه دفعها إلى الوراء بجهد كبير بفعل إرادته. هناك وقت للشعور باليأس لاحقاً، أما الآن فعليه التفكير.

فلو تمكن من الزحف على امتداد سطوح المقطورات إلى مقدّمة القطار، فربما سيستطيع تحذير السائق. وربما سيتمكن من إيجاد طريقة لتوجيه رسالة إلى السلطات، أو إعادتهم إلى نيويورك، أو القيام بأمر ما؛ أي شيء!

زحف شارلوك على امتداد سطح المقطورة. وكانت الريح تدفعه إلى الوراء من وسط صدره كيدٍ عملاقة، ولكنه قاوم وهو يدفع نفسه إلى الأمام؛ عليه القيام بذلك. كانت عيناه تفيضان بالدموع بسبب لسعات البخار، فيما تنحبس أنفاسه في صدره، ولكنه لم يستسلم؛ فماتي وفرجينيا يعتمدان عليه.

اهتز القطار فوق بعض قضبان سكة الحديد، وكاد شارلوك يقع، وترنّح إلى الأمام والوراء للحظة واحدة أو لحظتَين، محاولاً الانخفاض قدر الإمكان قبل أن يجد نفسه في وضع آمن.

حسناً، أكثر أمناً، قال لنفسه، مُلقياً نظرة سريعة حوله على المنظر الطبيعي الذي يمرّ أمامه بسرعة على صورة لَطخات خضراء وبنّية.

كان القطار يقترب من نهر. وقد تمكن من رؤيته وهو ينعطف في

اتجاه جسر يبدو كما لو أنه مصنوع من عيدان ثِقاب، فشعر بقلبه يخفق بقوة.

بعد ذلك، كاد قلبه ينفجر تماماً لدى ظهور رأس إيف وكتفَيه عند نقطة اتصال المقطورة التي يزحف شارلوك على امتدادها وتلك الموجودة أمامه. لا بد أن يكون الرجل قد صعد السلّم التالي.

سحب إيف نفسه إلى السطح ووقف بشكل منتصب. وكان بخار المحرك المندفع إلى الوراء بسبب الريح يتماوج حوله كعباءة بيضاء.

صاح إيف: «أنت لا تفكر بشكل صحيح أيها الفتى. إلى أين تذهب؟ أنت أكثر أمناً في الأسفل مع الآخرَين».

فهز شارلوك رأسه صائحاً: «أنت بحاجة إلى واحد منا فقط لتهدد به أميوس غروي. ولا أعتقد أنك تريد تحمّل مسؤولية ثلاث رهائن».

«أميوس غروي». قال إيف، ثم سأله: «أهو الرجل ضخم البنية، ذلك الذي يرتدي بِذلة بيضاء؟ لم أعرف اسمه قط حتى الآن، ولكنه مثابر. وأنت كذلك».

«لا فكرة لديك البتة». صاح شارلوك، ولكنه كان خائفاً. ألقى نظرة سريعة من فوق كتفه؛ لا أثر لبيرل أو للرجل الآخر، ولكن فرص تمكُّنه من الفرار في ذلك الاتجاه ضئيلة؛ فربما كانا ينتظرانه في مكان التقاء المقطورتين، أحدهما يُمسك بفرجينيا والآخر بماتي.

وعندما استدار، رأى إيف شاهراً مسدساً.

«لديك الشجاعة، سأعطيك ذلك». قال إيف وهو يرفع المسدس ويصوبه إليه.

لقد تساءل جزء من شارلوك عن معنى الكلمة، في حين لاحظ الجزء الآخر أن القطارَ ينتقل من اليابسة إلى الجسر الذي رآه قبل لحظات قليلة. وغاصت الأرض تحته فجأةً في هوّة صخرية مع شريط أزرق متلألئ في الأسفل. كان جزء ثالث منه يحاول قول شيء ما له.

أطلق إيف النار فجفل شارلوك. ولكن الريح والاهتزاز جعلا إيف يُخطئ الهدف، وأدرك شارلوك أن الرصاصة قد مرت بجانبه من دون أن تُلحق به أي أذى.

اقترب إيف منه محاولاً الحفاظ على توازنه، وحاول شارلوك التشبّث بالفكرة المُبهَمة؛ هناك شيء ما قام به مؤخَّراً، شيء ما كان قد اشتراه.

المِقلاع! وبشكل يائس، تلمّست يداه طريقيهما إلى داخل جَيبَيه بَحثاً عن جِراب يتصل به سَيران جلديّان كان قد اشتراه من متجر الأدوات

الصغيرة المختلفة. في الجَيب الأيمن للسروال... لم يجد شيئاً. وفي الجَيب الأيسر للسروال... لا شيء. كان إيف يستعد لإطلاق النار مجدداً. الجَيب الأيسر الداخلي للسترة... لا شيء، ولكن أصابعه لمست مجموعة الكُرات المعدنية الباردة التي اشتراها أيضاً. صوّب إيف مسدسه ثانيةً، سانداً إيّاه بيده الأخرى هذه المرة. الجَيب الأيمن الخارجي للسترة... أجل، وسحب شارلوك المِقلاع، ودسّ يده اليمنى بسرعة داخل العُروة، وأقفل العُروة الأخرى في راحة يده، تاركاً الجِراب الجِلدي مدلّى.

أطلق إيف النار مجدداً، فصفرت الرصاصة قرب أُذُن شارلوك الذي بحث داخل جَيبه بيده اليسرى، وأخرج كُرة معدنية وضعها بسرعة داخل الجِراب. وقبل أن يتمكن إيف من إظهار أي رد فعل، جعل المِقلاع يدور فوق رأسه مرتّين، ثم أفلت السَّير الذي يُمسك به، فطارت الكُرة المعدنية في اتجاه إيف مُحدثةً خطاً وامضاً في السماء، ثم أصابت أُذُنه اليسرى وجرحتها جرحاً بليغاً. فصرخ إيف مندهشاً ومصدوماً مع سيلان الدماء على كتفه، فيما اتسعت عيناه وبدا غير مصدِّق.

التقط شارلوك السَّير الطليق، ووضع كُرة معدنية أخرى داخل الجِراب.

كان القطار قد بلغ منتصف الجسر، وظنّ شارلوك أن باستطاعته التقاط حركة جانبية مع اهتزاز الجسر بفعل ثِقله.

اندفع إيف إلى الأمام مجرجراً قدمَيه في اتجاه شارلوك، ومادّاً يدَيه للإمساك به. يبدو أنه نسي واقع امتلاكه مسدساً.

ومجدداً، أدار شارلوك المِقلاع فوق رأسه مرتَين، ثم أفلت الجِراب، فانطلقت الكُرة المعدنية عبر الفجوة الضيّقة بينهما وأصابت جبين إيف في الوسط، ولزمت مكانها في الغَور الذي أحدثته. وقع إيف إلى الوراء، وعيناه مفتوحتان على وسعهما لدرجة تمكّن شارلوك من رؤية البياض حول القزحيتين، واصطدم ظهره بسطح القطار فتدحرج جانبياً، ثم سقط بعد ذلك من فوق الحافّة. سمع شارلوك صيحة يائسة أثناء سقوطه، ثم صفير الريح وصوت صفّارة القطار الحزينة.

ركع شارلوك مواصلاً الإمساك بالدرابزين المنخفض، وسمح لنفَسه بالاستقرار ولقلبه بالهدوء قبل أن يقف مجدداً ويتوجه إلى الوراء، إلى مكان الاتصال بين المقطورتين حيث صعد.

سقط رجل وعليه التخلّص من الآخرين؛ ولكنه يملك مسدساً الآن.

أحدثت سكة الحديد طقطقة تحت عجَلات القطار مع بلوغه الجانب الآخر للوادي الضيّق العميق، وأُطلقت الصفّارة مجدداً. ألقى شارلوك نظرة

سريعة إلى الأمام في اتجاه المحرك، ووجد أن الخط في الأمام يتفرع إلى اثنَين؛ خط يتابع إلى الأمام بشكل مستقيم، وآخر ينعطف على امتداد حافة الوادي.

كان القطار يسلك الخط المنحني؛ مُبطئاً سيره أثناء مروره عبر فجوة في سياج، وتوجّهه نحو محطةٍ تَمكّن شارلوك من رؤيتها في الأمام.

لا، ليست محطة.

إنه منزل، منزل أبيض كبير، ووراءه ما بدا مجموعة من السياجات؛ مناطق مسوَّرة بجدران وأقفاص، كما لو أنها معرض حيوانيّ خاص.

فنزل السلّم بأقصى سرعة ممكنة، وعاد إلى داخل المقطورة. كان الحارس يتنقل على امتداد الممر الأوسط، مندفعاً بجانب الركّاب المضطربين، وقائلاً بصوت عالٍ: «توقُّف غير مُدرَج في الجدول. رجاءً، لا تترجّلوا. إنه توقُّف غير مُدرَج في الجدول».

وتوقف القطار وسط سحابة طويلة من البخار على امتداد شرفة طويلة متصلة بالناحية الخلفية للمنزل.

كانت مجموعة من ثمانية رجال أو تسعة تحتشد على الشرفة.

لقد تلاشى كل أمل لدى شارلوك بأن يكونوا رجال شرطة أو عناصر من الجيش عندما ترجّل بيرل والرجل الآخر من القطار، مُمسكَين بذراع فرجينيا وماتي بإحكام، وانضموا إليهم.

الفصل الثالث عشر

عمّ الاضطراب القطار، وشرع كل راكب_ كما يبدو_ بالصياح في وجه الحارس، محاولاً معرفة سبب تغيير القطار وجهته، وسبب توقفهم، ومكان وجودهم. لم يكن الحارس واثقاً مما يجري كما يبدو، وكان يُطَمئن الناس؛ رغم وجود تعبير على وجهه يوحي بأنه غير قادر على فهم ما يجري.

«هذا توقُّف غير مُدرَج في الجدول!». واصل الصياح. «رجاءً، لا تترجلوا هنا».

على منصة الركاب، كان الرجلان لا يزالان واقفَين مع فرجينيا وماتي بانتظار أمر ما. بانتظاره، كما اعتقد. وتمكن من رؤية جون ويلكس بوث واقفاً جانباً بشكل منتصب، وهو يتأرجح ببطء من جانب إلى آخر، ولم تكن عيناه مركزتين على أي شيء بصفة خاصة؛ ربما حُقِن بالمهدئات.

وحرّك أحد الرجال_ لم يسبق له أن رآه_ يده من وراء ظهره للحظة، وهو يحمل مسدساً.

لم يجد شارلوك نفسه أمام خيارات عدة، ولذلك نزل من القطار على الدرَج القصير المؤدي إلى شرفة المنزل.

في اتجاه مؤخّر القطار، رأى الرجال الذين كانوا ينتظرون على الشرفة وهم يُخرجون صناديق من المقطورة الأخيرة. لقد بدت كالصناديق التي سبق له أن رآها في حديقة المنزل في غودالمينغ؛ تلك التي اعتقد أنه رأى شيئاً ما يتحرك داخلها. ولدى إخراج الصناديق، حملها الرجال في اتجاه عربة خَيل كانت تقف بالانتظار، وبدوا حريصين على إبقاء أصابعهم قريبة جداً من الفجوات. ولعن اثنان منهم عندما تأرجح صندوقهما فجأةً وكاد يقع أرضاً، عِلماً أن شارلوك لم يتمكن من رؤية سبب هذا الاختلال في التوازن؛ ربما تحرك شيء ما في الداخل.

بالرغم من عدم رؤية أية إشارة، شرع القطار بالابتعاد عن المنزل مصدراً صليلاً مُصِمّاً للآذان بسبب اتصال المقطورات ببعضها بطريقة مُحكَمة. لقد تحرك ببطء في بادئ الأمر، ولكنه ازداد سرعةً أثناء ابتعاده.

«أين إيف؟». سأل بيرل شارلوك، رافعاً صوته ليطغى على صوت القطار. وكان يمسك ذراع فرجينيا بيده اليمنى، ويحمل بيده اليسرى مِقبضاً متصلاً بعلبة بحجم كرة قدم.

«لقد ترجّل من القطار». أجاب شارلوك، وتمكن من الشعور بقلبه يخفق بقوة داخل صدره، ولكنه حاول التزام الهدوء والظهور بمظهر المتحكم

بزمام الأمور.

كانت فرجينيا وماتي يحدّقان به بقلق، فنظر إلى كلٍّ منهما بالتتابع؛ ساعياً إلى طمأنتهما بأن كل شيء يسير بشكل جيد، ولكنه لم يكن واثقاً من ذلك على غرارهما.

فصاح بيرل: «أتعني أنه وقع عن سطح القطار؟! لقد قتلتَه!».

«يمكنني شمّ رائحة دخان». قال بوث من ورائهم بعينَين مغمضتَين. وكان صوته يبدو حالماً، وكما لو أنه يصدر من مكان بعيد.

«هدوء!». زمجر الرجل الثالث، ذاك الذي يُمسك ماتي وتابع: «وإلا صدمتُ الجانب الآخر من وجهك بِميسم!». ربما تعرّض لجنون بوث منذ الانطلاق من نيويورك ـ ربما من ساوثمبتون ـ ويكاد يفقد عقله من جراء ذلك. تمعّن شارلوك فيه للحظات، إذ لم تتسنَّ له الفرصة من قَبل لرؤية هذا الرجل على متن القطار؛ لديه البنية الجسدية لملاكم، ويرتدي سروال جينز، وصدرة من الجينز فوق قميص بدون ياقة، وقد عقد حول عُنُقه مِنديلاً أحمرَ برّاقاً.

فحذّره بيرل: «لا تضايقه يا روبينيك. لا يزال ديوك بحاجة إليه».

فنقل الرجل المدعوّ روبينيك نظرته المحدّقة في اتجاه شارلوك، وزمجر: «ماذا عنه؟ لا حاجة لديوك إليه بأي شيء، وقد اعترف بأنه قتل إيف». وأخرج يده اليمنى من وراء ظهره، تلك غير الممسكة بماتي، وصوّب المسدس نحو شارلوك.

سأل بيرل: «وماذا عن غيلفيلان؟ هل مات أيضاً؟ لقد أرسل لنا برقية».

أجاب شارلوك: «إنه في عهدة الشرطة». ولم يكن واثقاً مما إذا كان الأمر صحيحاً أم لا، ولكن يُفترض به الآن أن يكون في عُهدة الشرطة.

فأغمض بيرل عينَيه للحظات، ثم قال بهدوء: «يسير الأمر من سيّئ إلى أسوأ. لن يُسَرّ ديوك أبداً، وبلغني ما يحدث عندما لا يكون ديوك مسروراً».

«لا نملك خيارات كثيرة». قال روبينيك بطريقة عملية. «فقد رحل القطار، ونحن هنا. إذاً، لِنتخلّصْ من الصغار ولْنذهب لرؤية ديوك».

«لن نتخلّص من الصغار». أجاب بيرل بهدوء، ولكن بلهجة من لديه نفوذ. فبوفاة إيف، من الواضح أنه بات المسؤول الآن. «سيكون ديوك راغباً في استجوابهم، والتحقق مما يعرفونه. بعد ذلك، ربما سيُطعمهم لحيواناته».

«ما زلت راغباً في قتلهم بنفسي». تمتم روبينيك كصغير أفسده الدلال

وحُرم من قطعة من البسكويت.

«على الأقل، لدينا بوث وهذا الشيء». قال بيرل رافعاً العلبة إلى مستوى نظره ومحدّقاً إلى ما يوجد فيها بضراوة. «لِنأملْ أن يكون هذا كافياً». وتنهّد. «حسناً، لِنصطحبْه معنا».

سار بيرل في المقدِّمة نحو الشرفة، حيث لاحظ شارلوك وجود طاولة مستديرة وُضعت أمام نافذتَين فرنسيّتَين، وعليها شرشف مائدة أبيض، وقنينة تحتوي على عصير برتقال كما يبدو، وطبق لِفافات خبز، وسبع كؤوس في الوسط. وحول الطاولة، كانت هناك سبعة كراسٍ من الحديد، مطليّة بلون أبيض. ودُسّت مِظلة بيضاء في ثُقب في الوسط، موفرةً ظلّاً من الشمس الحارقة.

«مِظلة». وعلقت الكلمة في ذِهن شارلوك أثناء عبوره الشرفة في اتجاه الطاولة. لقد ذكّرته بأمر ما، ولكنه لم يتمكن من تحديده. تلك هي مشكلة الذاكرة_ فكر في سره_ إذ إن كل ما يمكنها القيام به هو استيعاب قدر كبير من المعلومات. ليت بالإمكان حذف كل الذكريات التي لا يحتاج إليها الإنسان واستبدالها بذكريات هامة. ربما ينبغي له تدوين كل شيء يعتبره هامّاً على دفتر مدوَّنات، أو على مجموعةِ دفاتر مدوَّنات، تتّبع الترتيب الأبجدي ليتمكن من العثور على المعلومات بسرعة عندما يكون بحاجة إليها.

كان يحاول فقط البقاء على مسافة مما يجري؛ وذلك بالتفكير في أمر آخر، ولكن محاولته قوطِعت عندما دفعه روبينيك بماسورة مسدسه في اتجاه أحد الكراسي مزمجراً: «اجلس». فأطاعه شارلوك فوراً. فيما أُجلس ماتي وفرجينيا إلى جانبيه، ومن ثم جلس بيرل وجون ويلكس بوث إلى يسار فرجينيا، في حين جلس روبينيك إلى يمين ماتي.

بقي كرسيّ واحد شاغراً كما لاحظ شارلوك. إنه مخصَّص لديوك المُبهَم؛ كما هو مُفترَض.

«سيتتبّع والدي أثرنا إذا لم تُطلقوا سراحنا». قالت فرجينيا.

«والدك هو الرجل ضخم البنية الذي يرتدي بِذلة بيضاء، أليس كذلك؟». ونقل بيرل نظره من فرجينيا إلى ماتي، ومن ثم إلى شارلوك وتابع: «ليس والدكم جميعاً، أليس كذلك؟ لم يسبق لي أن رأيتكم معاً». ونظر إلى ماتي بمزيد من التمعّن وقال: «لقد اختطفناك لأننا اعتقدنا أن هذا الأمر سيمنعه من تعقّبنا. يُظهر هذا ضعف اطّلاعنا. كان يُفترض بنا اختطاف الفتاة».

قالت فرجينيا: «كان سيتعقّبكم رغم ذلك. فهذا عمله، وهو لا يتقيّد بالقانون بحذافيره».

كان بيرل على وشك قول شيء ما، ولكن البابين الفرنسيين المؤديين من الشرفة إلى داخل المنزل فُتحا فجأةً، وتولّى خادمان يرتديان سترتين سوداوين نظيفتين مستدقّتين من الخلف مهمةَ إبقائهما مفتوحين أثناء خروج شكل بشري إلى أشعة الشمس.

كان الرجل طويل القامة_ يزيد طوله عن ست أقدام كما قدّر شارلوك، ويناهز سبع أقدام ربما_ وشديد النحول. وكل ما يرتديه كان أبيض_ البِذلة المُخاطة، والصدرة، والقميص، والجزمة، والقبّعة ذات الحرف العريض، وكذلك القفّازين_ باستثناء عصابة تحيط بأعلى قبّعته، وربطة عُنُق أشبه برباط حذاء متدلية من ياقة قميصه ومختفية وراء صدرته؛ إذ كانتا مصنوعتين من جِلد أَسود. وللحظة من الزمن، اعتبر شارلوك أن وجهه شاحب بشكل لا يصدَّق، أو مكسوّ بتبرّج أبيض، ولكنه أدرك بعد ذلك أن الرجل يضع قناعاً مميَّزاً من البورسلان لدرجة أن وجهه بدا أشبه بوجه حساس وجميل الملامح. وكان الشعر المنبثق من تحت القبّعة والمتدلّي حول القناع شديد الشقار لدرجة البياض.

ولكن العينَين اللتين كانتا تحدّقان عبر ثُقبَي القناع لم تكونا بيضاوَين. فالقُزحيّتان قاتمتان جداً لدرجة الاسوداد، ولكن المنطقة حول القُزحيّتَين كانت محتقنة. وقد بدت العينان متوهجتين بلون أحمر إزاء بياض القناع.

وكان مِعصما الرجل المنبثقان من كُمَّي قميصه نحيلين بشكل يستحيل تصديقه تقريباً. وتساءل شارلوك عما إذا كان بالإمكان كسر عظامه بمصافحته فحسب؛ ولكن الرجل لم يمدّ يده للمصافحة. فأثناء تحرّكه، كانت ذراعاه تُسحبان بعيداً عن جسده، فيما يمتد رَسَنان جِلديان أسودان من مِعصمَيه إلى داخل ظلمة المنزل، وهناك شيء ما يشدّ بهذَين الرّسَنَين بإحكام.

توقف خارج البابين مباشَرةً، واعتقد شارلوك أنه رأى شيئاً ما يتحرك وراءه، عند طرفَي الرَّسَنَين، ولكنه لم يكن واثقاً من ماهيّته. إنه نوع من الكلاب كما يفترض، ولكنه كبير.

«الطبيب بيرل». قال الرجل من خلف القناع، وبدا صوته ناعماً ومرتفعاً وهامساً تقريباً. «النقيب روبينيك. السيد بوث. وضيوفنا المميَّزون، بالطبع. آسف لأنني لا أعرف أسماءكم. رجاءً، ولمصلحة الحديث المهذّب، هلّا تتلطّفون بالتعريف بأنفسكم».

«أنا فرجينيا غروي». قالت فرجينيا.

وعبس ماتي قائلاً: «ماثيو أرنت».

فقال الرجل: «آه، صديقٌ من وراء البحار». وألقى نظرة محدّقة حمراء على شارلوك وسأل: «وأنت يا سيدي، من تكون؟».

«شارلوك سكوت هولمز». أجاب شارلوك.

«زائر بريطاني آخر. كم الأمر... مسلٍّ».

وانتبه شارلوك إلى اليدَين الممسكتَين بالرَّسَنَين. هناك خَطْب ما بهما، واحتاج إلى لحظات ليكتشف الأمر. ثمّة إصبعان مفقودتان من كلتا اليدَين؛ الإصبع الصغيرة في اليد اليسرى، والإصبع الرابعة في اليد اليمنى، ولكن القفّازين صُنعا في الواقع من دون تَينك الإصبعَين، لذلك لا وجود لإصبع فارغة وطليقة في القفاز أو لأي شيء مُشبَك.

كان هناك أمر آخر غريب في شأن يدَيه أيضاً. فهما نحيلتان على غرار بقيّة جسمه، ولكن هناك كُتَلاً تظهر تحت قماش القفّازين. كيف تبدو هاتان اليدان تحت القفّازين؟

«نحن في موقف صعب». قال شارلوك، مُعيداً تركيز انتباهه إلى قناع الرجل المصنوع من البورسلان، ومحاولاً إبقاء صوته هادئاً. «هل لي أن أسأل عن اسمك؟».

«أنا ديوك بالتاسار». أجاب الرجل بصوت جافّ كأوراق الخريف. «ديوك كاسم أول، وليس لقب دوق التشريفي مثل الكونت أو أمير. الآن رجاءً، اسكبوا لأنفسكم عصير البرتقال وتناولوا لفافات الخبز. أؤكد لكم أن العصير طازج تماماً، واللّفافات لا تزال ساخنة بعد خروجها مباشرة من الفرن».

مدّت فرجينيا يدها في اتجاه القنينة، فقال لها ديوك: «دَعيني أسكب لك».

تقدّم ديوك بالتاسار أكثر فأكثر في اتجاه أشعة الشمس. وكان الرَّسَنان بين يدَيه يشدّان بإحكام، وبعد ذلك سُحب حيوانان بتردد إلى الشرفة، فأراقت فرجينيا عصير البرتقال على شرشف المائدة الأبيض.

للحظة من الزمن، لم يعرف شارلوك ماهيّتهما. فهما يبدوان كهرَّين بنّيّين أملسَين، ولكن رأسَيهما عند مستوى خصر ديوك بالتاسار. عيونهما سوداء، وذنباهما ينتفضان باضطراب مع تنقّل نظراتهما المحدّقة من شخص إلى آخر.

«بوما؟». ولهثت فرجينيا.

«بالفعل». قال بالتاسار وقد بدا مسروراً. «لَقلتُ لكم: لا تدعوهما يخيفانكم، ولكنها ستكون نصيحة سيئة. دَعوهما يُخيفانكم».

وتمكّن شارلوك من سماع الرعشة في صوت فرجينيا وهي تقول: «لم أكن أعلم أن بالإمكان تدجين البوما».

«تدجين؟!». قال بالتاسار. «لا، لا يمكن تدجينها. ولكنها تستجيب للخوف على غرار كل المخلوقات، ومن ضمنها البشر. وهما يخشيانني». وقال أمراً ما بلغة أجنبية، فجلس الفهدان الأميركيان على أرضية الشرفة، واضعَين رأسَيهما على قوائمهما.

لقد رأى شارلوك الأنياب الحادة في ذَينك الخطمَين غير المُطبقَين تماماً. بإمكان تلك الأنياب اقتلاع يد إنسان من ذراعه، وبإمكان القوائم اقتلاع الذراع نفسها من التجويف. «كيف تجعل البوما يخشاك؟». سأل شارلوك غير واثق من رغبته في سماع الإجابة.

«كما تجعل المرء يخشاك». أجاب بالتاسار. وسحب أحد الخدم المرتدين ملابس سوداء الكرسيّ المتبقي، فجلس ديوك بتأنّق، واضعاً ساقَيه النحيلتَين الشبيهتين بسيقان جُندب بشكل متصالب. «بفضل الألم، والأمثلة عما سيحدث لهما إذا لم يُطيعاك. لديهما ذاكرة. وهما يتذكران الأمثلة، ويتصرفان بناءً على ذلك. أو بإمكانك أن تتخلص منهما وتبدأ مجدداً مع حيوان آخر، وتكون عملية التخلّص_ إذا نُفِّذت بشكل ملائم ودامت لمدة طويلة_ بحد ذاتها مثالاً لما سيحدث للحيوان الجديد إذا لم يُطِعك؛ بإمكانك ترك الجيفة ملقاة في أرجاء المكان لبعض الوقت».

وساد السكون حول الطاولة للحظات أثناء مراقبة الجميع الفهدَين الأميركيَّين.

«أعجبني قطارك». قال ماتي أخيراً.

لم يتحرك قناع البورسلان، ولكن شارلوك شعر بأن الرجل يبتسم تحته. «أنت شديد اللطف. إنه مفيد إذا أردتُ حضور لقاءات في نيويورك أو في مكان آخر. فأنا أكره التوجه إلى أقرب محطة قطارات على متن عربة خَيل. فالطرقات وَعِرة، وهناك الكثير من الغبار. من الأفضل إلى حد بعيد أن يأتي القطار إليّ».

«كيف تدبرتَ ذلك؟». سأل شارلوك.

شرح بالتاسار: «أؤمّن لشركة القطار قَدْراً كبيراً من الأعمال. فأنا مقاول، ولديّ عدد من المعارض والسيركات المتنقلة التي تجوب أنحاء هذا البلد بحيوانات غريبة، وتسافر الحيوانات المشاركة في تلك المعارض

والسيركات على متن القطارات. لذا، عندما أطلب منهم تأمين خطّ فرعيّ لي وإشارات تسمح لي بتحويل مسار أي قطار، فهم يوافقون». وصمت قليلاً ثم تابع: «أخيراً. بعد أن وفّرتُ لهم بعض الأمثلة عما سيحدث لهم إذا لم يوافقوني الرأي».

حاول شارلوك تخيُّل نوع الأمثلة التي يتحدّث عنها بالتاسار، ولكنه تراجع عن القيام بذلك؛ فالتصوّرات شديدة الوضوح.

«إذاً، لقد حوّلتَ مسار هذا القطار لأن رجالك على متنه، أليس كذلك؟». سألت فرجينيا.

«بالفعل. لقد أرسلوا لي برقية لإخباري بأنهم على متنه مع عدد كبير من الشِّحنات النفيسة». وألقى نظرة سريعة على جون ويلكس بوث المحدّق بكوب عصير برتقال كما لو أنه يحتوي على أسرار الكون. «والسيد بوث إحداها. فقد كنت أنتظر منذ بعض الوقت عودته إلى هذا البلد الذي كان عظيماً ذات مرة. لديّ خطط لأجله. لقد تمّ إنزال شِحنة أخرى في وقت سابق، ويتم الآن تعريفها بمحيطها الجديد». ونقل نظره إلى العلبة التي يضعها بيرل في حضنه. «وأعتقد أن هذه العلبة تحتوي على الشِّحنة الأخيرة. هل أنا مُحِق أيها الطبيب بيرل؟».

فأومأ بيرل برأسه، ولعق شفتَيه الجافتَين مجيباً: «أجل يا ديوك. هل ...»

«ليس بعد أيها الطبيب. انتظرت لمدة طويلة وصول هذه الرّزمة الاستثنائية، وأريد الاستمتاع بأهمية اللحظة». وصمت قليلاً، ثم جال بنظره على الموجودين إلى الطاولة. «ولكنني ألاحظ غياب السيدَين إيف وغيلفيلان المحترمَين». قال باعتدال. «أين هما؟».

كان شارلوك يعرف أنه أمام خيارَين: يمكنه السماح لبيرل بإخبار بالتاسار بوجود غيلفيلان في عهدة الشرطة وبوفاة إيف، أو الاعتراف بذلك أولاً وأخذ المبادرة. لذا، قرر أخذ المبادرة وقال: «السيد غيلفيلان في السجن في إنكلترا. وقد قتلتُ السيد إيف للتوّ حين قذفته عن سطح القطار». وحدّق بثُقبَي العينَين في قناع ديوك بالتاسار. «أوه، وتخلصتُ أيضاً من مضيف على متن أس أس سكوتيا حاول قتلي أيضاً. لقد دفع له السيد إيف».

وساد السكون الطاولة، ولم يُقاطَع إلا بأنفاس الفهدَين الأميركيَّين الهادرة. كانا يراقبان شارلوك عَمداً؛ كما لو أنهما عرفا بطريقة ما بحدوث معركةِ سيطرة بينه وبين ديوك بالتاسار.

«يا لإقدامك الكبير!». قال بالتاسار أخيراً. «لماذا قتلتهما بالتحديد؟».

«أردت ربما ضرب مثل لخدمك الآخرين». قال شارلوك، وتابع: «كي يخشوني».

وضحك بالتاسار بصوت واضح وعالي الطبقة، جعل الفهدَين الأميركيَّين ينكمشان إلى الوراء. «يا لإقدامك الكبير! أعتقد أنك أعجبتني يا سيد شارلوك سكوت هولمز. ولكن هذا الأمر غير كافٍ لإبقائك على قَيد الحياة، غير أنك أعجبتني حقاً».

«ألن تفعل أي شيء له؟». سأل الرجل ضخم البنية، روبينيك.

«ألأجل ذلك؟». سأل بالتاسار. «لا. فإذا كانوا أغبياء بما يكفي ليسمحوا لصغير بالتغلب عليهم، إذاً فالحمد لله على الخلاص منهم. لقد وفّروا عليّ عناء التعاطي معهم بنفسي. لن يرى السيد شارلوك شروق الشمس هنا، ولكن ليس لأنه خفّض عدد خدمي. بل سيموت مع صديقَيه لأن لا حاجة لي إليهم هنا».

وساد الصمت الشرفة.

قال بالتاسار بهدوء بعد لحظات قليلة: «إذاً، بعد تعرّفنا جميعنا إلى بعضنا بعضاً، وبعد أن حظيتم بالراحة والمرطّبات، تلطّفوا بإطلاعي على مدى ما تعرفه السلطات عن مخططاتي».

«لا نعرف شيئاً». أجاب شارلوك.

قال بالتاسار: «أنت مُخطئ في نقطتَين. النقطة الأولى، من الواضح أنك تعرف شيئاً ما لأنك تمكنت من التدخل في برامج أعمالي وقتل اثنَين من موظَّفيّ. إذ لا يشارك الصغار عادة بأمر بهذا الحجم، وإذا فعلوا فهم يتراجعون بسرعة. وكما فهمتُ، أنت أول من شوهد في المنزل في إنكلترا حيث كان يتم الاحتفاظ بالسيد بوث... بأمان. هناك، على الأقل، رآك السيد إيف والطبيب بيرل للمرة الأولى. والسؤال المطروح هو: لماذا كنتَ في المنزل في المقام الأول؟ هل كنت هناك صدفة، أم كنت تبحث عن السيد بوث؟».

ففتح شارلوك فمه لقول شيء ما، ولكن بالتاسار أومأ له لالتزام الهدوء، وتابع بنبرة صوت مماثلة في المستوى واللطف: «أما النقطة الثانية، فهي أنه لا أهمية لما تعرفه. فالمسألة لا تهمّني. كلّكم لديّ هنا، ولن يهرب أيٌّ منكم. ففي الساعات القليلة التالية، ستموتون جميعاً، وبموتكم سيختفي ما تعرفونه. أعدكم بذلك. السؤال الوحيد الهام المطروح هو ما يعرفه والد الفتاة، أميوس غروي، وما تعرفه السلطات في إنكلترا وهنا في أميركا؟». وصمت، وأدار قناع البورسلان في اتجاه شارلوك، ثم سأله: «أخبرني،

وأخبرني الآن قبل أن أفقد صبري».

بالرغم من أشعة الشمس الحارة المشرقة في سماء زرقاء خالية من السُّحُب، شعر شارلوك بنسيم بارد يهبّ على الشرفة.

قال شارلوك بعناية: «إذا كنت ستقتلنا بأي حال، فلماذا يُفترض بنا إذاً إخبارك بأي شيء؟ فما سنطلعك عليه لن يُنقذ حياة أي منا. وقد سبق لك أن قلتَ ذلك».

«هذه وجهة نظر هامة ومطروحة بشكل جيد». اعترف بالتاسار. «هذا البلد قائم على أُسس المقايَضة والتفاوض. جيد جداً، إذاً دَعني أقدّم لك عرضاً».

وأدار قناع البورسلان في اتجاه فرجينيا وقال: «رجاءً، مدّي يدك».

فألقت فرجينيا نظرة سريعة على شارلوك، والذُّعر في عينَيها. لم يكن يعرف ما الذي يُفترض بها القيام به: أتطيع بالتاسار أو تتجاهله؟ لم يكن شارلوك يعرف نتيجة أيٍّ من الخطوتَين. فبالرغم من مظهر بالتاسار الخارجي المستساغ، إلاّ أنه بدا كما لو أنه يسير على حدّ السكين بين التمدّن والجنون.

قال بالتاسار: «كم الأمر مُمِلّ، يا سيد روبينيك؟».

انحنى روبينيك إلى الأمام على كرسيّه وأمسك مِعصم فرجينيا بإحكام، مادّاً ذراعها بشكل مستقيم، وموجِّهاً يدها نحو بالتاسار.

«ممتاز». قال بالتاسار، ثم تكلّم بضع كلمات بصوت أجش، وبلغة لم يتمكن شارلوك من تحديدها.

فجأة، وقف أحد الفهدَين الأميركيَّين وسار بتمهُّل نحو فرجينيا، فبدت حركة عضلاته واضحة تحت جلده. فتسمّرت فرجينيا في مكانها وقد انقطع نفَسها.

فتح البوما فمه ومدّ عُنُقه حتى باتت ذراع فرجينيا داخل فمه، فأفلت روبينيك ذراعها وعاد إلى كرسيّه. أطبق السنّور الكبير فكيه حتى باتت أنيابه تضغط على لحم مِعصم فرجينيا.

«أمر من اثنَين سيحدث الآن». قال بالتاسار بطريقة حوارية. «إما أن تُخبرني بما أريد معرفته، أو سيقوم البوما باقتلاع يد الفتاة». وبقي قناع البورسلان خالياً من أي انفعال، ولكن شارلوك تمكن من الشعور بابتسامة وراء صفحته الناعمة. « بالمناسبة، يدعى شِرمان. والآخر يدعى غرانت. إنها دُعابتي الصغيرة».

وتسمّرت عينا فرجينيا على شارلوك.

«سأخبرك». قال ماتي بسرعة.

«لا». قال بالتاسار بلطف. «أريد من الأستاذ شارلوك أن يخبرني. فهو قائد هذه المجموعة الصغيرة كما أرى. وهو من يجب عليه أن يتعلّم خشيتي. هو من يحتاج إلى تدريب». وصمت للحظات، ثم تابع: «في الواقع، هناك طرائق متنوّعة للموت: رصاصة في الرأس أمر سريع وغير مؤلم، كما أعتقد. والنَّزف حتى الموت أمر بطيء ومؤلم. لا خيار لك في الموت؛ فقد اتخذتُ ذلك القرار من دون العودة إليك. ولكنك تملك الخيار في طريقة موتك: بسرعة أو ببطء، بألم شديد أو بسلام».

«جيد جداً». قال شارلوك، وقلبه يخفق بقوة في صدره. «أَبعد البوما وسأُجيب عن سؤالك».

«لا». قال بالتاسار. «أَجِب عن السؤال وعندها سأُبعد البوما».

كان التوتّر مرئيّاً في الجوّ تقريباً، وعرف شارلوك أنه وبالتاسار يختبران قوة إرادة أحدهما الآخر. ولكن المشكلة تتمثل بامتلاك بالتاسار كل الأفضليات.

«تعرف السلطات بأمر جون ويلكس بوث. إنها تعرف أنه ليس مَيتاً، وأنه نُقل من اليابان إلى إنكلترا، وأنه في أميركا الآن. تعرف الحكومة البريطانية ذلك، ووكالة بينكرتون أيضاً. وأفترض أنهما ستطلعان الحكومة الأميركية على ذلك. ولكن السلطات لا تعرف ما الذي تعتزم القيام به معه».

قال بالتاسار: «جيد، المزيد».

«لا مزيد!». صاح شارلوك.

«هناك دائماً المزيد. مثلاً، هل تعرف السلطات بشأني؟».

«لا».

«إذاً، هل انتهى الأمر بك على متن ذلك القطار بالصُّدفة؟ لا أعتقد ذلك».

«كنا نتبعهم!». قال شارلوك وهو يومئ في اتجاه بيرل وروبينيك. «كنا نحاول استعادة ماتي».

«وهل كنتما برفقة أي شخص آخر على متن القطار؟». كان صوت بالتاسار هادئاً ولكنه قاسٍ.

«لا. كنا بمفردنا».

«يا لدهائك الملحوظ». وصمت بالتاسار، فتكوّن لدى شارلوك الانطباع بأنه يقلّب في ذهنه مسألة الطلب من شِرمان اقتلاع يد فرجينيا أم لا.

كانوا بمفردهم، ويعتمد مصيرهم على نزوات رجل مجنون.

لقد منحه التفكيرُ بهذا الأمر فكرةً. ربما سيتمكن من قلب السِّحر على الساحر.

أصدر بالتاسار أمراً مقتضَباً، فسحب البوما رأسه بتردد، ولم تَعُد أنيابه تضغط على لحم فرجينيا. لقد بدا جسمها بأكمله كما لو أنه يَذبل. حدّق بها للحظات، ومن ثم عاد إلى جانب بالتاسار.

«لديّ سؤال». قال شارلوك.

فحدّق به بالتاسار بعينَين حمراوَين وسوداوَين من وراء ثقبَين في القناع. «ألم تفهم القواعد؟ أنا أطرح الأسئلة وأنت تُجيب عنها، ويضمن لك ذلك موتاً سريعاً وخالياً من الألم. تلك كانت صفقتنا».

أشار شارلوك: «ولكننا لا نملك سوى وعدك. فأنا أعتقد أنك ستحصل على كل الإجابات التي يمكنك انتزاعها منا، ومن ثم ستعذّبنا بأي حال؛ فقط لأنك تستمتع بذلك. وعلى هذا الأساس، نحن لا نربح أي شيء من تعاوننا معك باستثناء تأخير عملية التعذيب لفترة قصيرة».

فكّر بالتاسار لبرهة من الزمن، ثم أقر: «هذا تحليل منطقي. لديكم وعدي فحسب، ولا تعرفون مدى إيفائي بوعودي. ما هو اقتراحك المقابل؟».

فقال شارلوك: «سنعتبر أنك ستفي بوعدك إذا أجبتَ عن أسئلتنا أيضاً».

«أمر مثير للاهتمام». وفكّر بالتاسار قليلاً ثم قال: «فأنا لن أخسر أي شيء، وسأربح المزيد من المعلومات. ومن جهة ثانية، لن تخسروا أي شيء أيضاً ما دمتُ من يختار طريقة موتكم، ولكنكم ستربحون المعلومات؛ ولهذا الأمر أهميّة بالنسبة إليك كما يبدو. لذلك أجل، أوافق. اطرح أسئلتك».

«لأي غرض تحتاج إلى جون ويلكس بوث؟». سأل شارلوك. «ولماذا واقع وجوده حيّاً هنا في أميركا هامّ بما يكفي ليموت الناس بهدف إبقاء الأمر سرّاً؟».

قال بالتاسار بهدوء: «أوه، يموت الناس لكل أنواع الأسباب، والقليل منها هامّ. ولكنك أعجبتني يا شارلوك سكوت هولمز، فأنت تملك الشجاعة، ولذلك سأُخبرك». وألقى نظرة سريعة على بيرل وروبينيك، ثم تابع: «بالرغم من كل شيء، هما لن يفهما. فهما يريدان مالهما فقط».

«هِيه...» استهلّ بيرل كلامه، ومن ثم سكت عندما حدّق به بالتاسار.

«أُدرك أنك بريطاني، ولكن لا بد أن تكون قد سمعت بالحرب بين الولايات». استهلّ بالتاسار كلامه، فأومأ شارلوك برأسه. «قال شقيقي إن الأمر

يتعلق بالرِّق». وألقى نظرة سريعة على فرجينيا وتابع: «وقال والدها إن الأمر أكثر تعقيداً من ذلك».

«والدها على حق. ففي النهاية، يتعلق الأمر بتقرير المصير. منذ ثماني سنوات، جرت انتخابات لدينا استخدم خلالها الحزب الجمهوري، برئاسة أبراهام لينكولن، وعداً ليكون أساساً لحملته؛ وهو منع انتشار الرِّق خارج الولايات التي تمارس الرِّق. فاز لينكولن بالانتخابات، وأدّى ذلك إلى إعلان سبع ولايات جنوبية انفصالها عن الاتحاد؛ حتى قبل أن يستلم منصبه. وتلك الولايات هي: كارولاينا الجنوبية، وميسيسيبي، وفلوريدا، وألاباما، وجورجيا، ولويزيانا، وتكساس. وشكّلتْ الولايات الأميركية المتحالفة بلداً جديداً برئاسة جيفرسن ديفيس. وفي غضون شهرَين، انضمّت فرجينيا، وأركانساس، وكارولاينا الشمالية، وتنيسي إليها».

«ما هو الانفصال؟». سأل ماتي.

شرح بالتاسار: «الانفصال هو عندما تنسحب ولاية من اتحاد الولايات وتعلن رغبتها في إنشاء كيان منفصل. الانفصال حق نعتقد أن إعلان الاستقلال يضمنه، ولكن إدارة جيمس بوكانان الراحلة وإدارة أبراهام لينكولن القادمة لم توافقا على ذلك. فقد اعتُبر الأمر تمرّداً وأُعلن أنه غير قانوني». وتنهّد. «في النهاية، لا أهمية لما إذا كنت تعتقد بقدرة شخص على إبقاء الرِّق أم لا. فما قاتلنا لأجله هو حقنا في إقامة دولتنا بشكل منفصل عن تلك التي كان لينكولن يترأسها، والقيام بالأمور على طريقتنا الخاصة. فلو لم يكن الرِّقُ السببَ لَكان السببُ أمراً آخر».

علّق شارلوك: «ولكنكم خسرتم، وانتصر يوليسيس سانت غرانت ووليام تشرمن على روبرت لي في المعركة. لقد استسلم».

«لم يكن لديه الحق بالاستسلام». قال بالتاسار بحدة. «لم تكن لديه السلطة. فالحرب مستمرة حتى لو لم يتمّ الإقرار بذلك. ولا تزال حكومة التحالف في المنفى تسعى لتحرير تلك الولايات الراغبة في التحرر من حكم الاتحاد القمعي».

وصُرف انتباه شارلوك بحركةٍ قام بها بالتاسار بيده. لا، ليست حركة ليده_ أدرك شارلوك_ بل على يده. فقد كان قماش القفّازين الأبيض على يده اليسرى ينثني قليلاً حيث يوجد أحد الانتفاخات التي لاحظ شارلوك وجودها من قَبل. وأثناء مراقبته، بدأ الانتفاخ يتحرك في اتجاه المِعصم. ما هذا بحق الله!؟

«آه». قال بالتاسار ملاحظاً نظرة شارلوك المحدِّقة والمروَّعة. «أرى أنك

لاحظتَ رفيقتي الصغيرة. اسمح لي بإجراء عملية تعريف رسمية».

ومدّ يده اليمنى في اتجاه يده اليسرى، وقبض على أعلى القفّاز، وسحبه بحركة ثابتة ومُتقَنة.

فلهثت فرجينيا، في حين أصدر ماتي صوتاً ينمّ عن الاشمئزاز.

كانت يد بالتاسار مغطاة_ باستثناء إصبعه الصغيرة_ بما بدا للحظة من الزمن أشبه بالدمامل، ولكن شارلوك أدرك أنها كائنات حيّة أشبه ببزّاقات عارية. كانت رمادية ومائلة للحُمرة ورَطْبة، وبدت كما لو أنها تنبض قليلاً أثناء قيام شارلوك بمراقبتها.

«ما هذه؟». همس.

خلع بالتاسار القفّاز الآخر، فبدت يده اليمنى_ التي فقدت الإصبع الرابعة_ مغطاة أيضاً بالمخلوقات الشبيهة ببزّاقات عارية.

«أعرّفك بأطبائي. إنها بمثابة فريق طبّي كامل ومخصَّص للعناية بصحتي».

مادّاً يده اليمنى، فكّ عقيفةً وراء أُذُنه اليسرى وسحب قناع البورسلان بحركة واحدة سريعة.

فهسهس الفهدان الأميركيان وحاولا التراجع عبر الشرفة.

كان وجه بالتاسار هزيلاً، والعظمتان الوجنيتّان والأنف ناتئة، ولكن يصعب تمييز ملامحه تحت المخلوقات بالغة الصِّغَر الخالية من العظام الملتصقة ببشرته البيضاء كقطراتِ قار سوداء.

الفصل الرابع عشر

أصدرت فرجينيا صوت اختناق كما لو أنها تحاول منع نفْسها من الشعور بالغثيان. وقال ماتي كلمة واحدة تعبّر عن صدمته؛ وافترض شارلوك أنها كلمة التقطها أثناء أسفاره عبر الممرات المائية.

أما شارلوك فتسمر في مكانه شاعراً بالنفور. أجل، ولكنه فاقد القدرة على الحركة. وأثناء إلقائه نظرة عن كثب، لاحظ أن وجه بالتاسار مكسوّ بندوب صغيرة مثلَّثة الشكل. أيّاً تكن الأشياء الملتصقة بوجهه، فقد كان يستخدمها لبعض الوقت.

«بالكاد يمكن اعتباره مناسباً كوجه للبلد الجديد». قال شارلوك محاولاً إخفاء مشاعره. «يمكنني أن أفهم سبب اضطرارك إلى وضع قناع».

«لكل الإجراءات الطبية تأثيرات جانبية». قال بالتاسار بهدوء. «فالزئبق المستخدَم لمعالجة السِّفلِس يقود الناس إلى الجنون. وأعتبر نفسي محظوظاً لأن التأثيرات الجانبية التي لحقت بي محدودةٌ بالجانب التجميلي البَحت».

«ولكن، ما هذه؟». همس ماتي.

فأجابت فرجينيا: «إنها عَلَقات؛ عَلَقات ماصّة للدماء. وهي تعيش في السَّواقي والبِرك في المُناخات الحارّة».

«عَلَقات ماصّة للدماء!». كرر ماتي. «وتسمح لها بامتصاص دمك؟ أنت مجنون!».

«على الأقل أنا حيّ». أجاب بالتاسار غير منزعج. «في عائلتي داء متوارَث. وقد تُوفّي والدي بسببه على غرار والده. إذ يتدفق الدم ببطء في أوردتنا. وبدون علاج، تبدأ أجسادنا بالتفكك شيئاً فشيئاً». ورفع يده ونظر إلى الإصبع المفقودة. «لم يتبقَّ من والدي الكثير عندما مات».

«وهل العَلَقات تساعد؟». سأل شارلوك مصدوماً.

«في لُعابها مادة تمنع الدم من التخثّر. عليها أن تكون كذلك، وإلا لَما تمكنتْ من الاقتيات. وبوجود ما يكفي من العَلَقات المُقتاتة ملتصقةً ببشرتي، وفارزةً تلك المادة، تكون دورتي الدموية أسرع، ويندفع الدم عبر أوردتي».

«ولكن... ألا تمتص دمك؟». سأل ماتي.

فهز بالتاسار كتفَيه مجيباً: «تمتص مقداراً ضئيلاً جداً ربما. وهذا ثمن زهيد أدفعه للحصول على صحة جيدة، وهو أمر لا أَبخل به عليها. يذكّرني ذلك...» والتفت إلى الطبيب بيرل. «أعتقد أنك تحمل شيئاً ما لأجلي؟».

واعتلت وجهَ بيرل نظرةٌ مضطربة، ثم رفع العلبة من حضنه ووضعها على الطاولة، وبعد ذلك نقر مِشبَكاً في الأعلى وفتح الغطاء، وأخرج من الداخل مرطباناً زجاجياً ذا غطاء مصنوع من ورق مشمَّع مربوط بخيط.

وفي داخل المرطبان كان هناك شيء مُريع.

كانت العَلَقات على وجه ديوك بالتاسار ويدَيه _ وعلى بقية جسمه أيضاً، كما هو مُفترَض _ صغيرة، وتكاد لا تكون أكبر من إصبع شارلوك الصغيرة. أما تلك الموجودة في المرطبان فبحجم قبضته مكوَّرة، وهي حمراء برّاقة ومتلألئة. كانت ملتفّة حول نفسها في قعر المرطبان، ورأسها بالغ الصِّغَر يتحرك في الهواء_ كما لو أنها ضريرة_ بحثاً عن غذاء.

وضعت فرجينيا يدها على فمها وأشاحت بنظرها. وحاول الفهدان الأميركيان المستلقيان على الشرفة في الجوار الابتعاد أكثر فأكثر. كانت أنيابهما ظاهرة، وتبدو عيونهما جامحة وخائفة، ولكن خوفهما من بالتاسار كان يفوق خوفهما من العَلَقة كما يبدو، ولم يحاولا الهرب.

«إنها عيّنة مثيرة للإعجاب». قال بالتاسار متناولاً المرطبان عن الطاولة. «متى تغذّت للمرة الأخيرة؟».

«منذ شهر تقريباً». أجاب بيرل. «أو هذا ما قِيل لي». وصمت قليلاً، ثم ابتلع لعابه بصعوبة قبل أن يتابع. « ديوك، نظراً إلى كَوني طبيباً_ طبيبك على وجه التحديد_ عليّ أن أقول لك إن هذا... العلاج... ليس أمراً أُوصي به. في الواقع، لست مقتنعاً بنجاحه... إنها مُسوخ!».

«لا أزال على قَيد الحياة أيها الطبيب، وستبقى لديّ كل أطرافي؛ باستثناء إصبعَين وبعض أصابع قدمَيّ. وهذا هو الدليل الذي أحتاج إليه». وسحب خيطاً طليقاً، ففُكّت العقدة التي كانت تُمسك بالورق المشمَّع. «وبواسطة هذا المخلوق الجميل سأكون قادراً على التفكير بوضوح أكبر، وستكون قوة احتمالي بلا حدود».

ومدّ يده إلى داخل المرطبان، وأخرج العَلَقة بعناية، فتدلّت من أصابعه. ثم رفع خُصلة من شعره الأبيض الجميل عن وجهه، ووضع العَلَقة وراء أُذُنه اليمنى.

فأصدر الفهدان الأميركيان صوت مُواء، لقد ذُعِرا.

أثناء قيام شارلوك بمراقبته، تحرّك رأس ذاك المخلوق في الأرجاء بَحثاً عن وريد_ كما افترض شارلوك_ وثبّت نفسه بعد ذلك على بشرة بالتاسار. لقد ناور طرفه الخلفي للحظات متلوّياً، ثم ثبّت نفسه أيضاً بشكل مُحكَم.

أغمض بالتاسار عينَيه، وابتسم بغِبطة وهمس: «تماماً. هيا يا جميلتي،

تغذّي، تغذّي».

«كم... كم تبقى ملتصقة؟». سأل شارلوك.

«لأيام». أجاب بالتاسار بشكل حالم، وهو مُغمَض العينَين، ثم تابع: «لأسابيع في بعض الحالات. وعندما تحصل على كفايتها، تنفصل وتنام لمدة شهر أو شهرَين أثناء هضمها الدم الذي يبقى سائلاً. لديّ مخزون كبير من العَلَقات_ معظمها من هنا، من أميركا، من فلوريدا وألاباما_ ولكن أيّاً منها لا يشبه هذه العَلَقة. أوه، لا، أيٌّ منها لا يشبه هذه العَلَقة». وابتسم. «كنت أعرف أنها هناك، في أدغال الشرق الأقصى. لقد تمكنتُ من الشعور بحضورها. فقد نادتني طالبةً مني القدوم والحصول عليها».

كان هناك شيء ما في نبرة صوته ذكّر شارلوك بجون ويلكس بوث أثناء تكلّمه عن شمه رائحة دخان. إذ إنه يبدو نعسان، وغير مركِّزٍ تماماً على الواقع. هل تفرز العَلَقات مادةً ما داخل مجرى دمه بالإضافة إلى المادة المضادة للتخثر؟ أتفرز مخدِّراً من نوع ما يجعل الضحايا غير مُبالين بوجود طُفَيليٍّ ملتصق بهم، ويملأهم أفكاراً سارّة هذيانية؟ وضع الفكرة جانباً إلى وقت لاحق؛ إذا كان هناك وقت لاحق. كان لا يزال لا يملك أية فكرة عن طريقة تمكنهم ثلاثتهم من الفرار.

ولفتت انتباه شارلوك حركة بجانب قدم بالتاسار. فقد كان الفهدان الأميركيان يبتعدان عنه، مثبّتَين أنظارهما على العَلَقة الحمراء العملاقة التي لم تُعجبهما. لقد بدَوَا خائفَين منها.

«يا شِرمان، ويا غرانت». هسهس بالتاسار، ومن ثم قال شيئاً ما لم يفهمه شارلوك؛ فكفّ السنّوريان الكبيران عن الابتعاد، ولكن عضلاتهما كانت لا تزال مشدودة.

لقد بدت العَلَقة لشارلوك نابضة بدم بالتاسار الذي تمّ اعتراضه، والذي يجري في وريد وراء أُذُنه.

فجأة، قال بالتاسار: «أنت تضيّع الوقت سدى. هل لديك أية أسئلة إضافية؟».

حاول شارلوك الإشاحة بنظره عن العَلَقة، وقال: «قلتَ إن حكومة التحالف في المنفى لا تزال تسعى إلى تحرير تلك الولايات الراغبة في التحرر من نظام الاتحاد القمعي».

«بالفعل».

«ولكن، كيف؟». سأل شارلوك.

«حاول اكتشاف الأمر، وسأُخبرك إذا كنتَ محقاً». وأثناء فتح شارلوك

فمه للاعتراض، أضاف بالتاسار: «انظر إلى الأمر كما لو أنه وسيلة لحصولي على المزيد من المعلومات. فإذا تمكنتَ من اكتشاف الأمر نظراً إلى عِلمك بحقيقة السيد بوث، فبإمكان السلطات بدون شك اكتشاف الأمر أيضاً. أَعِدك، إذا لم تتمكن من اكتشاف الأمر فسأُعطيك الجواب».

فكّر شارلوك للحظات؛ فكلما جعل بالتاسار يتكلم لمدة أطول، تمكن من إرجاء لحظة موتهم، وربما اكتشف طريقة للفرار في غضون ذلك. أو ربما سيعثر عليهم أميوس غروي.

«إذاً، جون ويلكس بوث فقد عقله. فهو تارةً يهذي، وطوراً يكون عنيفاً. وهو يحتاج إلى التخدير في معظم الوقت لتتمكن من نقله من مكان إلى آخر. لذا، من الواضح أنه غير صالح كقاتل أو كأي شيء آخر عدا عن كونه رئيساً صُوَرياً. لذلك، أنت بحاجة إليه لحشد الجنود وإلهامهم».

فأومأ بالتاسار برأسه، ولكن كلمة جنود أوحت لشارلوك بفكرة؛ بالرغم من أنه اختارها كتعبير مَجازي ليس إلا.

«أنت تحشد جنوداً. لا أستطيع أن أتخيّلك وأنت تُطيح بالحكومة الحالية، أو تنشقّ بوسائل سياسية. فقد حاولتَ وأخفقتَ. لذا، أظن أنك تُنشئ جيشاً، أليس كذلك؟ لهذا السبب أنت بحاجة إلى بوث؛ لتحفّز جيشك، وتُظهر له وجود صلة مباشَرة بين الحرب بين الولايات وما تقوم به الآن!».

أومأ بالتاسار برأسه مجدداً: «تابع».

«ولكنني لا أتخيّل أنك قادر على إنشاء جيش كبير بما يكفي للتغلّب على جيش الاتحاد. فأنت لا تستطيع القيام بذلك مرة ثانية، ولا سيما منذ تعرّضك للهزيمة في المرة الأخيرة. لذلك، أنت بحاجة إلى الجيش للقيام بأمر آخر». كانت الأفكار تتسارع في عقله. «ولكن، ما هو هذا الأمر؟ إذا لم يكن الجيش يعتزم القتال على أرض أميركية، فلا بد إذاً أن يكون مُعَدّاً لاجتياح مكان آخر». وحاول التفكير في الخرائط التي كان قد نظر إليها على متن أس أس سكوتيا، ثم سأل: «المكسيك؟».

فهز بالتاسار رأسه مجيباً: «تخمين جيد، ولكنه خاطئ. لقد اختُبر الأمر منذ سنوات قليلة، ولكن الخطة انهارت بسبب قلة الدعم. وعلاوةً على ذلك، المكسيك حارّة وقاحلة، ولديها جيش دائم خاص بها وسيعمد إلى مقاومتنا».

«إذاً، لماذا؟». سأل شارلوك، ولكن الإجابة تبادرت إلى ذهنه فوراً. «إذا

كان لديك جيش، فستكون بحاجة إلى حدود برّيّة كي يعبرها. وللولايات المتحدة حدود برية من جهتين فقط: إحداها مع المكسيك والأخرى مع... كندا؟.»

فأومأ بالتاسار برأسه. «أحسنتَ. أجل، لقد أنشأنا جيشاً مكوَّناً من عدة آلاف من الجنود الأشداء. وهو يخيّم في مكان غير بعيد من هنا. إنهم يتوافدون إلى هذا المكان منذ عدة أشهر بأعداد صغيرة كي لا يلفتوا الانتباه. وبوجود جون ويلكس بوث كرئيس صُوَري لنا_ تميمتنا الجالبة للحظ، إذا شئت _ سنزحف ونحتل ميناء هاليفاكس بهدف منع البريطانيين من إرسال الإمدادات، ومن ثم سنقطع الاتصالات بين كندا الشرقية والغربية بالاستيلاء على وينيبِغ. ويمكننا عندئذٍ دخول البلد والاستيلاء على كيبيك ومنطقة البحيرات الكبرى. وبعد إتمام ذلك، يمكننا إنشاء دولة جديدة؛ حيث يمكن لأنصار التحالف المشابهين لنا في الأفكار الانضمام إلينا والاحتفاظ بعبيدهم، إذا شاء الله».

«ولكن، لماذا كندا؟». سأل شارلوك.

«إنها أرض جيدة لإنماء المحاصيل. فمُناخها معتدل_ على الأقل قرب الحدود مع أميركا_ وموانئها ممتازة للأهداف التجارية، ولا وجود لجيش يُذكر يقاوم تقدّمنا، وبالطبع هي أرض بريطانية دخلت تحالفاً مع بريطانيا مؤخراً. وقد رفضت بريطانيا مساعدتنا في معركتنا ضد الاتحاد».

«لن تدَع الحكومة البريطانية كندا تسقط أبداً». قال شارلوك مفكراً في مايكروفت.

«لا تكن واثقاً. فهم لن يُبالوا على الأرجح». تهكّم بالتاسار. «فكِّر فقط في لوجستيات شحنهم جيشهم لمسافة ثلاثة آلاف مِيل لخوض معركة، ولا سيما عندما نسيطر على المرافئ. لا، ستكون هناك سنوات قليلة من الثغاء الدبلوماسي بالطبع، ولكننا سنسيطر على كندا».

سأل شارلوك: «وستكون أنت الرئيس؟ رجل في قناع صيني؟!».

انتفض رأس بالتاسار إلى جانب واحد. لقد أصابت كلمات شارلوك الهدف.

«جون ويلكس بوث ربما». أجاب باقتضاب. «مع التوجيه والعلاج المناسبَين بالطبع. أو الجنرال روبرت إي. لي ربما. هناك عدد كبير من المرشحين. ولكنني سأكون القوة المحركة وراء العرش».

لقد أزعجت الحركة الفجائية إحدى العَلَقات الصغيرة، فسقطت عن وجهه واصطدمت بالطاولة، مُحدِثةً صوتاً خفيفاً. فحدّق بالتاسار بها ثم قال:

«إنها مُسِنّة؛ واحدة من العلقات التي خدمتني لمدة طويلة. أعتقد أن الوقت قد حان لإحالتكِ إلى التقاعد يا صديقتي».

والتقطها عن شرشف المائدة وألقاها في فمه، ومن ثم ابتلعها كرجل يتناول مَحاراً.

لاحظ شارلوك أن العَلَقة تركت لطخة حمراء على الشرشف، فأبقى نظره مثبَّتاً على تلك اللطخة الحمراء. لقد تملّكه شعور بأنه سيتقيّأ إذا لم يثبّت نظره على شيء ما؛ أي شيء.

تمتم بالتاسار بصوته الهشّ الهامس، مُعيداً قناع البورسلان برِقة إلى وجهه المليء بالندوب والمغطى بالعَلَقات: «يجب أن أقول إنك أظهرت قدرة غير عادية على توقع مخططاتي انطلاقاً من وقائع قليلة مبعثَرة. إما أن يكون الأمر كذلك، أو أن مخططاتي أكثر وضوحاً مما ظننتُ. وفي كلا الحالَين، لا أستطيع تحمّل التأجيل. إذا كنتَ_ مجرّد فتى صغير _ قادراً على اكتشافها، فستكون الحكومة الاتحادية قادرة على اكتشافها أيضاً. أعتقد أن تقدّمنا إلى داخل كندا يجب أن يبدأ في غضون الأيام القليلة التالية. شكراً لك على مساعدتك».

«وماذا عنا؟». سألت فرجينيا. وكان شارلوك فخوراً بالمستوى الذي أبقت صوتها عليه.

«أوه، لا حاجة لي إليكم الآن». قال بالتاسار. لم يكن هناك أي أثر للغضب أو الثأر في صوته، لا أثر لأي شيء البتة؛ كما لو أنه يناقش بسهولة سعر أوراق الشاي. «سيتم التخلص منكم».

«كيف؟». سأل شارلوك.

«آه». ولم يظهر أي انفعال على قناع بالتاسار المصنوع من البورسلان. «أعترف أنني ربما أكون قد ضلّلتكم. ولكنني أحتفظ في عقلي بمصير لكم يحلّ ثلاث مشاكل منفصلة أواجهها، ولكنه يتضمّن بالفعل الكثير من الألم والمعاناة». وأومأ لروبينيك القاسي قائلاً: «أيها النقيب، رجاءً اصطحب ضيوفنا إلى منطقتنا المسوَّرة الجديدة. إذ تحتاج مكتسباتي الحديثة إلى تغذية». والتفت إلى شارلوك. «لقد حرص جامعو المخلوقات النادرة وغير العادية على أن تكون هذه المخلوقات قد أكلت جيداً قبل أن يتم أسرها». قال بطريقة متهكمة وتابع: «وهي بحاجة إلى عدة أسابيع لهضم طعامها، وتكون في هذه الأثناء في سُبات تقريباً. ولكنها قامت برحلة طويلة من بورنيو، ويوحي سلوكها الحالي بأنها جائعة مجدداً». وصمت قليلاً، واشتبه شارلوك بأنه يبتسم تحت القناع. «توقّعتُ أنها ستجذب حشوداً ضخمة عندما

أعرضها. وبإطعامكم لها، سأتخلص منكم ومن جثثكم، وسأحرص أيضاً على توفير مصدر لائق من اللحم جيد النوعية لحيواناتي المدلَّلة لإشباع حاجتها لمدة من الزمن». وصمت للحظات إضافية ثم تابع: «قيل لي إنها تأخذ طعامها إلى تحت الماء وتخزّنه تحت الصخور حتى يصبح... طريّاً. سنستمتع كلنا بمراقبة تلك العملية».

وقبل أن يتمكن شارلوك من قول أي شيء، خرج رجلان إضافيان من الظلال بإيماءة من روبينيك. أمسك الرجال الثلاثة شارلوك وماتي وفرجينيا من أكتافهم، وجرّوهم بخشونة بعيداً عن كراسيهم، وشرعوا بدفعهم عبر الشرفة.

غمر شارلوك شعور باليأس. فبالرغم من كل شيء، يبدو الأمر كما لو أنهم سيلاقون حتفهم بطريقة قاسية ومؤلمة. لم يعرف ما هي مكتسبات بالتاسار الأخيرة، ولكنه ارتاب في ألا تكون ببراءة السناجب أو الببّغاءات. فأيّاً تكن، فهي على الأرجح كبيرة ولديها أنياب حادّة. أهي المزيد من الفهود الأميركية؟ لا، فبإمكانه الحصول عليها محليّاً ولن يكون مضطراً إلى البحث عنها في الخارج.

التقى نظره بنظر ماتي أثناء دفعهم عبر الشرفة. كان ماتي يبدو خائفاً، ولكنه ابتسم لشارلوك بإيجاز.

لقد دُفع ثلاثتهم إلى خارج حافة الشرفة حيث التربة مرصوصة، وبلغوا منطقة الأقفاص، واسطبلات الخيول، والسياجات التي سبق لشارلوك أن رآها من القطار. إنهم يتوجهون إلى منطقة مسوَّرة كما يبدو، منطقة قائمة على أحد الجوانب؛ حيث بُني الجدار حديثاً. وفي محاذاة أحد الجوانب شرفةٌ تُطلّ على ما هو مُحاط بجدران. وتؤدي درَجات متجهة نحو الأعلى إلى الشُّرفة. وجد شارلوك نفسه يرتعد خوفاً عندما رأى لوحاً خشبياً خارجاً من الشرفة من دون أن يعرف ما يوجد تحته.

هناك سلالم منفصلة تؤدي إلى الأسفل، إلى داخل الظلمة. فتساءل شارلوك للحظة من الزمن عما يوجد هناك، ولكن تخميناته قوطعت عندما دفعه روبينيك على الدرَج في اتجاه الشرفة. ودفع رفيقاه ماتي وفرجينيا في إثرهما.

تمكن شارلوك من رؤية ما يوجد في المنطقة المسوَّرة في الأسفل. فمن ذلك الموقع المُشرف، بدا الأمر أشبه بحُفرة صخرية غير مستوية داخل الجدران، وتنمو نباتات خارج الشقوق بين الصخور، فيما تشغل بِركة ماء خفيفة المُلوحة نحو ثلث المساحة. لم يكن هناك أثر لأي شيء حيّ، ولكن

شارلوك لم يشعر بالاطمئنان.

وجّه روبينيك شارلوك نحو بداية اللوح الخشبي، فيما وضع الرجلان الآخران ماتي وفرجينيا معاً على بُعد خطوات قليلة.

«هيا، أنت تعرف ماذا يجب أن تفعل».

«وإذا لم أفعل؟». سأل شارلوك.

فرفع روبينيك يده، وكان يحمل مسدساً صغيراً يكاد لا يكون أكبر من راحة يده، يحتوي على ماسورتَين، وقال: «لا أهمية لحياتك أو موتك لما يوجد هناك. ولا أهمية للأمر بالنسبة إليّ أيضاً».

نظر شارلوك إلى الوراء في اتجاه المنزل. لقد توقّع لحاق بالتاسار بهم، ومراقبته ما سيحصل من الشرفة؛ ولكن الرجل طويل القامة الذي يرتدي بِذلة بيضاء كان لا يزال على شرفته، وقد نشر خارطة على الطاولة ويقوم بمراجعتها. يبدو أنه نسي أمر شارلوك وصديقَيه.

سار شارلوك بتردد إلى نهاية اللوح الخشبي الذي انثنى تحت ثقله. كان المنحدر في اتجاه الأرض الصخرية بارتفاع عشر أقدام تقريباً.

«اقفز». أمره روبينيك. ومع اقتراب شارلوك إلى الأمام، أعاد روبينيك مسدّسه الصغير إلى جَيب سترته.

«سأحطّم ساقَيّ!». اعترض شارلوك. «هناك صخرة صلبة في الأسفل».

«إذاً؟». وربّت الرجل على جَيب سترته؛ وكان تهديده واضحاً.

ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى داخل المنطقة المسوَّرة، ونظر إلى فرجينيا، ثم عاد خطوتَين إلى الوراء قبل أن يركض في اتجاه نهاية اللوح الخشبي ويقفز إلى داخل السياج.

لقد استخدم مرونة اللوح الخشبي ليدفعه إلى البعيد والأعلى، مُميلاً جسده كي يتجه نحو بِركة الماء، فسقط فيها مُرسلاً رذاذاً متطايراً في الهواء. كانت المياه دافئة بسبب الشمس الساطعة، فسبح شارلوك إلى الحافة قبل أن ينال منه أي شيء يمكن أن يكون مقيماً في الماء، وخرج بسرعة إلى الصخور والماء يقطر منه، ونظر حوله. غير أنه لم يرَ أي شيء يتجه نحوه.

رفع نظره في اتجاه الشرفة. كانت فرجينيا عند نهاية اللوح الخشبي وأمارات الخوف تبدو واضحة على وجهها. وأثناء توجّه ماتي نحو اللوح، تعثّر ووقع إلى الوراء على النقيب روبينيك الذي دفعه بقسوة إلى الأمام.

ألقى شارلوك نظرة سريعة حوله؛ تحسّباً لتسلّل شيء ما نحوه. وتطاير الرذاذ من البِركة بشكل متتالٍ، وسرعان ما انضمّت فرجينيا وماتي إليه. وعندما ظهرا على صفحة الماء، مدّ يده بسرعة وسحبهما نحو الصخور،

مغرغِرَين.

«ماذا يوجد معنا هنا؟». سأل ماتي لاهثاً.

«لست واثقاً». أجاب شارلوك وهو ينظر حوله. على الشرفة في الأعلى، كان روبينيك ورجلاه يغادرون. فأيّاً يكن ما سيحدث، فهو غير مصنَّف كرياضة تجذب المشاهدين.

«إنهم لا يراقبوننا». أشارت فرجينيا. «لدينا فرصة للفرار».

«الجدران عالية جداً ولا يمكن تسلّقها». قال ماتي بشكل مُريب.

نظر شارلوك حوله. «هناك صخور متفرقة في الأرجاء. ربما إن تمكنّا من تكديسها وتسلّقها فسنبلغ أعلى الجدار». ثم فكر للحظات وقال: «لا فائدة من ذلك. فقد يروننا من المنزل أثناء تسلّقنا الجدار. علينا العثور على مَخرج من دون أن يتمكنوا من رؤيتنا».

ولفتت انتباهه خَربشة من الجانب البعيد للسياجات، فألقى نظرة سريعة في ذلك الاتجاه وقلبه يخفق في صدره بقوة. ما هذا الشيء الموجود معهم؟

لم يتمكن من رؤية أي شيء للحظات، ولكن رأساً كابوسياً ظهر من فجوة مُظلمة بين صخرَتين. إنه ضيّق وطويل مع عينَين صغيرتَين على الجانبَين. وكانت بشرته خضراء ومائلة للرمادي، فيما تتدلى طيّات من فكه الطويل. فتح فمه أثناء مراقبة شارلوك له، فلمع لسان أحمر متشعِّب متذوّقاً الهواء. ولكن شارلوك رأى في الداخل صفّاً من الأسنان؛ كل منها بحجم إصبعه الصغيرة، وكانت متقوِّسة إلى الوراء كي لا تتمكن أية طريدة وقعت في قبضتها من الإفلات.

لهث ماتي، وأطلقت فرجينيا أنيناً مكبوتاً.

«ما هذا؟». همس ماتي.

تحرك المخلوق أكثر فأكثر نحو الخارج. كان جسمه بطول جسم شارلوك؛ نصفه مكوَّن من ذيل عضَليّ طويل. وكان يسير على أربع قوائم منفرجة تنتهي بمخالب معقوفة تنزلق برشاقة على الصخور أثناء تحركه. وبدت بشرته الخضراء المائلة للرمادي أشبه بلِباس فضفاض يضعه عليه أثناء تمايله.

حتى من تلك المسافة، لاحظ شارلوك أن لا إحساس في تَينك العينَين. لا يوجد سوى ذكاء بارد ومخلوق جائع.

«إنه زاحف من نوع ما، ولكنه ضخم. لم يسبق لي أن رأيت مثيلاً له».

«إنه بمثل حجمنا». همست فرجينيا. «اعتقدت أنه ربما يكون قاطوراً_ فقد سمعتُ أنها موجودة في فلوريدا_ ولكن هذا المخلوق مختلف. فالقواطير بطيئة وغبية ولا تحب الخروج من الماء، ولكن ذلك الشيء يبدو سريعاً وذكياً، ويسير على الصخور بدون أية مشاكل».

حدّق شارلوك إلى قائمتَي المخلوق وقال: «تستطيع تلك المخالب تسلّق الأشجار كما يبدو. ولكن، لا أشجار هنا ليتسلّق عليها بأية حال».

تحرّك المخلوق نحو صخرة مسطَّحة وحدّق بهم؛ نافضاً لسانه في اتجاههم. لقد علم بوجود طعام أمامه.

تحرّك شيء ما جانباً، فألقى شارلوك نظرة سريعة في ذلك الاتجاه. كان هناك مخلوق ثانٍ يخرج من فجوة أخرى في الصخور، وكان يبدو أكبر حجماً من الأول.

«انظرا!». صاحت فرجينيا، فافترض شارلوك للحظات أنها رأت المخلوق الثاني أيضاً، ولكنه عندما نظر إليها، وجد أنها تنظر إلى الاتجاه الآخر. تبع بنظراته المكان الذي تشير إليه إصبعها، وأدرك أن هناك عظاءة ثالثة تتحرك نحوهم على امتداد الجدار، ورأسها يتمايل من جانب إلى آخر أثناء مراقبتها لهم.

تحرك المخلوق الأول في الاتجاه الآخر، فيما شرع الثاني بالتوجه نحوهم، وجسمه يتمايل، ومخالبه تتمسّك بالأرض.

كانت المخلوقات الثلاثة كما يبدو تعمل معاً كالكلاب، وتُحيط بشارلوك وماتي وفرجينيا، مانعةً إيّاهم من الفرار.

تسارعت الأفكار في عقل شارلوك؛ فنظراً إلى حجم المخلوقات وأنيابها الكبيرة والحادة، من الواضح أنها من أَكلة اللحوم، وتتحرك كما لو أنها جائعة؛ مُدركةً أن الطعام قريب منها. لم تكن تبدو حذِرة أو محترسة على غرار الكلاب، بل بدت متأنّية بحركاتها. كان لدى شارلوك شعور بأنه لا يمكن إخافة الزواحف؛ فأدمغتها غير مُعَدّة بتلك الطريقة. ستواصل التقدم مهما فعل شارلوك وماتي وفرجينيا لإخافتها. فالأصوات لا توقفها، والإيماءات الفجائية كذلك. واستهدافها بالحجارة قد لا يؤدّي إلى أية نتيجة أيضاً. فهي أشبه بآلات حاسبة مزوَّدة بأسنان.

تقدّمت المخلوقات العملاقة منهم أكثر فأكثر من كل الاتجاهات، فتراجع شارلوك وماتي وفرجينيا نحو الجدار الأقرب؛ مع تضاؤل خياراتهم في مواجهة هذه الزواحف الذكية بشكل عجيب.

«ما هذه الرائحة؟». سأل ماتي، وقد تغضّن وجهه. لقد تمكن شارلوك

من اشتمامها أيضاً؛ إنها رائحة شيء ما أشبه بلحم متعفّن. فإذا كانت تلك المخلوقات تبتلع طرائدها حقاً، فهي إذاً تقضي أسابيع في هضمها، وربما تكون الرائحة منبعثة منها.

قالت فرجينيا بصوت مضبوط: «شارلوك، ماذا سنفعل؟».

«أنا أفكر». أجاب شارلوك، وكان يفكر حقاً وبسرعة كما لم يسبق له أن فكر في حياته.

دنا المخلوق إلى يمينهم خطوات قليلة منهم، فانحنى ماتي والتقط حجراً عن الأرض ورماه على المخلوق، فلم يتحرك هذا الأخير كما لو أن الحجر اصطدم بجدار بجانبه وارتدّ. لا خوف، لا حذر، لا شيء. فالمخلوق لا يبالي فحسب. وبعد ثوانٍ قليلة، تقدّم خطوتَين إضافيّتَين، وانفرجت قائمتاه إلى هذا الجانب من جسمه وذاك.

هسهس المخلوق إلى يسارهم رافعاً رأسه، فهسهس الآخران أيضاً. لم يكن شارلوك واثقاً مما إذا كانت تتواصل مع بعضها، أم تُطلق فحسب أصواتاً لجعل طريدتها تتسمّر خوفاً في مكانها.

قلت المسافة بين الزواحف وثلاثتهم إلى النصف تقريباً، وصارت تضيق عليهم الخناق مع تقدّمها منهم بخطى صغيرة. لا عَجَلة، لا هجوم مفاجئ، بل دَفْع ذكيّ لطرائدها إلى الوراء؛ إلى إحدى الزوايا حيث يمكنها تناول طرائدها على مَهَل.

لم يتمكن شارلوك من التفكير بأية طريقة لإيقافها.

الفصل الخامس عشر

«ماذا عن الماء؟». همس ماتي كما لو أن الزواحف قادرة على سماعه وفهْم ما يقوله. «ألا يمكننا دخول البِركة وانتظار مغادرتها؟».

قال شارلوك: «أعتقد أنها بَرمائية. انظر إلى قوائمها، إنها كَفّيّة. ربما يمكنها السباحة أفضل منا».

«لا أُجيد السباحة». قالت فرجينيا فجأةً.

قال شارلوك: «أَسحب كلامي. يمكنها السباحة أفضل منا، بلا رَيب». ونظر حوله بشكل يائس، آملاً في وجود شيء ما مُلقى جانباً يمكنه الاستعانة به، ولكن لم يكن هناك أي شيء باستثناء الصخور والخمائل.

كانت الزواحف تقترب، وصعب عليهم أكثر فأكثر تحمّل رائحة اللحم المتعفِّن الكريهة.

قال ماتي: «أوه، لا أدري إذا كان الأمر مفيداً، ولكنني حصلت على هذا من جَيب سترة الرجل».

واستدار شارلوك فرأى ماتي يحمل المسدس الصغير ذا الماسورتَين.

فقالت فرجينيا: «إنه رمينغتون دِرينغر. أحضر لي أبي مسدساً مماثلاً له ذات مرة، ولكنني فقدته».

«كيف أخذتَه منه بالله عليك!؟». سأل شارلوك.

فهز ماتي كتفَيه مجيباً: «أعيش من مواردي الخاصة. والنَّشل أحدها».

نظر شارلوك من المسدس إلى الزواحف المتقدمة، ومن ثم إلى المسدس. «رصاصتان وثلاثة مخلوقات؛ لن يرجّح الكفة لصالحنا بالتأكيد».

«ولكنه سيزيد فرصنا». أضافت فرجينيا.

« ذلك يعني أن أحدنا سيُقتل ويُلتهم بدلاً من ثلاثتنا؛ وهذا ليس حلّاً مقبولاً».

«هل لديك فكرة أفضل؟». سأل ماتي.

قال شارلوك: «في الواقع، لديّ واحدة». وتفحّصت نظرتُه المحدّقة الجدران. «كيف أنزلوا هذه المخلوقات إلى هنا؟ أشك في أن يكونوا قد جعلوها تسير على اللوح الخشبي؛ فهناك إمكانية كبيرة لتعرّضها للأذى إذا وقعت».

«أتعتقد أن هناك بوّابة أو باباً أو ما شابه؟». سأل ماتي.

«يبدو الأمر منطقياً. كل ما نحتاج إليه هو البحث عنه».

تأمّل شارلوك الزواحف المتقدّمة أكثر فأكثر، ثم قال: «إنها أبطأ منا،

ولكنها ستمحونا في النهاية». وقفزت نظرته المحدّقة إلى الصخور. «انظرا، إذا كنا سريعين فبإمكاننا التسلّق إلى أعلاها، ومن ثم القفز من فوق رؤوسها فنصبح وراءها. وعندئذٍ، يمكننا البحث عن المَخرج. فهي لا تستطيع التحرك بسرعة».

وقبل أن يتمكن ماتي وفرجينيا من إيقافه، ركض في اتجاه الزواحف، ففُتحت ثلاثة أفواه مليئة بأنياب حادّة، وأصمّت الهسهسة الفجائية أُذنَيه تقريباً. ومن دون أن يتوقف ليفكر، قفز على إحدى الصخور، ومن ثم إلى جُلمود أكبر. اهتزّ الجلمود تحت قدمَيه، وأدرك أن المخلوقات ستنقضّ عليه على الفور إذا انزلق. لذا، قفز بشكل غير متوازن، ورأى الزواحف وهي تقف على قوائمها الخلفية تحته أثناء قفزه في الهواء، مادّةً مخالبها الطويلة، وآملةً في تمزيق عَقِبَيه.

هبط بسلام على رُقعة أرض، فاستدار ورأى فرجينيا تندفع نحوه بسرعة، فأمسك بها أثناء هبوطها، وسحبها إلى جانبه ليؤمّن لماتي فسحة خالية من العقبات. لقد حاولت الزواحف نهشه أثناء قفزه، وحرّك أحدها ذيله العضَلي في الهواء محاولاً ضربه، ولكن أنيابه أُطبقت بعد مرور ماتي بسرعة فائقة. اصطدم ماتي بالأرض، وتعثّر متدحرجاً قبل أن يقف على قدمَيه.

ومن دون إظهار أية أحاسيس، استدارت الزواحف الثلاثة وشرعت بالتقدم ثانيةً، وعيونها السوداء خَرَزية الشكل مثبَّتة على شارلوك وماتي وفرجينيا.

«بسرعة!». صاح شارلوك، وتقدّمهما إلى الجدار الذي يفصل السياج عن العالم الخارجي. إلى يمينه، كان الجدار متواصلاً حتى الأرض. وإلى يساره، كانت هناك أكداس من الصخور تغطّي قاعدته. فركضوا على امتداد جانب الجدار، باحثين في الفسحة وراء الصخور... لا شيء! ومرّوا برقعة أرض أخرى، حتى وصلوا إلى خَميلة كبيرة تُخفي الجدار. فدفعها شارلوك جانباً، وقفز قلبه عندما رأى مصبَّعاً معدنياً مرتفعاً من الأرض وحتى مستوى الخصر، ومتّصلاً بمفَصّلات إلى اليسار، وبمِزلاج بسيط متحرك.

ومن ثم رأى القفل الضخم الذي يثبّت المِزلاج مكانَه.

فتقدم ماتي إلى جانبه، وسأله شاهراً المسدس: «هل يمكنك تفجيره بواسطة المسدس؟».

فكّر شارلوك مليّاً للحظات ثم قال: «هذا غير محتمَل؛ فالقفل ضخم. وربما سترتدّ عنه الرصاصات ليس إلا».

«ماذا عن المفصّلات؟».

«ثلاث مفصّلات، وطلقان ناريان. هناك مشكلة».

وانضمت فرجينيا إليهما، ناظرةً من فوق كتفها بقلق، وقالت: «لست واثقة من وجود عدة خيارات أمامنا».

فركل ماتي المصبّع المعدني، وبالكاد تحرك.

تزاحمت الأفكار المتعارضة في عقل شارلوك، ووجد نفسه أمام خيارَين: إطلاق النار على الزواحف وترك واحد على قيد الحياة، أو إطلاق النار على القفل وتبديد طلقَين ناريَّين سدى ربما. فأي خيار يتخذ؟

فسأل صوت صغير في ذهنه وسط تضارب أفكاره: «ما الذي كان مايكروفت سيقوله؟ ماذا سيقول أميوس غروي؟». وعلى غرار ما حدث على متن القطار، أجابه الصوت: «عندما تكون أمام خيارَين فقط ولا تحب أيّاً منهما، اتخذ خياراً ثالثاً».

جالت نظرته المحدّقة عبر البِركة التي قفز فيها ثلاثتهم، وتذكر فجأةً الدرَجات المؤدية إلى الأسفل والموجودة بجانب الدرجات المؤدية إلى الشرفة. إنها لا تؤدّي إلى المصبّع المعدني لأنه يفتح على أرض منبسطة، لذا لا بد من أن تؤدي إلى مكان آخر. فالبِركة على ذلك الجانب من السياج، وكان بالتاسار قد تحدّث عن مراقبة الزواحف وهي تخزّن طعامها تحت صخور داخل الماء. ربما تؤدّي الدرَجات إلى رَدهة للمشاهدة تحت الأرض؛ غرفة تحت الأرض مزوَّدة بنافذة زجاجية سميكة تُشرف على أعماق البِركة، ليتمكن بالتاسار وضيوفه من مشاهدة الزواحف وهي تسبح.

ولكن، كيف يمكن اختراق الزجاج؛ إذا كان هناك زجاج؟ فلا بد أنه سيكون سميكاً ليتحمّل ضغط الماء.

إذاً، إن ما يتعيّن عليه القيام به هو التسبب بإحداث المزيد من الضغط؛ أكثر مما يمكن للنافذة تحمّله.

تلقّف الدِّرينغر من يد ماتي. زنادان بالطبع، هذا أمر منطقي بسبب وجود ماسورتَين. سيكون أي شخص راغباً في الضغط عليهما كل على حدة. حدّق جيداً بالماسورتَين، ثم سأل فرجينيا: «كنت تملكين مسدساً مماثلاً. كيف كنتِ تلقّمينه؟».

«تسكب بعض البارود الأسود داخل الماسورة، ومن ثم تضع رصاصة مرمَّمة على البارود؛ حارصاً على عدم إبقاء أي فجوات هواء بين الرصاصة المرمَّمة والبارود. ومن ثم تضع كَبسولة على الطرف الآخر للماسورة، فيصبح المسدس محشوّاً وجاهزاً لإطلاق النار منه».

«رصاصة مرمَّمة!؟». سأل وهو يحدّق بالماسورتَين عن كثب. «آه، أجل، الرصاصة المغلَّفة بورق. لا بد أن ذلك يمنع للتسرّب».

«ورق مشمَّع. ما أهمية ذلك؟».

«لتحقيق إغلاق مُحكَم. على الأقل، لمدة قصيرة من الزمن. وإذا كانت عملية الحشو مُحكَمة الإغلاق، فهي إذاً تحول دون تسرّب الماء».

وقبل أن تتمكن فرجينيا من قول أية كلمة، استدار شارلوك وركض في اتجاه البِركة، مُميلاً الزِّنادَين إلى الأعلى في مؤخّر الدِّرينغر. وعندما بلغ الحافة، غطس مادّاً يدَيه أمامه، وحاملاً الدِّرينغر بيده اليمنى، فغمره الماء حتى رأسه. كان الماء دافئاً ومليئاً بنباتات تطفو على سطحه. أصبح الصوت مكتوماً فجأةً، فركل بقدمَيه لتقوداه في اتجاه الجدار البعيد تحت الشرفة.

هناك، حيث كان يتوقع وجودها، وحيث أنبأه استنتاجه بذلك، وجد نافذة زجاجية داخل إطار معدني. وقبل أن يتسرّب أي ماء إلى داخل الدِّرينغر، وضعه على الزجاج، وضغط على الزِّنادَين معاً.

وفي مكان ما في مؤخّر ذِهنه، كانت تدور معلومة قرأ عنها ذات مرة ولم ينسَها، وهي أن الماء غير قابل للضغط. فمهما ضغطتم عليه، لن يصبح الماء أكثر كثافة؛ إذ إن كل ما يحدث هو أن الضغط الذي تمارسونه يتحوّل إلى مكان آخر، إلى كل ما يلمسه الماء.

وهكذا، عندما اصطدم الزِّنادَان بالكَبسولتَين، اشتعل كفلمينات الزِّئبق في الداخل، مما تسبّب باحتراق الكبريت والفحم الخشبي ونيترات البوتاسيوم الموجودة في البارود الأسود بسرعة، مُنتجة مِقداراً كبيراً من الغاز الحارّ. فدفع الغاز الرصاصتَين على امتداد الماسورتَين، مُحرِقاً الورق المشمَّع. ثم اندفعت الرصاصتان في مواجهة الماء داخل الماسورتَين، واندفع الماء في اتجاه النافذة؛ مما أدى إلى تصدّع الزجاج وتحطّمه.

انسكب كامل محتوى البِركة من المياه داخل الغرفة الموجودة تحت الأرض، ناقلة شارلوك معها، فاصطدم بزاوية الغرفة حيث يجب أن يتواجد الدرج. أمل بشكل يائس أن تُدرك فرجينيا وماتي ما قام به، وأن يتبعاه. هل كان يُفترض به تحذيرهما مُسبَقاً؟ لم يخطر ذلك بباله. لقد تبع استنتاجاته من دون أن يُدرك إمكانية عدم فهم الآخرَين لما يفكّر فيه.

شعر بحريق في رئتَيه بسبب الجهد الذي بذله لحبس أنفاسه، وكان قلبه يخفق بقوّة داخل قفصه الصَّدري، فسحب نفْسه عبر الماء العَكِرة، محرّكاً ذراعَيه بشكل يائس. وفجأةً، شعر ببُرجمات أصابعه تلامس الحافة الصخرية لإحدى الدرَجات. فتوجّه نحو الأعلى وسبح قَدْر الإمكان.

وعندما خرج رأسه من الماء، على مستوى أسفل مدخل الباب المؤدي إلى الخارج؛ إلى أشعة الشمس، أخذ أنفاساً عميقة، الواحد تِلوَ الآخر، منتظراً تباطؤ نبضات قلبه الخافق بأقصى سرعة.

انبثق رأس ماتي خارج الماء بجانبه، وتبعته فرجينيا بعد لحظات.

قال ماتي متنفّساً بصعوبة: «أنت نابغة من نوع ما. لا أعرف ما الذي فعلتَه، ولكنك أنقذتنا».

«ليس بعد». قالت فرجينيا لاهثة.

«ماذا تعنين؟». سأل ماتي.

«قال شارلوك إن تلك المخلوقات برمائية».

وتبادل ثلاثتهم النظرات للحظات طويلة، ثم خرجوا من الماء بسرعة.

لم يكن الدرج المؤدي إلى غرفة المراقبة تحت الأرض وإلى الشرفة يُرى من المنزل، فجلس ثلاثتهم للحظات لالتقاط أنفاسهم.

«ماذا الآن؟». سأل ماتي. «ماذا سنفعل؟».

«الأمر الوحيد الذي يمكنني التفكير فيه هو تتبّع سكة الحديد حتى البلدة الأخيرة». أجاب شارلوك. «سيكون هناك مكتب تلغراف، ويمكننا إرسال برقية إلى والد فرجينيا. علينا إخباره عن جيش بالتاسار واجتياح كندا».

قال ماتي: «آه! سَيراً على الأقدام!!».

فعلّق شارلوك قائلاً: «يمكننا أن نحاول سرقة أحصنة. ولكن، سيُمسَك بنا على الأرجح. فأنا أشتبه في قيام هؤلاء الأشخاص بالاهتمام بأحصنتهم، ولا سيما إذا كانوا يخططون للقيام باجتياح».

فتنهّد ماتي قائلاً: «حسناً، لِنذهبْ. يمكن أن تجفّ ملابسنا أثناء سيرنا».

باقين بمنأى عن أنظار الموجودين في المنزل، شقّ الثلاثة طريقهم عبر مجموعة حظائر، وأقفاص بالتاسار التي يحتوي بعضها على حيوانات. كان العديد منها فارغاً، ولكن شارلوك رأى بعض الحيوانات المخيفة في تلك غير الشاغرة؛ لدرجة أنه توقع أن يتذكّرها لبقيّة حياته. فهي حيوانات لم يرَها إلا في الصور الإيضاحية، وتبدو بشحمها ولحمها كمخلوقاتِ الأحلام والكوابيس؛ حيوانات ذات قوائم وأعناق طويلة تحمل رقَعاً بنّية على بشرتها، ومخلوق ضخم ذي رأس مربَّع الشكل مدلّى أمامه إلى الأسفل وقرنين في الأعلى بين عينَيه وبشرة سميكة كالدِرع، وحيوانات أشبه بخنازير ولكنها مكسوّة بالشعر وتخرج أنياب من فكوكها. باختصار، كانت تلك الحيوانات شبيهة بالحيوانات الأسطورية.

وعندما وصلوا إلى طرف السياج والأقفاص، نظر شارلوك حَوله بحذَر.

فالأرض المكسوّة بالعشب أمامه خالية من العقبات، وإلى اليمين بعيداً رأى منزل بالتاسار الذي تشير وُجهته إلى خط القطار؛ بالرغم من تواريه عن الأنظار وراء العشب العالي. وفي مكان ما في الأرجاء حدودُ السياج، وعلى امتداد سكة الحديد بلدة تدعى بِرسِفِرنس، بعد جسر خشبيّ واحد على الأقل يمرّ فوق وادٍ ضيّق وعميق، كما يذكر.

ليس لديهم خيار آخر.

قال بسأم: «هيا بنا، لِنجتَزْ تلك المسافة».

وهكذا، انطلقوا سائرين عبر الأراضي المُعشَوشِبة. لقد استغرق منهم الأمر عشر دقائق للعثور على السكّتَين التوأمَين المعدنيّتَين اللتين تتخللهما عوارض خشبية متوازية، ونصف ساعة أخرى لبلوغ حدود السياج ومكان انعطاف القطار عن الخط الرئيس في اتجاه منزل بالتاسار. بعد عثورهم على خط القطار، قضى ماتي دقائق قليلة سائراً بين السكّتَين، وهو يتنقل من عارضة إلى أخرى. ولكن المسافة كانت أكبر بقليل من خطوته الواسعة، فبدأت ساقاه تؤلمانه بسرعة، ولذلك انضم إلى شارلوك وفرجينيا في سيرهما على امتداد سكّة الحديد.

وفي غضون نصف ساعة إضافية، توارى السياج والمنزل عن الأنظار خلف طبقة رقيقة من الضباب الذي جعل الأُفُق يتلألأ. وكل ما تبقى ظاهراً هو سكة الحديد التي تقودهم في اتجاه آخر، والأراضي المُعشَوشِبة. وفي البعيد إلى يساره، اعتقد شارلوك أنه يرى الأشكال المُبهَمة للجبال، ولكنه لم يتمكن من التأكد من صحة ما يراه بسبب الضباب.

كانت هناك طيور تحلق فوق رؤوسهم في دوائر، فاعتقد شارلوك أنها يمكن أن تكون نسوراً، ولكن فرجينيا قالت إنها صقور مفترسة للدجاج. احتفظ شارلوك برأيه لنفسه؛ لأنه لم يكن يعرف شكل النسر أو صقر الدجاج، ولذلك لم يكن مستعداً للتخمين.

أثناء سيرهم، وجد شارلوك نفسه يقلّب في عقله خطط ديوك بالتاسار ذاك. لقد بدا كل شيء يخطط له غير معقول: جيش تحالف يسعى إلى اجتياح مستعمرة بريطانية جارة بهدف إنشاء دولة جديدة، حيث يُسمَح فيها بإدارة الأمور كما يحلو للمجتاحين وليس كما يحلو للاتحاديين المنتصرين. لم يوافق شارلوك على مبدإ الرِّق، ولكنه لم يكن واثقاً من موافقته على اعتماد مجموعة من الناس القوة لإجبار مجموعة أخرى على العيش وفقاً للطريقة التي تريدها المجموعة الأولى. ولكن، ما البديل؟ هل يجب السماح لكل منهم بالعيش وفقاً لقواعده الأخلاقية الخاصة؟ وإذا

كانت هذه هي الحال، فماذا سيحدث إذا كان جاركم مثلاً يعتبر السرقةَ مُباحة_ بخلافكم_ فيسرق أغنامكم، أو جيادكم؟ أما البديل فيسمح لشخص ما بأن يفرض عليكم قاعدته الأخلاقية، في حين أنكم لا توافقون عليها ولكنكم مُرغمون على اتّباعها.

على نحو غريب، أدى كل هذا إلى عودة شارلوك بأفكاره إلى نسخة الجمهورية لأفلاطون التي كان مايكروفت قد أعطاه إيّاها قبل مغادرته ساوثمبتون. لقد استبق أفلاطون كل هذه الأسئلة منذ ما يزيد عن ألفَي عام. وفي الوقت المنصرم، لم يتمكن أحد من إنشاء مجتمع يتفق عليه الجميع، ويعمل في الواقع بالشكل الملائم.

هل هذا ما كان مايكروفت يحاول القيام به بنفسه، وبطريقته الهادئة؛ أن يحوّل بريطانيا العظمى إلى مجتمع متماسك قَدْر الإمكان؟

ووجد شارلوك أنه يطوّر احتراماً أكبر لشقيقه مع تقدّمه في السنّ.

أثناء سيرهم، انزلقت الشمس وراءهم بعناد في اتجاه الأُفُق أكثر فأكثر، مُلقيةً بظلال عملاقة أمامهم على الأرض المُعشَوشِبة والمتماوجة. لقد اعتقد شارلوك للحظات أنه يرى شقّاً قاتماً على العشب الذي تُضفي عليه الشمس لوناً خفيفاً. ومع مرور الوقت وانزلاق الشمس أكثر فأكثر، تبيّن له أن الشّق ليس سوى الوادي الضيّق والعميق الذي عبر القطار فوقه في وقت سابق أثناء توجّهه إلى منزل بالتاسار. كانت الأشعة الآفلة تُضيء الجسر من زاوية غريبة، جاعلةً إيّاه يبدو مجسَّماً للأطفال أكثر من كونه أمراً واقعياً.

«أعلينا عبور ذلك!؟». سأل ماتي بصوت خافت، لدرجة توقّف الثلاثة عند حافة الوادي الضيّق والتحديق بالجسر.

أشار شارلوك إلى أعماق الوادي ملوِّحاً بيده وقال: «لا أعتقد أننا في وضعٍ يسمح لنا بنزول المنحدر، وعبور النهر، وتسلّق المنحدر المقابل إلى الأعلى».

قالت فرجينيا: «أعتقد أنه يعني: أنه علينا عبوره الليلة؟ وأعتقد أنني أوافقه الرأي».

فأجاب شارلوك: «لا يمكننا تحمّل نتيجة التوقف والحصول على قسط وافر من النوم. ففي البداية، نحن لا نعرف ما ينتظرنا هنا. فربما توجد فهود أميركية، أو دِببة...».

تمتمت فرجينيا: «أو حيوان الراكون».

«قد يتواجد هنا أي شيء. نحن بحاجة إلى طعام. فباستثناء عصير البرتقال ولِفافة الخبز، لم أتناول أي شيء منذ الصباح».

«الطعام...». أنّ ماتي. أتضوّر جوعاً. هل تعتقد أن هناك شيئاً ما في هذا المكان يمكننا_ كما تعلم_ اصطياده؟».

«قد يكون الأمر عكسياً». أشار شارلوك، وأخذ نفَساً عميقاً، وهمّ بالسير فوق الوادي، خاطياً من عارضة إلى أخرى.

«ماذا سيحدث إذا مرّ قطار؟». صاح ماتي.

فأجابت فرجينيا: «إنها لا تسير في الليل، فهناك إمكانية كبيرة للاصطدام بجاموس، أو لحصول انزلاق في التربة، أو شيء آخر... لذا، يتوقف القطار في أقرب بلدة ويُنزل الركّاب. فهناك فنادق يبيت فيها الركاب إلى أن يحين موعد مغادرة القطار في صباح اليوم التالي».

«أوه». قال ماتي، وبدا كما لو أنه كان يأمل في وجود سبب ما لعدم العبور.

وجد شارلوك_ على غرار ماتي قبله_ أن الانتقال من عارضة إلى أخرى أمر مُرهِق. فبالرغم من طول ساقَيه، كان يتعيّن عليه توسيع خطوته أكثر فأكثر. لقد تمكن من رؤية المكان في الأسفل بين العوارض، ولكن الوادي كان يغرق في الظلام لأن الأشعّة الأخيرة للشمس تسطع أفقياً على المنظر الطبيعي. لذا، كل ما تمكن من رؤيته بين قدمَيه هو الفراغ. وإذا حدّق كثيراً فسيبدأ بعدم التركيز على موطئ قدمَيه. وقد تعثّر مرتَين وفقد موطئ قدمَيه تقريباً. أخيراً، قرر النظرَ إلى الأمام، والثقةَ بقدرته على إيجاد العوارض فطرياً؛ فالمسافة بين عارضة وأخرى مماثلة. وقد وجد أن باستطاعته العثور على موطئ لقدمه إذا لم ينظر.

كان من حين لآخر يُلقي نظرة سريعة إلى الوراء من فوق كتفه، فيرى الخيالين الظلّيين لفرجينيا وماتي إزاء الأسطوانة الحمراء للشمس الغاربة التي تتبعهم. إنهما يتدبّران أمرهما تماماً كما يبدو. لا يستطيع القيام بأي شيء لهما، فكّر في سره. فكل منهم في عالمه الخاص في هذه الرحلة الطويلة فوق الوادي.

فجأة، سمع صوتاً وراءه فتوقف، وألقى نظرة سريعة من فوق كتفه، فوجد فرجينيا ممدَّدة على السكة الحديدية، وقد بدت مُرهَقة. رفعت رأسها وحدّقت به بعينَين مُتعَبتَين وتمتمت: «آسفة، لقد تعثّرتُ».

قال شارلوك بيأس: «لا يمكنني العودة لمد يد المساعدة لك؛ إذ لا يمكنني الاستدارة من دون أن أعرض نفسي لخطر السقوط، وإذا انحنيتُ لمساعدتك فقد أقع!».

قالت بهدوء: «أعلم... أعلم».

ومن ورائها، نادى ماتي: «فرجينيا، عليك النهوض!».

«أوه، أجل، شكراً». وتمتمت دافعةً نفسها إلى الأعلى: «ما كنت لِأفكر في ذلك أبداً!».

تابعوا السير مجدداً، الواحد تِلوَ الآخر. لقد بدا الوقت كما لو أنه يضمحلّ مع كل ثانية ودقيقة تمضي؛ لدرجة عدم إدراك شارلوك وجودَ أرض صلبة بين سكّتَي الحديد إلاّ قبل بلوغه حافة الوادي بمئة ياردة، فقال:

«لِنَسترِح، عشر دقائق فقط».

فأنّ ماتي: «أنا بحاجة إلى النوم».

«يقول شقيقي إنه باستطاعة المرء البقاء مستيقظاً طوال أيام متتالية إذا كان يقوم بأمر هامّ ومثير للاهتمام بما يكفي».

فقال ماتي: «قد يكون السير إلى أقرب بلدة أمراً هامّاً، ولكنه ليس أمراً مثيراً للاهتمام بالتأكيد».

سمح لهما شارلوك بالاستراحة لمدة عشر دقائق فقط، ولكن فترة الاستراحة امتدت ما بين ثلاثين دقيقة وساعة؛ وفقاً لطريقة مرور الوقت المشوشة بالنسبة إليهم. وبعد ذلك، جعلهما يقفان على أقدامهما، وشرعوا بالسير مجدداً. واصوا السير بصمت على امتداد جانب السكّة الحديدية. سمع شارلوك عُواءً يصدر من بعيد، واعتقد للحظة من الزمن أن بالتاسار اكتشف أمر غيابهم وأرسل الفهدَين الأميركيَّين في إثرهم فشعر بالذعر، ولكن فرجينيا قالت بهدوء: «إنها ذئاب البراري».

«ما هو ذئب البراري؟». سأل ماتي الذي كان يسير خلفها.

«إنه يشبه الذئب». أجابت فرجينيا.

«أوه». وصمت قليلاً ثم تابع: «أتساءل عن مَذاقها».

فعلّقت فرجينيا قائلة: «من المُضحك بما يكفي أن يعني العُواء ربما أنها تتساءل عن مَذاقك أيضاً».

ارتفع القمر عالياً في الأُفُق، فبدا القرص الأبيض أكبر حجماً مما هو حاله في إنكلترا؛ كما يذكر شارلوك. أميركا ليست أقرب إلى القمر بالتأكيد؛ فالكرة الأرضية مستديرة بالرغم من كل شيء، ويجب على كل نقطة قائمة على سطحها أن تكون على مسافة مماثلة من القمر. والشرح الوحيد الذي تمكّن من التوصل إليه هو أن ذلك مرتبط بالجوّ؛ خِدعة ما متعلقة بالهواء الساخن؛ مما يجعل القمر يبدو أكبر حجماً.

بعد مدة قصيرة، أدرك شارلوك أن ماتي يكلّم نفسه. فقد افترض سابقاً أنه يكلّم فرجينيا، ولكن ماتي كان يتكلّم من دون أن يلقى جواباً

منها. لقد بدا الأمر كما لو أن ماتي يسمع صوتاً لا يمكن لأحد سماعه. أهو يهذي!؟ ربما نال منه التعَب وقلّة الطعام؛ فقد واجه أسبوعَين مُجهِدَين بالرغم من كل شيء.

وبالرغم من اعتقاده أن ماتي يهذي، لم يجد شارلوك غرابةً في سير السيدة إغلانتين _ مدبّرة منزل عمّه وزجته _ بجانبه في إحدى مراحل الرحلة. لم تقل له أي شيء، بل نظرت إليه فحسب بعينَين مستهجنتَين، زامّةً فمها على صورة بُرعُم صغير، وهازّةً رأسها من جانب إلى آخر. لم يعرف متى ظهرت ومتى اختفت. كل ما عرفه هو وجودها هناك في جزء صغير من الرحلة؛ كرفيقة صامتة تسير بجانبه. هذا غريب، فكر في سره. فمن بين كل الأشخاص الذين يمكن أن يتخيّلهم سائرين بجانبه، لماذا تخيلها هي؟ لماذا لم يرَ مايكروفت، أو أميوس غروي؟ وإذا كان مشوَّش العقل، فلماذا لم يرَ أياً من الأشخاص الذين كان مسؤولاً عن وفاتهم أو آذاهم؛ كالسيد سورد، أو غيلفيلان، أو إيف، أو غريفنز؟ حتى إن أفلاطون أيضاً كان يمكن أن يكون رفيق سفر أفضل من السيدة إغلانتين.

لو رأت فرجينيا أي شخص غير موجود فعلاً لَما قالت أي شيء عن الأمر حينها أو في وقت لاحق.

تحت ضوء القمر، كان شارلوك يرى من حين لآخر الخيال الظِّلي لهُري أو منزل مزرعة في الأُفُق. فكّر في الخروج عن طريقهم والتوقف لطلب المساعدة، أو الطعام والشراب على الأقل، ولكن أمراً ما جعله يواصل السير على امتداد خط سكة الحديد. قد تتطلب الشروحات وقتاً، وقد تُعرضهم للمزيد من المتاعب. وعلاوةً على ذلك، إن الأمر الوحيد الذي يحتاجون إليه هو مكتب تلغراف، ولا يمكن العثور عليه إلا في محطة قطارات في بلدة ما.

بعد قليل، تحولت الأهراءات ومنازل المزارع المبعثَرة إلى مجموعة صغيرة من المنازل المبعثَرة. كانوا في ضواحي مكان ما، ولو حالفهم الحظ، فسيكونون قد وصلوا إلى البلدة. لم يتذكر شارلوك مرور القطار عبر أية مجموعات مبانٍ كبيرة أخرى بعد مغادرته المحطة في بِرسِفِرنس، ولكنه لم يكن ينظر عبر النافذة طوال الوقت؛ إذ كانت هناك أمور أخرى تشتت انتباهه حينها. ربما ستكون بلدة أخرى لا وجود لمكتب تلغراف فيها، وفي هذه الحالة سيتوقفون لفترة وجيزة فقط. وربما سيتمكنون من استئجار عربة خيل لتقلهم إلى بِرسِفِرنس.

انتشر في الأُفُق لون ورديّ أثناء سيرهم؛ كانت الشمس تُشرق. هل

ساروا طوال الليل حقاً؟! استناداً إلى تيبّس عضلاته وجفاف حَلْقه، اشتبه شارلوك بذلك.

أم إنّ هذا مجرد هذيان آخر على غرار هذيانه بالسيدة إغلانتين؟!

بعد ساعات من السير في خط مستقيم عبر المنظر الطبيعي، انعطفت سكة الحديد في اتجاه وسط البلدة. وأخيراً، رأوا أمامهم مجموعة مبانٍ متعنقِدة تَذكّر شارلوك أنه رآها عندما نزلوا ثلاثتهم من متن القطار لفترة وجيزة؛ المحطة وحجيرات المراحيض الخارجية. لقد وصلوا خلافاً لما كان مرجحاً... لقد وصلوا فعلاً.

كان هناك قطار متوقف عند التحويلات بجانب المحطة. إنه أقصر مما كان عليه في اليوم السابق_ كما يتذكر شارلوك_ كما أنه خالٍ ومُظلم.

لم يروا أحداً في الأرجاء عندما ترنّحوا على منصة المحطة المرتفعة. حتى إن مكتب التلغراف كان مُقفَلاً؛ فقرع شارلوك الباب تحسّباً لوجود شخص ما نائم في الداخل، ولكن أحداً لم يُجب. سكان البلدة بأكملها نائمون كما يبدو؛ بالرغم من ضوء النهار المنتشر في السماء الزرقاء.

«هيا بنا». قال وعلقت الكلمات في حَلْقه الجاف. «لِنعثرْ على فندق، ولْنحصلْ على شيء ما نأكله. لن يفتح مكتب التلغراف على الأرجح حتى وقت لاحق».

فقال ماتي بصوت متهدّج: «طعام، نوم... وأخيراً».

أما فرجينيا فأومأت برأسها فحسب. كان وجهها أبيض بلون الطبشور_ النَّمَش بارز كبُقع حبر_ وبدت كما لو أنها بلغت أقصى طاقتها على الاحتمال.

كان الفندق في الجانب الآخر من الشارع الترابي الجاف الذي تغطيه آثار عَجَلات عربات الخَيل التي لا تُحصى ولا تُعَدّ. ووجد شارلوك_ بطريقة غريبة_ أن عبور الشارع أصعب من عبور الأرض المُعشَوشِبة.

لم يكن البابان الدوّاران مُقفلَين، فشعر أن هذا هو الحظ السعيد الذي يحظون به منذ مدة.

أمام طاولة في وسط الغرفة الرئيسة المفتوحة، كان أميوس غروي واقفاً وهو ينظر إلى خارطة مفرودة أمامه.

رفع نظره بسرعة عندما سمع ثلاثتهم يدخلون، وارتسمت على وجهه مشاعر مختلفة عديدة في غضون ثانية من الزمن؛ لدرجة شعور شارلوك بأنه ينظر إلى عدة رجال مختلفين في الوقت نفسه.

ركضت فرجينيا نحو والدها، وألقت بذراعَيها حوله، فيما غاص ماتي

فحسب على أحد الكراسي وأغمض عينَيه.

قال شارلوك: «لقد اقتفيتَ أثرنا». لم يتمكن من سماع أي انفعال في صوته. ربما نضب منه كل الانفعال بسبب سيره طوال الليل؛ فقد كان يشعر بالإرهاق ليس إلا.

«تحدّثتُ إلى فتيان الصحف». قال غروي. وكان من الواضح أنه يبذل قُصارى جهده للمحافظة على مستوى صوته. «قليلة هي الأحداث التي تجري في المدينة من دون أن يعرفوا بأمرها، ولكن بقيّة السكان يتجاهلونهم. أخبروني عن قيام أحدهم بملاحقتك، وتمكنك من عكس العملية. بالمناسبة، إنها خِدعة متقَنة بواسطة القلنسوة والسترة والصحف. رآك أحدهم في النُّزُل، ورآكما آخر في المحطة. لقد تمكنتُ بمفردي من جمع أجزاء ما حدث». وأخذ نفَساً عميقاً مرتعداً وتابع: «أعتقد أنني أستطيع اكتشاف ما حملكم من هناك إلى هنا. وإذا وجدتُ أنك قمتَ بالأمر متعمداً يا بُنَي، فسأضعك على متن أول سفينة عائدة إلى إنكلترا وأحرص على ألا نتواجد معاً على القارّة نفسها مجدداً؛ ولكنني أعتقد أن ما حدث هو سلسلة من الأحداث الصغيرة التي انتهت بابتعادكما عن مكان وجودي حيث يمكنني تقديم المساعدة».

قال شارلوك: «هذا هو واقع الحال. لم يكن الأمر متعمَّداً البتة».

«صحيح». قالت فرجينيا بصوت كتَمه صدر والدها. «كنا نتبع الرجال الذين يُمسكون بماتي، وشرع القطار بالتحرك قبل أن نتمكن من الترجل منه».

«ولكنهما أنقذاني بالفعل». أضاف ماتي بعينَين مُغمضتَين.

«لقد قاما بذلك حقاً». أقرّ غروي، وألقى نظرة سريعة على ثلاثتهم. «أعتقد أنكم بحاجة إلى الطعام والشراب والراحة، ولكنني أعتقد أيضاً أنني بحاجة إلى معرفة ما حدث لكم أثناء تناولكم الطعام والشراب». وأدار رأسه في اتجاه مؤخّر الغرفة حيث يؤدي المدخل إلى الخارج. «يا سيدة ديموك، أربعة أطباق فطور مع ما تتمكنين من تحضيره من عصير البرتقال والقهوة». وألقى نظرة سريعة على شارلوك وماتي ثم صاح: «اجعليها ثمانية أطباق فطور، لدينا أشخاص جائعون هنا!».

كانت الساعة التالية مشوَّشة. فقد وصل الطعام أثناء قيام الثلاثة بإطلاع أميوس غروي على كل ما جرى معهم، وانتهى بهم الأمر متحدّثين أثناء حشوهم أفواههم باللحم، والبطاطا المقلية، والبيض من الأنواع كافة، والعصير.

«إنه يخطط لاجتياح كندا». قال شارلوك لغروي عندما وصلا إلى النهاية. «لديه جيش، ويخطط لإنشاء بلد جديد داخل كندا، والإعلان عن التحالف الجديد للولايات».

قال غروي وهو يومئ برأسه: «الأمر مطابق لما سبق لوكالة بينكرتون أن اكتشفته. إذ إن ديوك بالتاسار يخضع لمراقبتها منذ مدة. وواقع استغلاله جون ويلكس بوث كرئيس صُوَري لمنح العزم لجنوده، وبعض الشرعية لأمّته الجديدة تحت أنظار الولايات الجنوبية كان خبراً جديداً بالنسبة إليها، ولكنه يفسّر ما كان ينتظره».

سأل شارلوك: «إذاً، ماذا سيفعلون حيال الأمر؟ إذ لا يمكنهم السماح له بتنفيذ مخططه بالتأكيد. فسيسمم ذلك العلاقات بين أميركا وإنكلترا طوال أجيال».

هز غروي رأسه الضخم وزمجر قائلاً: «لديهم خطة. لا يمكنني القول إنني أرجو الكثير منها، ولكن وزير الحرب ستانتون وقّعها شخصياً، وهذا كل ما يمكنني قوله».

«هل سيهاجمون؟». سأل ماتي بفم مليء بالبطاطا المقلية.

فأجاب غروي: «تم تحضير الجيش للحرب، وهم يشكلون طَوقاً في مكان ما بين هنا والحدود. ولكن هناك أمراً آخر يجري على قدَم وساق. إذ تريد الحكومة حلّ هذه المسألة من دون الانخراط في قتال مباشَر إذا أمكن». وتنهّد، ثم أشاح بنظره نحو الباب الأمامي للفندق. «لفتت وزيرَ الحرب ستانتون فكرةُ استخدام مناطيد الاستطلاع أثناء الحرب بين الولايات، وهو يعتقد أن المناطيد هي مستقبل الحرب. لذا، أمر وحدة مهندسي الجيش بنشر كل ما يملكونه من مناطيد تعمل بالهواء الساخن. وهو يعتزم جعل المناطيد تحلق فوق معسكر بالتاسار في المساء، ورمي المتفجرات عليهم».

فقال شارلوك مروّعاً: «ولكن هذا الأمر سيتسبب بمجزرة! أعرف أن هؤلاء الرجال على وشك اجتياح بلد آخر، ولكن رمي قنابل عليهم... أمر قاسٍ. ألا يمكنه على الأقل منحهم الفرصة للاستسلام؟».

فهز غروي رأسه قائلاً: «لا تسير الأمور على هذا النحو. إذ يريد وزير الحرب ستانتون توجيه رسالة؛ فهو يريد أن يعرف الجميع أن الحرب قد انتهت وفاز الاتحاد، وأن أية محاولة لإعادة إحياء آمال التحالف ستقابَل بقوة ساحقة».

«ولكن مئات، وربما آلاف الرجال سيُقتَلون!». اعترض شارلوك. «حتى

إنهم لن يموتوا في ساحة معركة يمكنهم فيها الدفاع عن أنفسهم، بل سيموتون عندما تُمطر النيران عليهم من الأعلى! الأمر خاطئ تماماً».

قال غروي بهدوء: «ربما يكون خاطئاً، ولكنه سيجري بهذه الطريقة. أهلاً بك إلى العالم الذي يدعوه الألمان السياسة الواقعية يا شارلوك».

الفصل السادس عشر

كانت أحلام شارلوك ملأى بالنار المتساقطة من السماء، وزعيقِ أشكالٍ بشرية مسودّة ونحيلة كالعصا تركض في الأرجاء باضطراب عام. استيقظ بعد أن نام ساعات قليلة، وكان لا يزال مُتعَباً ولكنه عاجز عن النوم مجدداً.

كانت غرفة النوم إحدى الغرف الاحتياطية الثلاث التي تدبّرها لهم مدير الفندق ليناموا فيها. وكان قد سبق لشارلوك أن تساءل عما إذا كان القطار الفارغ في المحطة يعني امتلاء الفندق بالمسافرين، ولكن القطار في الواقع كان قد استُؤجر من قِبَل أميوس غروي ومجموعة صغيرة من عملاء وكالة بينكرتون الذين يراقبون الوضع.

أثناء استلقائه على السرير، واصل عقله التفكير في ما سيحدث في غضون ساعات قليلة. فهو لم يكن يعتقد أن الرجال في جيش بالتاسار أشرار بالضرورة؛ ولكن لديهم فكرة مختلفة عن الطريقة التي يريدون أن يُحكَموا فيها. فلا جدل في أن اجتياح بلد آخر أمر خاطئ، ولكنْ هل يعني ذلك أنهم يستحقون أن يتم القضاء عليهم كالنمل؟

ربما كان مايكروفت سيعثر على طريقة لإيقاف هذه العملية لو كان موجوداً. وشارلوك واثق من ذلك؛ فرغم أن مايكروفت سِنُّ دولاب في ماكينة الحكومة البريطانية بالطبع، إلاّ أن لديه معتقدات وأخلاقيات وقناعات؛ وهي المعتقدات والأخلاقيات والقناعات نفسها التي تشرّبها وشارلوك من والدهما، الرائد سيغر هولمز التابع لتنانين الملك. فكلاهما ابنا سيغر، وقد ورثا قِيَمه كما ورثا عينَيه الزرقاوَين.

عليه القيام بشيء ما. ولكن، ما هو؟ ماذا يمكنه أن يفعل لإيقاف وحدة مهندسي الجيش؟

ربما يمكنه إرسال برقية إلى مايكروفت في إنكلترا. لم يكن يعرف كم ستكون الكلفة؛ بالرغم من اشتباهه بأنها ستكون باهظة، ولكنه لا يزال يملك بعض المال المتبقّي. باستطاعة مايكروفت الاتصال بالسفير الأميركي، أو القيام بأمر ما، وإيقاف العملية.

هل يستطيع ذلك؟ أو هل سيرغب في ذلك؟ والأهم من ذلك كله، هل يملك مايكروفت الوقت الكافي لحل المشكلة؟ فهو بالرغم من كل شيء على بُعد عدة آلاف من الأميال، وربما يكون رؤساؤه في وزارة الخارجية مهتمّين بمنع اجتياح أرض بريطانية أكثر من إنقاذ حياة رجال لم يلتقوههم مطلقاً.

كان شارلوك يعلم أنه بحاجة إلى الذهاب هناك؛ لرؤية جيش بالتاسار وقوة مناطيد وحدة مهندسي الجيش. قد لا يتمكن من القيام بأي شيء، ولكنه لن يتمكن بالتأكيد من البقاء هنا في الفندق. فهناك، في الأراضي المُعشَوشِبة، قد يخطر بباله أمر ما.

ولكن، كيف بإمكانه أن يصل إلى هناك؟

باستطاعته استئجار حصان من البلدة؛ وفقاً لتقديره. وباستطاعته التوجه إلى حيث سيتم إطلاق المناطيد. فقد سبق له أن رأى الموقع المُشار إليه على الخارطة التي كان أميوس غروي يطالعها منذ ساعات قليلة. لم يتعمّد حفظ المكان، ولكن على غرار العديد من الأشياء التي يراها، استقرّت الصورة في عقله.

هل يُفترض به اصطحاب فرجينيا وماتي معه؟ سيكون حضورهما مواسياً، ولكنه شعر بأنها معركته وحده. فهما لا يُباليان بالأمر بقدره، ولا يحق له أن يُقحمهما في ذلك.

عندها، نهض شارلوك وارتدى الملابس الجديدة التي كان أميوس غروي قد تمكن من العثور عليها في مكان ما في البلدة. لقد أثارت لديه رغبة في الحك، ولكن مجرد التفكير في ارتداء الملابس نفسها التي كان يرتديها في اليومَين الماضيَين ملأه خوفاً.

كان غروي في غرفة الطعام يتحدث إلى رجلَين آخرَين يرتديان بذلتين رسميتين، ويحملان مسدسين في قرابين معلقين بحزامين منخفضين عند خصرَيهما. افترض شارلوك أنهما من وكالة بينكرتون، واستغل فرصة شرودهم وانسلّ بجانبهم، وتوجّه إلى الهواء الطَّلْق.

كانت المماشي الخشبية على امتداد جانبَي الشارع مليئة بأشخاص يجوبون المكان ذهاباً وإياباً، أو يقفون متحدثين فحسب. سار شارلوك مع دَفق الناس إلى أن رأى شيئاً ما أشبه بالإسطبلات فدخل.

«هل يمكنني مساعدتك يا بُنَي؟». نظر شارلوك حوله، فرأى رجلاً مُسِنّاً يخرج من الظُّلمة. كان أصلع؛ باستثناء بعض الشعر الأبيض في مؤخّر رأسه، ولديه شاربان أبيضان كثَّان.

«أنا بحاجة إلى حصان ليوم واحد فقط». قال شارلوك.

قال الرجل: «الأمر ملائم. لديّ حصان لم يذهب في أية رحلة منذ مدة. لدينا مطابَقة تامّة كما يبدو».

«كم الكلفة؟». سأل شارلوك.

«لنسمِّها وَديعة بقيمة عشرة دولارات، وستستعيد تسعة دولارات عندما

تعود».

مرّر له شارلوك المال، فاصطحبه الرجل إلى إسطبل حيث تقف فرس بنّية اللون بصبر. نظرت إليه الفرس بطريقة ظنّيّة أثناء قيام الرجل المُسِنّ بوضع السرج على ظهرها.

ألقى شارلوك نظرة سريعة على الإسطبلات. فبالإضافة إلى العدّة العامة_ السروج، الأرسان، الرِكابات _ المدلّاة من عَقيفات، كان هناك أيضاً حِملٌ كاملٌ من الأغراض التي لم يعرف شارلوك ماهيّتها. لقد بدت كما لو أنها أسلحة_ أقواس، ورِماح، وفؤوس_ ولكنها مزيَّنة بريش وأسيار جِلدية.

«إنها تذكارات المعارك التي خضناها مع السكان الأصليين على مَرّ السنين». قال الرجل ملاحظاً نظرة شارلوك. «تسببت لنا قبيلتا بامونكي وماتابوني بقدر كبير من المتاعب أثناء بناء هذه البلدة. فقد كان أفرادهما يجمعون فروات رؤوسنا؛ لذا جمع جدّي ووالدي فؤوسهم، ورماحهم، وسكاكينهم، وأقواسهم».

فكّر شارلوك في المكان الذي سيتوجه إليه؛ حيث يوجد جيش عدائيّ، وقوة مهاجمة، وبرّيّة مليئة بذئاب البراري المباغِتة. لم يشأ اصطحاب مسدس معه، وكان على ثقة تامة بأن أحداً لن يعطيه مسدساً، ولكن قد يكون حمل سلاح من نوع ما أمراً جيداً. «هل يمكنني اقتراض قوس، وجعبة سهام، وسكين لِقاء دولار إضافي؟».

«لا». قال الرجل، وأمال رأسه إلى جانب واحد ثم تابع: «ولكنّ خمسة دولارات قد تَفي بالغرض».

بعد عشر دقائق، كان شارلوك يغادر الإسطبلات على صهوة الفرس مع سكين في حزامه، وجعبة مليئة بالسِّهام على ظهره، وقوس مربوطة إلى سرجه. لقد اعتقد أنه رأى ماتي وفرجينيا خارج الفندق أثناء مروره به، ولكنه مرّ بسرعة كبيرة ولم يشأ التوقف.

متذكراً خارطة أميوس غروي، توجّه شارلوك إلى الريف؛ نحو ما يشكل زاوية مع خط القطار. وكان المنظر الطبيعي الذي يتوجه إليه يتلألأ أكثر مما هو الحال في السهول التي أُنشئ خط القطار عبرها. وخبّت الفرس على امتداد حافة التلال المنبثقة من الأراضي المُعشَوشِبة في سلسلة من القمم المنخفضة والمستديرة.

وبعد ساعة من السير وسط منظر طبيعي مكوَّن من خمائل وأَيْكات صغيرة، عبَر ساقية واسعة وضَحْلة تتدفّق فيها المياه من أعالي التلال كشريط أزرق متلألئ. ومع إحداث حوافر الفرس رذاذاً متطايراً، وركْلها

الحصى الصغيرة، تساءل شارلوك عما إذا كانت المياه في اتجاه مجرى النهر قد تمكنت من شقّ طريقها عبر الصخر لتشكّل الوادي العميق الضيّق الذي كان قد عبره مع ماتي وفرجينيا في الليلة السابقة. فالأرض في أميركا مختلفة جداً عما هي عليه في إنكلترا؛ فهي حديثة الاكتشاف ولا تزال على طبيعتها.

كان قد أخذ قربة ماء جِلدية من الإسطبلات قبل أن يغادر، لذا توقف لفترة وجيزة لإعادة ملئها والسماح لفرسه بشرب كفايتها من الماء.

وفقاً لمكان الشمس في السماء، كان الوقت في منتصف فترة بعد الظهر. ووفقاً للخارطة الموجودة في ذِهنه، كان يقترب من المكان الذي نصبت فيه وحدة مهندسي الجيش معسكرها. هناك حرّاس بالتأكيد، ولم يشأ مصادفة أيٍّ منهم. من المحتمَل أن يُطلقوا النار أولاً ويطرحوا الأسئلة بعد ذلك.

لذا، بدلاً من مواصلة السير بمحاذاة أطراف التلال السفحية، أدار شارلوك رأس حصانه وتوجّه إلى داخل التلال. فلو كان مُحِقاً، وإذا كان حيث يعتقد أنه موجود، فسيحظى بمطلٍّ جيد على المعسكر من مكان ما في الأعلى.

لقد استغرق ساعتَين إضافيتَين لتسلّق منحدرات قليلة العمق وعبور رِقَع صخرية، قبل أن تنعطف فرسه حول حافة سفح تلة أكثر ارتفاعاً. ووجد شارلوك نفسه يحدّق إلى الأسفل، إلى ما جاء بحثاً عنه.

تاركاً فرسه بمنأى عن الأنظار، زحف إلى الأمام متنقّلاً على يدَيه وركبتَيه، حتى تمكن من الاستلقاء في ملاذ صخرة كبيرة والتحديق بالسهل تحته.

كانت الشمس تغوص في اتجاه الأُفُق، والمشهد مُضاء جزئياً بأشعتها الحمراء، وبنيران المخيَّم الموزعة في الأرجاء. وبواسطة هذا الضوء، تمكن من رؤية معسكر وحدة مهندسي الجيش منتشراً تحته: سلسلة من الخِيَم المجموعة في الوسط، والمُحاطة بأرض خالية من العقبات. كان هناك مئة رجل ربما يتنقلون عَمداً جيئةً وذهاباً. وفي أحد جوانب المعسكر، زُربت الجياد معاً داخل إسطبل مرتجَل. وفي الجانب الآخر، انتشرت المناطيد.

شهق شارلوك لدى رؤيته المشهد الممتد تحت ناظريه. فهناك ربما عشرة مناطيد أو اثنَا عشر منطاداً موزَّعة في منطقة بحجم ملعب رُكْبي، ويبدو بعضها نسخاتٍ ضخمة عن قنديل البحر الفضفاض الذي يذكر شارلوك أنه رآه في الرحلات التي كان يقوم بها إلى الشاطئ عندما كان

أصغر سنّاً، في حين أن بعضها الآخر يومض تحت ضوء الشمس المتناقص. وكانت السلال في الأسفل مثبتة إلى الأرض بواسطة حبال وأربطة عريضة مصنوعة من المادة نفسها؛ حرير مطليّ بالوِرنيش_ وفقاً لما تذكّره شارلوك من لقائه الأول مع غراف فون زيبلين على متن أس أس سكوتيا_ وكانت المناطيد تُملأ بالهواء بواسطة أنابيب ممدودة من عربات خَيل مُحمَّلة بخزانات من الرصاص تومض تحت أشعة الشمس. الخزانات تُنتج الهيدروجين_ كما تذكّر شارلوك_ من مزيج مكوَّن من حَمض الكبريت وبُرادة الحديد.

مفكراً في غراف فون زيبلين، أمعن شارلوك النظر إلى المعسكر بَحثاً عن شكله البشري الألماني منتصب القامة. لقد جاء إلى أميركا للتحدث عن التطبيقات العسكرية للمناطيد. من غير الطبيعي ألا يكون هنا.

كانت الأشكال البشرية المتنقلة في الأرجاء صغيرة جداً، ولم يتمكن شارلوك من تمييز الوجوه، ولكنه اعتقد أنه رأى رجلاً ملتحياً يرتدي بِذلة رسمية مختلفة عما يرتديه بقية الأشخاص الواقفين قرب المناطيد، والذين يراقبون ملأها بالغاز بشغف.

لقد أُبقيت نيران المخيَّم بعيدة عن المناطيد كما لاحظ شارلوك. إنها فكرة جيدة؛ فالهيدروجين سريع الاشتعال، كما تذكّر من الدروس التي تلقاها في المدرسة. ومن جهة ثانية، كانت مئات الكرات المعدنية الشبيهة بالقنابل_ وهي بالتأكيد أجهزة متفجرة_ مكدَّسة قربها. وفي غضون ساعة واحدة أو ساعتَين، إذا كانت الريح لا تزال في الاتجاه الصحيح، ستُطلَق المناطيد؛ كلٌّ مع ملّاحها، وستطير بصمت فوق المنظر الطبيعي الموحِش باتجاه المكان الذي يعسكر فيه جيش ديوك بالتاسار. وعندئذٍ، سيحلّ الموت والدمار بمستوى جعل شارلوك يشعر بالغثيان.

يتعيّن عليه إيقاف الأمر. عليه القيام بذلك. لقد سبق له أن رأى قدراً كبيراً من الموت في حياته. وإذا تمكن من الحؤول دون موت المزيد من الناس فلن يتراجع.

الهيدروجين شديد الاشتعال. لذا، السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: كيف سيقوم بأي شيء حيال ذلك؟ فإذا حاول التسلل وإشعال النار في المناطيد، فسيُلقى القبض عليه ويُعدَم على الأرجح رَمياً بالرصاص بتهمة العمل كجاسوس لصالح للتحالف. كما أن هناك حراساً حول المناطيد.

ولكن، لا يوجد حراس حول نيران المخيّم في الجانب الآخر من المعسكر. ومن حيث يستلقي، لاحظ وجود مصابيح زيت أمام معظم الخِيَم،

مدلّاةً من أعمدة مثبَّتة بالأرض.

وتسارعت الأفكار في عقله عندما شرع برؤية صِلات بين الأشياء التي اعتبرها من قَبل منفصلة. فالحل هناك... أمامه. لديه بعض الأشياء التي يحتاج إليها هنا، أما ما تبقى ففي الأسفل، في المعسكر.

وكلما أسرع في البدء، تمكن من الانتهاء بسرعة.

لقد حرص على أن يكون طرف رَسَن فرسه آمناً تحت الصخرة، ثم شرع بالنزول إلى السهل ببطء. كانت هناك أشعة ضعيفة تتسلل من الشمس في الأُفُق، وكانت الظلال التي تُلقيها الصخور المتفرقة طويلة وسوداء. وجد شارلوك أن باستطاعته ملازمتها بفعالية، وهكذا لن يركض عبر أرض مفتوحة إلا عندما يجد نفسه مضطراً للقيام بذلك.

عندما وصل إلى السهل، كانت الشمس قد تلاشت في الأُفُق، وبدت السماء بلون كَدمةٍ حديثة العهد. كانت معظم المناطيد قد مُلئت بالغاز تماماً، وحولها نشاط متزايد.

ابتعد شارلوك عن المناطيد في اتجاه نيران المخيَّم. وكان معظم مهندسي الجيش في المعسكر موجودين قرب المناطيد، وواقفين في الجانب الآخر من الطوق الأمني الذي فرضه الحرَس، وهم يراقبون وينتظرون عملية الإطلاق. زحف شارلوك بين الخِيَم حتى أصبح في مكان مُشرِف على نيران المخيَّم. كان اللحم يُطبَخ، واليَخنات تغلي بهدوء، ولا أحد ينظر في اتجاهه. جال بنظره في المكان حوله، ثم قوّم وقفته، ونفض التراب عن ملابسه، وتوجّه نحو خيمة خالية، وأنزل مصباح الزيت عن العمود في الخارج. وبعد ذلك، أخذ مصباحاً ثانياً عن عمود في الجوار؛ ليس من الخيمة المجاورة_ إذ ربما يلاحَظ الأمر إن فعل ذلك_ ولكن من خيمة على مَقرُبة منه. لم يصرخ أحد لإيقافه، أو يسأله عما يفعله. كان قلبه يخفق بسرعة مضاعَفة، ولكنه أبقى وجهه خالياً من أي انفعال. وعندما استدار ليعود، سار ببطء، مُبقياً المصباحَين منتصبَين ولكن ملفوفَين بسترته كي لا يرى أحد الأنوار وهي تتحرك.

وعندما أصبح بمأمن بعيداً عن الخِيَم، حثّ الخُطى عائداً إلى أسفل التلال، وألقى نظرة سريعة في اتجاه المناطيد أثناء سيره. كانت المناطيد قد مُلئت كلها بالغاز، وتمكّن من رؤية نشاط في المكان مع تحقّق الملّاحين من خرائطهم، وقيامهم باستعداداتهم الأخيرة.

عندها، تسلّق شارلوك التلة بأقصى سرعة ممكنة؛ مُدركاً حمله زيتاً حارّاً وشُعلةً، وإمكانيةَ إشعاله النار بنفسه إذا وقع. كانت الريح تزداد بعد

غروب الشمس، وشعر بالبرد من دون سترته.

أصدرت فرسه صوت صهيل هادئاً ومرحّباً بعودته إلى المنطقة المنبسطة حيث تركها. فوضع المصباحَين أرضاً، وعبر في اتجاهها، ثم التقط القوس وجعبة السهام التي كان قد اقترضها_ حسناً، استأجرها_ من القيّم على الإسطبل.

سيكون بحاجة إلى شيء ما لإبقاء الشعلة موقَدة أثناء انطلاق السهام عبر الهواء.

بِطانة. بِطانة من نوع ما.

نظر حَوله، لاعناً نفسه بسبب عدم التقاطه شيئاً ما من المعسكر؛ كسترة بِذلة رسمية، أو أي شيء آخر. فالأشياء الوحيدة التي لديه هنا في التلال هي ملابسه. لذا، شرع بتمزيق قِطع مستطيلة من قماش سترته وربْطها حول رؤوس السهام. لم يكن يُعدّها لاختراق أي شيء كما يبدو.

وعندما باتت لديه عشرة سهام ملفوفة الرؤوس، سار عائداً إلى حيث ترك مصباحَي الزيت، وحمَلهما إلى مكان وجود السهام. فكّر للحظات، ومن ثم أطفأ شُعلة أحد المصباحَين وفتحه ليتمكن من تغميس الرؤوس الملفوفة في الزيت، الواحد تِلوَ الآخر.

سيكون مصباح واحد مُضاء كافياً. فتحه بانتباه كي لا يعترض الشُّعلة شيء، فارتعشت الشعلة في مَهَبّ النسيم.

تناول القوس ووقف بشكل مستقيم. كان الظلام قد حلّ بما يكفي كي لا يُرى، والشُّعلة في المصباح الآخر تحجبها الصخور.

أمسك وتر القوس وشده بطريقة اختبارية. لقد بدا المبدأ جليّاً. ثلم في أسفل السهم يُشَد إلى الوتر، ويمكنه سحب الوتر إلى الوراء بأصابعه وثَنيه بقدر ما يستطيع، ثم يصوّب عالياً _ لأن السهم يتبع مساراً قذافياً ذاتياً _ وبعد ذلك يُفلت الوتر.

حان وقت الاختبار، حان وقت العمل.

وضع قطعة القماش المستطيلة الملفوفة حول رأس السهم الأول فوق الشُّعلة داخل مصباح الزيت، فالتقطت قطعة القماش المغمَّسة بالزيت النارَ على الفَور. عندها، رفع السهم، وأدخل الوتر في الثّلم، ثم سحب الوتر إلى الوراء مُبقياً يده اليسرى مستقيمة أمامه ومُمسكةً بالقوس. صوّب على المنطاد الذي يوجد حوله عدد أقل من الأشخاص كما يبدو، ولكنه صوّبه فوقه كي يسقط السهم عليه.

شدّ الوتر بأصابع يده اليمنى، وشعر بالقوس ترتجف تحت وطأة

الشدّ، وأحدث القماش المتوهّج بقعة برّاقة في مجال بصره جعلت كل شيء آخر مُبهَماً تقريباً.

هل يقوم بالأمر الصائب؟

لقد فات الأوان على التساؤل في شأن هذا الأمر الآن.

أفلت الوتر، فانطلق السهم عالياً في الهواء في خط متقوِّس؛ بالغاً الذّروة، وبدا معلَّقاً هناك للحظات قبل أن يقع كنَيزك صغير على سطح المنطاد.

لم يحدث شيء لفترة، فيما كان قلب شارلوك يخفق بسرعة. طالت لحظات الانتظار بما يكفي؛ لدرجة اقتناع شارلوك بأن القماش المحترق قد انطفأ من تلقاء ذاته بطريقة ما، أو أن رأس السهم أخفق في اختراق الحرير المَطليّ بالوَرنيش، أو أن الغاز في المنطاد ليس الهيدروجين بل هو شيء آخر غير قابل للاشتعال. ولكن، عندئذٍ بدأ القماش في أعلى المنطاد يتقشّر كبَتلات زهرة، وأُغشي بصر شارلوك بكرة لهَب انطلقت من المنطاد في اتجاه السماء.

ارتفع صياح هائل من منطقة المعسكر. وبدأ الناس يركضون في الأرجاء رامين المياه على النار المشتعلة، ومحاولين إطفاء كل قطعة قماش مشتعلة تنزل على رؤوسهم. ولكن الحريق الهائل كان يرتفع ولا ينخفض؛ فالهيدروجين أخف من الهواء بالرغم من كل شيء.

التقط شارلوك سهماً آخر وأشعله، ومن ثم صوّب بسرعة على منطاد آخر وأطلق السهم. فرسمت الشرارة الصغيرة لرأس السهم المشتعل خطاً متوهجاً في الفضاء داخل الظلام أولاً، ومن ثم على الجانب المنحدر للمنطاد الثاني.

هذه المرة، لم يتمكن من رؤية القماش وهو يتقشّر، بل كانت كرة النار المنبعثة مؤثِّرة بقدر الأولى.

عمّت الفوضى المعسكر في الأسفل، فيما أطلق شارلوك سهماً تِلوَ الآخر على المناطيد المتبقية. وعندما فرغت منه السهام، كان الجوّ مليئاً بالدخان، وانتشرت على الأرض البقايا المشتعلة للحرير المَطليّ بالوَرنيش. لم يُصَب أحد بأذى! لقد أعجبته الفكرة، فهو لم يرَ أي شخص مُصاب. كان الجميع هائجين ومذعورين، أجل، ولكن لم يلحق بهم أي أذى. كان الهيدروجين المشتعل قد ارتفع في الفضاء عالياً وبسهولة، وتمّ تجنّب أية قطعة قماش مشتعلة سقطت على الأرض.

أخذ شارلوك نفساً عميقاً. لن تطير المناطيد الليلة، ويتطلّب الأمر عدة

أيام، وربما أسابيع، لإحضار المزيد من المناطيد إلى المنطقة. وفي غضون ذلك، سيكون جيش بالتاسار إما قد تفرّق، أو تقدّم نحو كندا حيث سيعترضه جيش الاتحاد. لقد نجح.

أراد جزء منه القيام بأمر ما في شأن المتفجرات المكدسة في أحد جوانب المعسكر، والتي سلِمت من أي أذى. وكان شارلوك قد شعر بالقلق من إمكانية سقوط قُصاصات قماش مشتعلة عليها؛ مفجّرةً إيّاها ومتسببة بمجزرة شاملة. ولكن، إما أن يكون إشعال المتفجرات أكثر صعوبة مما اعتقد، أو إنها بعيدة بما يكفي لتجنّب أية شرارة أو أقمشة مشتعلة. وافترض أن باستطاعته العودة إلى الأسفل زَحفاً والقيام بأمر ما لها_ كسحْب فتيلاتها، أو ما شابه_ ولكن، ما الهدف من ذلك؟ لقد باتت عديمة النفع بعد تدمير وسائل نقلها.

انطلقت صيحة من الأسفل، فألقى نظرة سريعة في اتجاه المعسكر. كان هناك رجل يشير إليه. فقد كشف ضوء الهيدروجين عن مكانه. وسرعان ما حدّق به المزيد من الأشخاص، وشرع بعضهم بالركض في اتجاه المنحدَر المؤدي إلى مكان اختبائه، وكان معظمهم يحملون سلاحاً.

آه، كان يحمل القوس.

حان وقت المغادرة.

استدار وركض إلى حيث تنتظره فرسه. كانت الفرس عصبيّة المِزاج، وتثب في مكانها، وكان الرَّسَن موثَقاً إلى لِجامها بإحكام أثناء محاولتها التراجع؛ ولكنها لم تصبح مذعورة بعد. سحب شارلوك طرف الرَّسَن بسرعة من تحت الصخر، ورفع نفسه فوق السّرج.

بقليل من الحظ، يمكنه العودة إلى البلدة والتظاهر بأنه كان هناك طوال الوقت. ولا حاجة ليعرف أحد بما قام به.

أدار رأس الفرس وانطلق بعيداً.

كانت الرحلة إلى أسفل التلال أسهل من الرحلة إلى أعلاها. وقد بدت الفرس واثقة الخُطى وسعيدة بالابتعاد عن النار والدخان.

تمكنت الفرس من رؤية طريقها بسبب ضوء النجوم بعد مغيب الشمس، وتركها شارلوك تختار طريقها الخاص. وعندما وصلا إلى الأراضي المُعشَوشِبة المنبسطة، تمكن من إيجاد مسار إلى البلدة.

وأثناء سير الفرس وسط المنظر الطبيعي للتلال السَّفحية حيث الصخور المبعثَرة، وجد شارلوك أن الهدهدة الخفيفة جعلته يشعر بالرغبة في النوم. وشيئاً فشيئاً تخلص من التوتر وصار كئيباً. لم يكن يتطلّع إلى العودة إلى

بِرسِفِرنس في رحلة طويلة وشاقة.

وبدأت الشكوك تنتابه أثناء تقدّمه. ماذا لو فشل جيش الاتحاد في اعتراض قوة اجتياح التحالف؟ ماذا لو استمر الاجتياح، وكان من السهل حدوثه؟

لا، لقد أخبره أميوس غروي أن قوات الاتحاد مستعدة لإيقاف التحالف إذا تقدّم، ولكن وزير الحرب ذاك، ستانتون، قرر شخصياً ذبح قوات التحالف. ما لم تتخذ الأمور منحى سيّئاً، سيكون ما قام به شارلوك قد أنقذ أرواحاً؛ ولن يؤدي إلى أزمة دبلوماسية.

في مكان ما في الظلام زعق حيوان، فأجفله الصوت. لقد بدا الصوت أشبه بزعيق بشريّ أكثر منه بزعيق ذِئب أو سنّور كبير من نوع ما.

كانت الفرس تسلك طريقاً على امتداد أسفل أُخدود بين منحدَرَين شديدَي الانحدار، فاعتقد شارلوك أنهما قريبان من أسفل التلال السَّفحية، ومستعدّان تقريباً لشق طريقهما عبر الأراضي المُعشَوشِبة المفتوحة في اتجاه البلدة. كانت جوانب الأُخدود مجرد ظلالٍ سوداء، ولم يكن هناك ما ينير دربهما سوى النجوم المُشعّة في السماء، والتي ظهرت أطرافها الخشنة كما لو أنها تشق سماء الليل.

فجأة، تحرّك شيء ما فانتفض شارلوك واعياً، وتبادر إلى ذهنه أن هناك شيئاً ما تحرّك في أعلى الأُخدود جانباً ثم تراجع.

هناك شيء ما في الأعلى... شيء ما يقتفي أثره. مشدود الأعصاب ومرتعشاً، نظر شارلوك حَوله متفحصاً المكان. لا شيء؛ مجرد ظلام وصور مجسَّمة تسبب بها تسرّب ضوء النجوم من عَلُ.

تدحرجت حصاة على المنحدر وقفزت على أرضية الأُخدود، فنظرت فرس شارلوك حَولها مدركة وجود شيء آخر هناك، وانتصبت أُذُناها، فشعر شارلوك بعضلاته ترتعد تحت ساقَيه.

شرع الأُخدود بالاتساع أمامهما، مؤدياً إلى جزء صخريّ منبسط ذي منحدر عَموديّ في الجانب البعيد ممتدّ إلى الأسفل حيث الأراضي المُعشَوشِبة. وانبعث ضوء القمر المنخفض من أحد الجانبَين كضوءٍ كشّاف، فعرف شارلوك موقعهما؛ فبالرغم من ظهور المنحدر العموديّ أمامهما مباشَرةً، كانت هناك درب على منحدر في اتجاه الأراضي المُعشَوشِبة. لقد صعدها على صهوة فرسه في وقت سابق.

بعد قليل، سقطت حصاة أخرى قافزةً من صخرة إلى أخرى، فسارت فرس شارلوك على جانب الدرب، وزادت سرعتها. فقد أرادت الخروج إلى

السهوب برغبة أقوى من رغبة شارلوك.

فجأة، زعق شيء ما فوق رأس شارلوك، وقفز عليهما من الظُّلمة.

الفصل السابع عشر

قفزت الفرس جانباً من هول الصدمة منقذة كلَيهما. أيّاً يكن الشيء الذي وثب، فقد مرّ أمامهما واصطدم بالأرض فاقداً توازنه ومتعثّراً. غير أنه سرعان ما أظهر مخالبه بعد أن وقف على الفور على قائمتيه، فتكوّن لدى شارلوك انطباع آنيّ مُربَك عندما رأى عينَين تعكسان ضوء القمر، وأنياباً مستدقّة تومض في فم يسيل منه اللُّعاب.

استلّ السكين من خصره ومدّ يده. لم يكن في ذلك عزاء كبير له، ولكنها كل ما يملك.

عندها، قال صوت من الأعلى أمراً ما بصوت أجشّ وبلغة لم يعرفها شارلوك، فتراجع الحيوان نحو مصدر الصوت مهسهساً في وجه شارلوك والفرس.

لقد عرفه؛ إنه أحد فهدَي ديوك بالتاسار الأميركيَّين. مما يعني أن الآخر موجود هناك أيضاً في مكان ما ربما، وكذلك ديوك بالتاسار.

شُلّت حركة فرسه بسبب الصدمة، وصارت عيناها جاحظتين وشفتاها متراجعتين فوق أسنان ظاهرة. لن تتحرك إلى أي مكان؛ ليس بوجود الفهدَين الأميركيَّين في الجوار. انزلق شارلوك عن السَرج، وقلبه يخفق بقوة في صدره. كان مُتعَباً، وجائعاً، وعطشان. لم يشأ حدوث ذلك؛ ليس الآن، وليس هنا.

ولكن، لا خيار آخر لديه كما اعتقد.

لذا، سار إلى الأمام، إلى حيث ضوء القمر عند مدخل الأُخدود الصخري.

كان ديوك بالتاسار واقفاً هناك على بُعد خطوات قليلة، مرتدياً بِذلته البيضاء، ومعتمراً قبّعته البيضاء، وواضعاً قناعه الأبيض المصنوع من البورسلان، ولكنه كان يضع مسدساً على فَخذه. تمكن شارلوك من رؤية العَلَقة الحمراء الكبيرة وراء أُذُنه اليمنى وهي تلمع تحت ضوء القمر؛ إنها بقعة اللون الوحيدة في المشهد برمّته. وبدت كما لو أنها تنبض قليلاً أثناء مراقبة شارلوك إيّاها.

كان البوما الذي قفز في اتجاه شارلوك وفرسه يقف بجانب بالتاسار، خافقاً بذَنَبه باضطراب. ولاحظ شارلوك كيفية إلقائه نظرات سريعة على العَلَقة الحمراء، وهو يبدو عصبيّ المِزاج، لا بل خائفاً أيضاً. ولم يكن البوما الآخر مرئياً.

«شارلوك سكوت هولمز». قال بالتاسار بصوت يكاد لا يكون مسموعاً بسبب الريح. «أخشى أنه مقدَّر لنا الالتقاء باستمرار كأبطال شكسبير سيّئي الطالع».

«ماذا تفعل هنا؟». سأله شارلوك ببساطة.

أجاب بالتاسار: «كنت أبحث عنك. فعندما وجدت أن زواحفي العزيزة لا تزال جائعة، ورَدهة المراقبة مغمورة بالماء، لم يكن بإمكاني سوى افتراض أنك وصديقَيك الشجاعَين فررتم. كنتَ تعرف الكثير، لذا تعيّن عليّ اقتفاء أثرك والتعاطي معك شخصياً. وقد التقط فهداي رائحتك خارج البلدة، فتبعناك إلى هنا، إلى التلال». وصمت قليلاً، مُميلاً رأسه إلى جانب واحد، ثم تابع: «عليّ الإقرار بأنني توقّعت منك دخول البلدة، ولكنك جئت إلى هنا بدلاً من ذلك. لماذا؟».

ففكر شارلوك للحظات. لا بد أن يكون الأمر قد التبس على بالتاسار مع وجود دربَين مختلفتَين؛ تلك التي خلّفها شارلوك وماتي وفرجينيا وراءهم عندما توجّهوا نحو بِرسِفِرنس، والأخرى التي خلّفها شارلوك وفرسه وراءهما عندما خرجا من البلدة. مما يعني أن بالتاسار لا يعرف بعد أنه قد تم افتضاح أمر خططه. هل يُفترض بشارلوك أن يخبره؟

لو كان بالتاسار يعرف أن الأوان قد فات، وأنه قد تم اكتشاف أمر جيشه، لَما كان يملك أي سبب لقتل شارلوك. نظرياً، على الأقل.

أجابه شارلوك: «يعرف جيش الاتحاد بأمر اجتياح كندا. لذا، لا فائدة من متابعة ما تقوم به. أَلغِ كل ما تخطط للقيام به يا بالتاسار، وعندها ستتمكن من إنقاذ أرواح كثيرة».

ساد الصمت أثناء تفكير بالتاسار مليّاً في ما قاله شارلوك. ولكن، لم يكن من الممكن معرفة ما يفكر فيه وراء القناع الأبيض.

«منذ متى يعرفون ذلك؟». سأل أخيراً.

«منذ مدة طويلة؛ أي بما يكفي لعدم وجود أية فرصة لدى جيشك بالوصول إلى الحدود».

«في هذه الحالة، ماذا تفعل هنا؟». سأل بالتاسار.

«كان الاتحاديون يستعدون لرمي متفجرات على رجالك. ولكنني لم أستطع السماح بحدوث ذلك، وقد تعيّن عليّ إيقافهم».

«أفترض أن ذلك يعود إلى شكل من أشكال النُبل المُضَلّلة، وليس إلى توافق مع أسلوب حياة التحالف، أليس كذلك؟».

فأجاب شارلوك بسأم: «لا أريد أن يلاقي المزيد من الناس حتفهم

فحسب».

عندها، هزّ بالتاسار رأسه وسأله: «هل تتوقع مني أن أكون ممتنّاً؟». وظهرت فجأةً نبرة غضب واضحة في صوته.

شعر شارلوك بالتَّعَب يُثقل كاهله؛ كما لو أنه صَنجة من رصاص فقال: «لا أتوقع منك أي شيء. فأنا لم أفعل ذلك لأجلك، أو لأجل أي شخص آخر، بل فعلته لأجلي؛ لأجل معتقداتي ومبادئي».

«إذاً، لقد هدرتَ وقتك سدى». قال بالتاسار بغضب وتابع: «فالاجتياح سيستمر بالرغم من كل ما قلته لي».

«إذاً، ستتم محاصرة رجالك. وإذا اختاروا القتال فستكون هناك معركة».

زمجر بالتاسار: «الناس سيموتون بأية حال. إذاً، لقد أخفقتَ».

أجاب شارلوك: «لا أستطيع التحكم بالعالم، بل بالقليل الذي يمكنني القيام به. وعلى الأقل، لقد قمتُ بما أستطيع القيام به لإيقاف مجزرة. أما ما تبقّى فعائد إليك، وإلى أميوس غروي، وإلى الحكومة».

تكلم بالتاسار بصوت ينمّ عن المرارة، فيما ظلّ قناع البورسلان الذي يضعه عديم الانفعال ومتوهّجاً تحت ضوء القمر: «مشكلتك هي أنك تسمح لمشاعرك بالوقوف في طريق المنطق. وإذا كانت لديّ أية نصيحة لأقدّمها لك فهي أن تكبت مشاعرك وتسيطر عليها؛ إذ لن يتأتى منها سوى الضلال والأذية».

وعادت إلى ذِهن شارلوك ذِكريات عن والدته وشقيقته، ذِكريات ملوَّنة بالانفعالات، وتلك الانفعالات تؤلم. ولكن، ظهرت بالمقابل ذِكريات عن فرجينيا أيضاً، وتلك الذِّكريات لا تؤلم. فقد أسعدَته.

أجاب شارلوك: «أقدّر نصيحتك، ولكنني أعتقد أنني سأتمسّك بمشاعري، إذا لم يكن لديك مانع. فأنا أحبها سواء أكانت للأفضل أو للأسوأ».

«كنت أود القول إنك ستعيش وستأسف على ذلك، ولكنك لن تعيش». وطقطق براجمه، فتقدّم البوما الواقف بجانبه في اتجاه شارلوك مكشّراً على أنيابه ومضيِّقاً عينَيه.

فمدّ شارلوك يده أمامه، ولمع ضوء القمر على نَصل السكين. غير أن البوما لم يتردد، بل واصل تقدمه.

وسُمع صوت خطى على الصخر وراءه، فأدار شارلوك رأسه ببطء؛ كان البوما الثاني يقف وراءه.

تسارعت الأفكار في رأسه بحثاً عن احتمالات، ولكن أيّاً منها لم يُفده.

إذ كيف يمكنه مقاتلة حيوانَين بواسطة سكين فقط؟

ولكنهما ليسا برّيَّين، أليس كذلك؟ فهما مروَّضان جزئياً؛ أو على الأقل، إنهما يطيعان بالتاسار. إنهما يخشيانه، وقد منح هذا الأمر شارلوك فرصة.

لقد جعله تسارعُ وقع الخطى وراءه يقع أرضاً ويتدحرج جانبياً، فيما لمع شيء أسود فوق رأسه. عندها، قفز واقفاً على قدمَيه، ولكن الفهدَين الأميركيَّين كانا أسرع. فقد باتا يقفان جَنباً إلى جَنْب مزمجرَين.

باستطاعة السنّوريات تسلّق الأشجار، ولكنها لا تستطيع تسلّق الصخور.

لذا، بأقصى سرعة ممكنة، تسلّق شارلوك الجانب العموديّ للأُخدود، وأصابعه تبحث عن فجوات في الصخر، وقدماه تحاولان العثور على حروف قادرة على تحمّل ثِقل وزنه من دون أن تنهار.

وتحته، كان الفهدان يقفزان.

أطبقت يداه على منطقة منبسطة من الصخر، فرفع نفسه بشكل يائس، في حين أمسك الفهد جزمتَه بواسطة مخالبه وسحبه إلى الوراء. عندها، استجمع شارلوك كل قواه، وسحب نفسه إلى برّ الأمان على حَيد قائم على امتداد جانب الأُخدود؛ متّجهاً إلى الأعلى من جهة، وإلى الأسفل من الجهة الأخرى.

نظر شارلوك إلى الأسفل متحققاً من سلامة قدمَيه. لقد انتزع السنّور الكبير عَقِب جزمته، وعدا عن ذلك لم يُصَب بأي أذى.

في الأسفل، تلاشى بَريق عيون السنّوريين أثناء سلوكهما وجهتَين مختلفتَين، بَحثاً عن طريق للوصول إليه. كانت هذه أرضَهما وليست أرضَه. سيجدان طريقاً بالـتأكيد.

«الأمر مسلٍّ». قال بالتاسار بصوت مرتفع. «أنت تُرجئ المحتوم ليس إلا؛ فليس مسار تحركك منطقياً. استسلم فحسب؛ وسيكون الأمر أكثر سهولة وأقل ألماً».

لهث شارلوك قائلاً بصعوبة: «سبق لك أن وعدتني وكذبتَ».

كانت الحافة أوسع من جسمه، فركض بأقصى سرعة على امتدادها؛ محاولاً الوصول إلى مكان ما آمنٍ نسبياً. وتمكن من سماع صوت المخالب على الصخر من مكان ما في أحد الجانبين، فيما تردد صوت الأنفاس العميقة.

إذا لم يقم بشيء ما قريباً فسيموت.

ملتصقاً بجانب الأُخدود، ألقى شارلوك نظرة سريعة إلى الأسفل، فرأى قبّعة بالتاسار البيضاء فحسب.

متضرّعاً إلى الله كي يكون استنتاجه حول الفهدَين الأميركيَّين وعلاقتهما بالتاسار صحيحاً، قفز شارلوك وسقط فوق بالتاسار، موقعاً إيّاه على الأرض، وجاعلاً مسدسه يختفي في الظلام. اصطدمت كتف شارلوك اليسرى بصخرة على أرضية الأُخدود أثناء محاولته التدحرج؛ مما سبب له ألماً شديداً. وعندما وقف على قدمَيه، كان بالتاسار واقفاً وهو يُمسك ذراعه اليسرى بيده اليمنى. لقد بدا مشوَّهاً كما لو أن عظامه الرفيعة قد انقصمت من جراء سقوط شارلوك عليه.

كان قناعه المصنوع من البورسلان مرميّاً على الأرض، على بُعد خطوات قليلة، ومحطَّماً إلى أجزاء. أما وجهه الذي فقَد القناع فبدت عليه تعابير كراهيةٍ بَحتة.

زمجر بالتاسار: «واضعاً التهذيب الجنوبي جانباً، سأراقب حيوانَيّ وهما ينتزعان اللحم عن عظامك وأنت لا تزال على قيد الحياة». لقد بدت العَلَقات السوداء الأصغر حجماً كثقوب على وجهه وامتداد لسماء الليل وراءه. ونظر إلى جانب شارلوك، ثم قال: «ها هما». وصاح بثلاث كلمات باللهجة الجشاء التي اعتاد استخدامها لدى تواصله مع الحيوانَين.

متوقعاً في أية لحظة الشعور بثِقل الفهد على ظهره، وبالألم بسبب قيام مخالبه بتمزيق لحمه، خطا شارلوك إلى الأمام في اتجاه بالتاسار.

لم يكن الرجل النحيل يتوقع ذلك، فجفل وتراجع إلى الوراء، مواصلاً الإمساك بذراعه اليسرى. ولكن شارلوك مدّ يده اليسرى النابضة بالألم وانتزع العَلَقة الحمراء من وراء أُذُن بالتاسار، فانسلخت عن بشرته مع بعض المقاومة، وتناثر الدم على كتف بِذلة بالتاسار البيضاء؛ السوداء تحت ضوء القمر.

فصاح بالتاسار بصوت عالٍ ورفيع يعبّر عن صدمة وغضب في آن معاً.

كانت العَلَقة العملاقة الحمراء مبلَّلة، وتُحدث صوتاً في يد شارلوك. وقبل أن يتمكن بالتاسار من القيام بأي شيء، وقبل أن يتمكن الفهدان الأميركيان من الوثب عليه، رفع شارلوك سكينه وقطعها إلى قسمَين، فتلوّت والتفّت، وسال دم بالتاسار على راحة يده. عندها، استدار شارلوك حاملاً بكل من يدَيه جزءاً من العَلَقة، ورمى الجزءين للفهدَين المتقدّمَين في اتجاهه.

ونظراً إلى ردّ فعلهما في وقت سابق على شرفة بالتاسار، توقع شارلوك أنهما سيستديران ويهربان خَوفاً، ولكنهما فاجآه. فقد تلقّف الفهدان نصفَي

العَلَقة في الهواء كما لو أنهما لُقمتان سائغتان، وابتلعاهما بكاملهما، ثم واصلا التقدّم نحوه.

لا، ليس نحوه، وإنما كانت عيونهما مثبَّتة على بالتاسار.

تحرك شارلوك مبتعداً ببطء، فتجاهله الفهدان، وواصلا تقدمهما نحو بالتاسار.

الأمر معقول بشكل غريب. إذ إن الرجل الذي تحكّم بهما مُصاب وضعيف، والعَلَقة التي كانا يخشيانها زالت من الوجود. وأيّاً يكن النفوذ الذي مارسه بالتاسار عليهما، فقد وُضع حدّ له. وقد باتا الآن يملكان النفوذ، ولا يمكنه إلحاق الأذى بهما.

تراجع بالتاسار إلى الوراء، وكانت الحافة الصخرية خلفه، فقال أمراً ما باللغة التي اعتاد بواسطتها السيطرة على السنّوريّين، ولكنهما تجاهلاه.

كان شارلوك يراقب بفم جافّ وقلب خافق. تراجع بالتاسار خطوة أخرى رافعاً يدَيه في اتجاه الفهدَين، ولكن الأمر انتهى بقدمه اليمنى خارج الحافّة الصخرية الناتئة؛ في الفراغ، فوقع في الظلام صارخاً.

وقف الفهدان الأميركيان هناك للحظات ناظرَين من فوق الحافّة، ثم توجّها نحو التلال من دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر أو إلى شارلوك.

وقف شارلوك هناك لبعض الوقت ملتقطاً أنفاسه، ومنتظراً انحسار الألم الذي يشعر به في كتفه. لم تبدُ له مكسورة. على الأقل، هذا أمر إيجابي.

لم يَعُد الفهدان الأميركيان.

أخيراً، قصد المكان حيث كانت فرسه تقف منكمشة من شدة الخوف، وهدّأ من روعها، ممرّراً يده بنعومة على جانبَيها حتى كفّت عن الارتعاد. وبعد ذلك، جلس على السَرج، وتابع رحلته إلى أسفل المنحدر المؤدي إلى الأراضي المُعشَوشِبة.

وفي أسفل المنحدر، عثر على جثة بالتاسار ملتوية ومحطَّمة في منطقة عشبية منبسطة. لم تكن العَلَقات موجودة على وجهه. فقد غادرت_ كما هو مفترَض_ سعياً وراء طريدة أخرى لحظة توقّف ضخّ الدم عبر أوردته. ليس قراراً منطقياً بالضرورة، ولكنه غريزيّ.

لا بد أن يكون شارلوك قد غفا على صهوة فرسه في طريق العودة، لأن الأمر التالي الذي أدركه هو أن فرسه تعدو عبر ضواحي البلدة، وظهور احمرار أزرق في الأُفُق. توجّه شارلوك إلى الإسطبل، وترك الفرس مربوطة خارجه، ثم قصد الفندق. فباستطاعته الحصول على وديعته في وقت لاحق.

لم يكن هناك أحد في غرفة الطعام عندما دخل، فتوجّه إلى غرفته في

الطابق العُلوي. لم يحاول أحد إيقافه. وكان قد توقّع تقريباً خروج أحدهم لمهاجمته، أو قفز مخلوق ما على كتفَيه عندما يُدير ظهره. ولكنْ، لم يحصل أي من ذلك؛ بل كان هناك سلام وهدوء لا غير. دخل شارلوك غرفته، وانزلق تحت الأغطية. لقد بدا الأمر كما لو أن شيئاً لم يحدث، كما لو أنه لم يغادر الغرفة منذ أن دخلها للمرة الأولى في ذلك الصباح، بعد الرحلة الطويلة والشاقة التي قام بها مع ماتي وفرجينيا عبر الأراضي المُعشَوشِبة من منزل بالتاسار.

ونام من دون أن يحلم، أو حلم ولكنه لم يتذكر الحلم عندما استيقظ؛ وهذا أمر جيد ربما.

كانت الشمس تسطع عبر نافذة غرفة نومه عندما استيقظ، فاستلقى هناك لبعض الوقت؛ مفهرِساً ما جرى، ومودِعاً الأحداث في ذاكرته. وبعد ذلك، ارتدى ملابسه ونزل.

كان أميوس غروي في غرفة الطعام يتحدث إلى عميلَين من وكالة بينكرتون. قال لهما شيئاً ما، ومن ثم توجّه نحو شارلوك عندما غادرا.

«لم أرَك منذ صباح أمس. كنت منشغلاً مع عملاء بينكرتون، ولكن ماتي وفرجينيا قالا إنك لم تغادر غرفتك مطلقاً. لا بد أنك كنت بحاجة إلى النوم».

«لقد نمتُ». قال شارلوك.

«هناك خدوش على يدَيك لا أذكر أنني رأيتها يوم أمس».

«أعتقد أنها ظهرت في الليلة المنصرمة». قال شارلوك.

«ربما». وحدّق غروي بشارلوك على المستوى نفسه للحظات قليلة.

سأل شارلوك: «ماذا حدث؟ ما الجديد عن بالتاسار واجتياح كندا؟».

أجاب غروي: «أُلغي الهجوم على جيش التحالف بواسطة المناطيد؛ فقد أشعل أحدهم النار بها. ربما يكون الفاعل أحد عملاء بالتاسار. إنها النظرية العامة بأية حال، ومن أنا كي لا أوافق عليها!؟».

«لقد تمّ تجنّب مجزرة على الأقل». أشار شارلوك.

«أجل». وافقه غروي الرأي. «كان وزير الحرب مؤيّداً لمواجهة كبيرة بين جنوده وجنود بالتاسار، ولكن أوامره أُلغيت بطريقة ما، واغتنمتُ الفرصة لوضع خطة ناجحة بمفردي. استخدمنا جون ويلكس بوث لتنفيذ هدفنا، وجعلناه يطلب من جيش بالتاسار التفرّق. باستطاعته أن يكون مُقنِعاً جداً عندما يُعطى الدواء المناسب ويُعرَض عليه بديل عن الإعدام شَنقاً. لا أعتقد أن العديد من الجنود كانوا راغبين في خوض معركة

حقيقية، فقد كانوا سعداء عندما طُلب منهم العودة إلى منازلهم».

«وجون ويلكس بوث؟».

«وفقاً للتاريخ، إنه مَيت. وسيُرسَل رجل يُدعى جون سانت هيلين إلى مستشفى للأمراض العقلية في بالتيمور. إذا أُعطي الدواء الملائم بجرعة ملائمة، يُفترض ألاّ يسبب المشاكل، وأن يصبح مطيعاً. حتى وفاته، على الأقل».

«والسَّجن؟». قال شارلوك.

«إنه مجرم نظراً إلى كل ما قاله وفعله. وهذا الحُكم أفضل مما يستحقه».

فأومأ شارلوك برأسه؛ ليس لأنه موافق على ما قاله غروي تماماً، بل لأنه لم يشأ أن يجادل بصفة خاصة. «وماذا عنا؟ ماذا سيحدث بعد ذلك؟».

أجاب غروي: «سنعود إلى نيويورك، وسنحصل على تذاكر للسفر إلى إنكلترا. قد يتطلب ذلك يوماً واحداً أو يومَين. أعتقد أننا قضينا وقتاً أكثر من كافٍ هنا. فبقدر ما أُحب مسقط رأسي إلاّ أنني أستمتع في إنكلترا؛ هذا عدا عن تناول الخُضار المسلوقة لمدة طويلة والبودِنغ التي يتصاعد منها البُخار».

«ألن... تبقى؟». سأل شارلوك متردداً.

فهز غروي رأسه الكبير وأجاب: «هناك أعمال كثيرة عليّ القيام بها في مكان آخر. عددنا كبير هنا، ولكنني بمفردي في إنكلترا. لديّ عمل أقوم به. ووعدتُ شقيقك بأن أعلّمك التفكير بشكل منطقي واستخدام الدليل، وأظن أنني لم أحقق الكثير على هذا الصعيد بعد».

في وقت لاحق من ذلك اليوم، استقل أربعتهم_ غروي، وفرجينيا، وشارلوك، وماتي_ القطار عائدين إلى نيويورك، وتمكّن غروي من تدبّر تذاكر لهم على متن سفينة مغادرة إلى إنكلترا بعد أيام قليلة. حتى إنهم تمكنوا من تناول الطعام في نيبلوس غاردن ذائع الصيت في ليلتهم الأخيرة؛ المَحار بالطبع، وقِطع لحم كبيرة. ولكن شارلوك وجد نفسه منزوياً في تلك الليلة، ومفكراً في ما حصل بقليل من الانفعال. لقد بدا الأمر كما لو أنه واجه الكثير من الأمور في الأيام القليلة الماضية لدرجة أنه شعر بشيء ما يتّقد في داخله، وأمِل في أن يعود إلى طبيعته قريباً. إذ لم يكن يحب الشعور بالانفصال عن بقية العالم.

كما شعر بقلق فرجينيا عليه؛ فقد واصلت إلقاء نظرات سريعة عليه

أثناء تناولهم الطعام، ووضعت يدها على ذراعه للحظات، مرةً واحدة أو مرتين، وكانت ترفعها عندما لا يُبدي أي رد فعل.

بعد أيام قليلة، فيما كان شارلوك يقف على متن السفينة عند الدرابزين، ويراقب اختفاء مرفأ نيويورك بعيداً، وجد نفسه يرتعد بالرغم من دفء الشمس وقلة الريح. لقد شعر أنه مريض ومنحرف المِزاج، ولكنه لم يعرف كيف يجعل نفسه أفضل.

فجأة، قال صوت مألوف وراءه: «إذاً، كيف كانت عاصمة نيويورك العظيمة؟ هل قمتَ بما كان يتعيّن عليك القيام به؟».

فأدار رأسه نحو مصدر الصوت. إنه راف ستون، عازف الكمان الإرلندي الذي التقاه أثناء الرحلة التي حملته إلى أميركا، يقف إلى جواره متّكئاً على الدرابزين، وعلبة كمانه موضوعة على ظهره، وشعره الأسود الطويل مُسدَل على ياقته.

«ظننتُ أنك ستبقى في أميركا!». قال شارلوك متفاجئاً.

فأجاب راف بأسف: «آه، في ما يتعلق بهذا الشأن، ربما لم أُشِر إلى الأمر سابقاً، ولكنني واجهتُ القليل من المعاناة في البلد الأم، وكنت آمل أن يكون سعيي وراء إناء الذهب الأسطوري عند هذا الطرف من قوس القُزَح خطوة جيدة؛ ولكن تبيّن لي أن الناس كانوا يوجّهون رسائل على امتداد قوس القُزَح ذاك نفسه، وكان أحدهم بانتظاري عندما وصلتُ إلى هنا». وتنهّد. «من كان يظنّ أن يجد الإرلندي كل العالم الإجرامي بانتظاره في نيويورك مُخاطاً كجثة في كَفَن؟».

«إذاً، ماذا سيحدث الآن؟ إلى أين ستذهب؟».

«يتوقف الأمر على الظروف». أجاب راف محدّقاً إلى الماء. «هل تعرف أحداً بحاجة ماسّة إلى مدرّس خاص للعزف على الكمان؟».

فأجاب شارلوك: «الأمر مسلٍّ بما فيه الكفاية. أعتقد أنني أعرف شخصاً».

انتهى

---

[1] قطعة نقدية بريطانية قديمة تساوي 5 بِنسات .

[2] نبتة متسلّقة مزهرة .

[3] لحية صغيرة مدبَّبة .

[4] دودة تتطور وتتحول إلى فراشة .

[5] حيوان يشبه السنجاب، تغطي جسمه وذَيله أشواك واقية .

[6] حلقة تتدلى من السَّرج لمساعدة الخيّال في الركوب بوضع قدمه عليه .

[7] كمّاشة ذات فكَّين مسطحَين للإمساك بالأشياء الصغيرة أو بسلك .

[8] حشرة ذات مِقبضين كالكلّابتين في مؤخر الجسم .

[9] لعبة تدحرج فيها الكُرات بشكل منحنٍ بسبب وزنها .

[10] رقصة سريعة لشخصَين .

[11] تُصنع من أمعاء الحيوانات وتُستعمل في الآلات الموسيقية .

[12] مسمار يُستخدم لتثبيت قطعتَين من المعدن إحداهما إلى الأخرى .